الإيدز العربي

يوسف إدريس



الإيدز العربي

تأليف
يوسف إدريس



الإيدز العربي

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ «٠» ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٣ ٢١٢٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٩
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

المحتويات

كلمة — أيضًا — لا بدَّ منها

أريد أن أتكلم بصراحة في موضوع أنا متهم به؛ فمنذ بضع سنوات قامت ضدي حملة، بدأت من بعض كُتابنا وصحفيينا الصغار الذين يراسلون صحفًا ومجلات عربية، ثم أصبحتُ الموضوعَ المفضَّل لصفحات وملاحق الأدب في تلك الصحف، ثم أصبح أول سؤال أُسأَلُه في أي حديث صحفي أو أدبي، وأقول سؤالًا، ولكنه في الواقع يُذكر على هيئة اتهام وكأنه اتهام بالخيانة العظمى: لماذا تركت الأعمال الأدبية، ومنها القصة القصيرة والرواية والمسرح واتجهت للمقالة الصحفية؟

وكنت أجيب إجابات زاهدة أحيانًا، زاعقة أحيانًا أخرى، أقول فيها يا ناس أتريدون من رجل يرى الحريق يلتهم بيته أن يترك إطفاءه للآخرين، وأن ينتحي ركنًا من هذا البيت المحترق ويكتب قصة أو رواية عن هذا الحريق الذي بدأ يمسك بجلبابه؟ إني إنما أدافع في مقالاتي تلك، دفاعًا يوميًّا عن وجودي اليومي وعن كل قيمي وكل ما أومن به، وأذود عن عِرضي وعِرضكم وشرفي وشرفكم، ولا أفعل هذا خارج دائرة الكتابة، فأنا لم أنضم إلى حزب ولا كوَّنت تنظيمًا، أو هاجرت إلى فرنسا أو إنجلترا، وإنما أنا قاعد في داري القاهرية إلى الأبد أحاول بكل ما أملك من جهد أن أقوم بدوري ككاتب، وإذا كنتم أنتم تسمونها «مقالة صحفية» فهذه في الواقع تسمية خاطئة تمامًا، باعتبارها تكرارًا لمفهوم مقالات فترة الثلاثينيات والأربعينيات التي رسَّخت لدى القارئين فكرة عن أن المقالة عمل عقلاني محض، لا دخل للعاطفة أو الوجدان أو الفن فيه، وإنما هي «أفكار» مرتبة ترتيبًا منطقيًّا، كطريقة حل تمارين الجبر والهندسة، تؤدي إلى نتيجة. أنا أكتب كتابة انطباعية، والانطباعية مدرسة حتى في الفن التشكيلي؛ فأنا أترك الواقع ينطبع على مخيلتي ويرسم صورة قد تكون رهيبة وقد تكون متناقضة ومضحكة، ولكنها تحتوي على كل عناصر العمل الفني الانطباعي، وأحاول أن أوصل هذا الانطباع إلى الآخرين عن طريق ما سمَّيته

«المفكِّرة». هي إذن ليست مثل «مقالات» العقاد، أو طه حسين أو سلامة موسى بل في حقيقة الأمر ليست مقالات بالمرة لها أولًا وثانيًا وثالثًا، ثم استنتاج أخير على طريقة الأكاديميين أو البحوث والمقالات الأكاديمية، ولكنها نوع من الفن الانطباعي المكتوب قد يملك صفات القصة ولكنه ليس قصة، وبعض خصائص الشعر ولكنه ليس شعرًا، وفيه ملامح من المسرح ولكنه ليس مسرحًا، وإن احتوى عناصر كثيرة من عناصر الدراما.

ولقد ظلوا يلحون عليَّ بالسؤال: لماذا تركت الفن إلى الصحافة؟ وأنا أحاول إفهامهم ما قلته سابقًا، دون جدوى، وأخيرًا، بدل الانفعال، قنعت بالسخرية — منتهى الحكمة — وقلت من يدري عسى يأتي ناقد يومًا يُنصفني ويُفهم هؤلاء الناس ماهية الكتابة الفنية أصلًا، وأنها في أحيان لا يمكن أن تندرج تحت عنوان محدد مثل القصة، أو كما كانوا يسمونها الأقصوصة أو الرواية أو القصيدة، أو كما كان يسميها المرحوم الدكتور محمد مندور «الأوتشرك»، إذ هي أيضًا ليست كذلك كما في فن «الأوتشرك» الروسي أصلًا.

ولهذا يا عزيزي القارئ أنا أجمع شتات تلك الأعمال بين دفتي كتب، أراعي في كل منها أن يكون هناك خيط ما بينها ليحقق الكتاب في النهاية «رؤية» كاملة، مثلما يحققها، في النهاية، أي عمل فني طويل.

وقد نجحت كثير من الكتب في أن يتلقفها القراء، سواء من كان قد قرأ بعضها أو من لم يقرَأْها. كتاب «الإرادة» مثلًا، طُبع ست طبعات، «فقر الفكر وفكر الفقر»، «أهمية أن نتثقف يا ناس»، «خلو البال المصري»، وغيرها، عدة مرات وهي تطبع وتُقرأ وتؤدي رسالة تعجز القصة أو الملحمة عن أدائها.

من أجل هذا أقدِّم لك هذا الكتاب، على الأساس السابق، فهو ليس بحثًا في الإيدز، ولا في الإشعاع، ولا في أفريقيا، ولكنه بحث دائب عن الداء جنبًا إلى جنب مع الدواء.

ومن يدري، لعل وعسى، يشفي، أو على الأقل ينجح في أن يضيء للقارئ أشياء كانت مجرد مشاكل عقلانية محضة، لا يجد لها حلًّا.

فإذا لم يفعل الكتاب ومحتوياته سوى هذا، وإذا وصلت الرسالة، فإن سعادتي لن تقدر وجهدي الكبير في كتابتها سيرد إليَّ أضعافًا مُضاعَفة.

يوسف إدريس

القاهرة، يوليو ٨٨

صباح الخير

من أغرب الأشياء التي تجعلك تعتقد أن التركيبة النفسية للجنس البشري متشابهة إلى أبعد الحدود، كل ما في الأمر أن العوامل التاريخية والجغرافية والطبيعية هي التي تصنع الفروق بين الأجناس، من أغرب تلك الأشياء تحية الصباح إذا أشرقت الشمس، وتحية المساء حين يحل الظلام؛ فهي بالعربية مثلًا صباح الخير، وبالإنجليزية جود مورننج «صباح الخير»، وبالألمانية جوتن مورجن «صباح الخير». وبالروسية دوبرى أوترا «صباح الخير». وبالإيطالية بونجورنو «صباح الخير» والفرنسية بونجور، وكذلك في الفلندية والهولندية والسواحيلية، وكل ما يخطر على بالك من لغات. أيضًا تحية المساء: مساء الخير بالعربية، وبونسوار «مساء الخير» بالفرنسية، وجود إيفننج بالإنجليزية وجوتناخت بالألمانية، وبوناسيرا بالإيطالية، وكذلك بالروسية والهندوكية والتايلاندية والكي سواحيلية.

ولي عشرات السنين وأنا أتأمل هذه الحقيقة البسيطة، وأظن أني كتبت عنها مرة وقلت إن نفسية أي إنسان في أي مكان تستقبل مشرق الشمس بنفس الإحساس، وتستقبل مقدم الليل بنفس الإحساس، ولكن هذا في رأيي لا يكفي؛ إذ لا بدَّ أن إحساس الإنسان بالخير ومعنى الخير، وقدوم الخير، والفرق بينه وبين الشر، وتفرقته بين الخير وبين الشر، معنى ذلك أنها أشياء قديمة جدًّا في النفس البشرية، وشموليتها في العالم كله تدل على أن الإنسان البدائي كان يفرق بالسليقة — حتى دون أن يعي معنى الخير ومعنى الشر — كان يفرق بينهما، أنَّى وُجِد، سواء أكان في جوف الأحراش أم في قمم الجبال وأعماق السهول، في الشمال والجنوب والشرق والغرب. والمعنى الأخطر لهذا أنه مع بداية نمو المعاني المجردة وإدراك الإنسان البدائي لهذه المعاني، بعد أن كان لا يدرك إلا بحواسه المباشرة وبأحاسيسه، تلك التي ظلت تتشابك وتتعقد حتى بدأ «عقل» الإنسان يوجد، بل حتى حين بدأ «عقل» للحيوان يوجد، حين حدث هذا بالنمو التلقائي؛ معناه أن التطور

الذي حدث لخلايا عقله والروابط والعلاقات الكيميائية والإنزيمات وأدق مراكز الأعصاب، كانت هي الأخرى في حالتها قبل وجود العقل، تحس بالخير وبالشر، دون وعي؛ لأنه من هذا الإحساس اللاواعي، نفسه تخلق الإحساس الواعي بالخير وبالشر. هي مسألة علمية عويصة ولكني من هؤلاء الناس الذين يعتقدون أن الحياة خيِّرة بطبيعتها، حتى في تركيباتها العضوية واللاعضوية؛ فالنبات خيِّر بطبعه وكذلك الحيوان، ولا بدَّ حينذاك أن يكون الإنسان خيِّرًا بطبعه. أما الشر فهو القاعدة الشاذة التي تنتجها الظروف الشريرة حين تتكاتف، مثل تواجد الطمع والأنانية مع البيئة المناسبة لخلق إنسان أناني شرير، أو حين يقع الشر في مصادفة شريرة تجعل إنسانًا معينًا يخرج من بيته في لحظة معينة إلى مكان معين «ليتصادف» أن تمر عربة مجنونة السرعة تدهمه وتأخذ عمره.

نعم. إن إدراك الخير المختبئ في النهار إذا جاء النهار، وفي الليل إذا حان الليل، إدراك قديم جدًّا، قِدم الحياة البشرية، بل أقدم من الحياة البشرية نفسها؛ فالأميبا، تلك المُركَّبة من خلية واحدة تُدرك الخير في النور حين تنجذب إلى النور وإلى الطعام البدائي يغذيها، وابتعادها عن الشر ممثلًا في عدو مجهول مقترب أو ظلام محدق.

أتمنى لكم صباحًا خيِّرًا يا سكان العالم كله، وعلى الأخص سكان عالمنا العربي، ذلك الذي يكاد يحدق به الشر وينتصر عليه.

اللون الأبيض

حجرة نومي هي حجرة عملي وسرحاني وتمددي ومعمل تفكيري، ولم أكن أتصور أن هذا الانقلاب في تفكيري سيحدث بهذا الإجراء الصغير الذي قمت به. كنت منذ عشر سنوات قد اخترت لونًا لورق الحائط، بدأ في ذلك الحين حديثًا جدًّا وجميلًا جدًّا، وكان لون زخرفته بنفسجيًّا وكذلك كانت السجادة، ومنذ عامين بدأت أضيق بالحجرة، لم أكن أعرف لماذا، ثم تأملت المسألة فوجدت أني أضيق بلون الورق ولون السجاد وهذا الجو البنفسجي الذي طال، ولأني لم أكن متأكدًا من ذلك التشخيص كسبب لضيقي؛ فقد ظللت أؤجل العلاج أو التغيير أسبوعًا بعد أسبوع وشهرًا بعد شهر؛ فأنا أعرف مشقَّة نزع الورق وإعادة الطلاء ولصق لون جديد، إلى أن بدأت رحلة سفر طويلة قاطعًا المسافة من أقصى الشرق في بلادنا العربية الرياض إلى أقصى الغرب في الرباط وأجادير، وذات مكالمة تليفونية طلبت من زوجتي ورفيقة حياتي أن تمد إصلاحات المطبخ إلى حجرة النوم وأن تختار هي اللون المناسب، وحبذا لو كان فاتحًا جدًّا، وحين عدت وجدت سيدة البيت قد اختارت اللون الأبيض، ومن كله بنفسجي إلى كله أبيض مع لمسات من لون ذهبي، وفوجئت وأنا أُشعل نفس الضوء أن الحجرة تضيء جدًّا، أكثر من الأول بكثير، ثم فوجئت حين استيقظت من النوم أني مرتاح نفسيًّا جدًّا وكأنما اختفت جدران الحجرة تمامًا وأسلمتني إلى فضاء لا نهائي، أحسست أني مرتاح جدًّا لأفكاري وأن دموية اللون لا وجود لها، راحة غريبة لم أكن أعرف بالضبط سببها في ذلك الوقت، ولكن في اليوم التالي وما بعده اكتشفت السبب، إنه اللون الأبيض، واستغربت تمامًا؛ فمنذ أن كنت أدرس الطبيعة في كلية الطب، كنت أهتم بكل الألوان ما عدا اللون الأبيض، فهو صحيح مكوَّن من كل ألوان الطيف الأحمر والبنفسجي والأصفر والأخضر والأزرق وما فوق البنفسجي وما تحت الأحمر ولكنه بدا لي وأنا طالب لونًا لا طعم خاص له، وكأنه ليس لونًا وكأن لا لون له، إنه العادي تمامًا، لا

يمكن أن يكون له تأثير الأزرق مثلًا أو الأحمر، ولقد ظللت على هذا الاعتقاد طويلًا، إلى ذلك اليوم الذي صحوت فيه منشرح الصدر هادئ الأنفاس مؤمنًا تمامًا في قرارة نفسي أن كل مشكلة لها حل، وأنه إذا كان الأعداء ينتصرون مؤقتًا فالنصر النهائي لنا بالتأكيد؛ فنحن الذين على حق، والتاريخ لا يُبنى على باطل أبدًا؛ فكل باطل مصيره الفناء، وكل حق مصيره البقاء. كما نقول بالمصري «احلوِّت» الدنيا في عيني، وراح التوتر.

لا بد أن للون الأبيض، لون النهار، لون كل الأشياء المشرقة، تأثيرًا نفسيًّا خاصًّا على البشر. وما اتُّخِذ رمزًا للخير عبثًا؛ فاللون المضاد له هو الأسود، وهو لون الشر والحقد والفاجعة، إذن كان شعبنا على حق حينما اتخذ تحية «نهارك أبيض»؛ فهي تحية لا لعب بالألفاظ والمعاني فيها، إنما هي اكتشاف عبقري للشعب، وهو اكتشاف خاص بنا، فلا يوجد في أي لغة في العالم تعبير مثل تعبير «نهارك أبيض»، وإنما نحن بدقة مشاعرنا وبالقوى الغريزية الكبيرة التي تربطنا بالنهار والليل وبالصحراء وبالخضرة، اكتشفت نفوسنا القديمة منذ أمد بعيد، سر اللون الأبيض وثبتته في الذاكرة الجماعية، وصدِّقوني ليس هذا تمجيدًا للون الأبيض وإعلائه على كافة الألوان، وإنما هو إحساس شخصي يحدث لي لأول مرة في حياتي، وقد يكون غيري قد اكتشفه من زمن، ولكني هنا أعبِّر عن تجربتي.

نهاركم أبيض إن شاء الله.

قرَّاء هذه الأيام

منذ أيام نشرت الشرق الأوسط صورة لي على عمود أسفلها خطاب أو مقالة صغيرة تفضَّل بها أحد القراء في استعلاء شديد راح يلقنني درسًا في هجاء اللغة الإنجليزية، موضحًا لي أنني أخطأت في هجاء كلمة Scaning ثم من هذا المنطلق مضى في تعالٍ يلوم الكُتاب الذين يضعون النص الإنجليزي بجوار الكلمة العربية متهمًا إياهم بالتحذلق ومحاولة إثبات علمهم الوطيد باللغات الأجنبية، في حين أن هذا أمر — كما يقول — في عصرنا هذا، لم يعد مدعاة لأي فخر.

وفي الحقيقة استغربت فلقد اعتدنا أن يناقش القراء آراءنا وينقدوها أو يهدموها هدمًا، أما أن يرسل قارئ رسالة يؤنِّب فيها الكاتب على خطئه في هجاء كلمة ولو كانت أجنبية فهو أمر غريب. غريب من جريدتنا الشرق الأوسط أولًا فهي مسئولة عن أي خطأ مطبعي أو هجائي يجمعه عامل الطباعة خطأ؛ إذ لا بدَّ لديها — كأي جريدة دولية أو محلية — قسم خاص بالتصحيح ومقارنة أصل المقال بالمادة المجموعة لمطابقتها، فإذا حدث الاختلاف وحدث الخطأ فقسم التصحيح ومن ثَم الجريدة هي المسئولة عنه، وقد كان من واجبها أن تنشر رأي القارئ وأن تبادر هي بالرد عليه، والاعتذار للكاتب وللقارئ معًا.

أما حين تفضِّل الشرق الأوسط أن تنشر الخطاب أو الرأي دون تعليق من عندها فإنه عمل يتضمن أنها تشارك القارئ لا الكاتب رأيه وهو ما أستغرب له، بل وما دام صديقنا الأستاذ عثمان العمير رئيس التحرير مُصرًّا على رأيه في ضرورة الحوار الدرامي الناقد، هكذا علنًا على صفحات الجريدة، فها أنا ذا أوجِّه له نقدًا على صفحات الجريدة نفسها باعتباره المسئول عن كل كلمة أو خطأ مطبعي أو مبدئي يُنشر في الشرق الأوسط؛ فمسئولية الكاتب تتوقف بتسليمه الأصل الصحيح إلى الجريدة لتبدأ مسئولية رئيس التحرير؛ أقصد

أقسام الجريدة المختلفة التي تنتهي عند رئيس التحرير. أما عن القارئ الفاضل فإني أعتذر له على هذا الخطأ المطبعي الذي دفع عامل الجمع باللغة الإنجليزية إلى جمعه هكذا، ودفع المصحح إلى ألا يلحظه أو يراه، وأعتذر له بالمرة عن الصديق رئيس التحرير باعتباره المسئول.

ولكن رغم هذا الاعتذار أتساءل: هل هذا القارئ العزيز الذي لا يعرف تقنية الجمع والتصحيح والأخطاء المطبعية يسمح له ضميره أن يُعلم كاتبًا هجاء كلمة استعملها الكاتب، وأقل القليل من قدراته أن يعرف كيف يتهجاها، ويبلغ به الأمر حد أن يصحح لي كيف يكتب اسم مجلة «تيم» ويذكر أنها لا بد أن تُكتب هكذا «تايم». يا لعظمة النقد! ويا لروعة الاكتشاف! ألا يعلم سيادته أن فتح التاء وكسر الياء بعدها يجعلان الكلمة تُنطق على وجهها الصحيح، إني أعرف هذا منذ أن كنت في أولى ابتدائي في بداية دراستي للغة الإنجليزية ونطقها، أما الأمر الداعي للسخرية حقًّا فهو أن القارئ العزيز نسي الموضوع الذي كنت أتحدث فيه تمامًا ولم يذكره بكلمة واحدة وكأنه لا يقرأ المواضيع ليفهمها أو يدرك المراد منها، ولكنه يقرؤها ليصححها هجائيًّا أولًا وأخيرًا؛ ولذلك أقترح على الأستاذ عثمان العمير استدعاءه لتعيينه في قسم التصحيح فورًا، ولن تفقد الجريدة به قارئًا ولكنها ستكسب مصححًا.

أما قوله عن هذا الاتجاه في إثبات نص الكلمة الإنجليزية أو اللاتينية وأنه تعالٍ لا لزوم له، فليس في المسألة تعالٍ أو يحزنون. كل ما في الأمر يا أخ أننا نثبت الكلمة الإنجليزية لأن الكلمة العربية في أحيان قليلة — والحمد لله — لا تعبِّر بدقة عن المعنى الحقيقي للكلمة؛ فمثلًا كلمة Scaning الإنجليزية تعني الفحص الشامل القريب باستخدام وسيلة ثابتة دقيقة لإتمام عملية الفحص؛ ولهذا لا تصلح لترجمتها كلمة مسح شامل ولا تعبير الرؤية السريعة كما ذكر القارئ، ولا توجد كلمة عربية واحدة تقابلها وإنما لا بد من ترجمتها في جملة؛ ولهذا فإثبات الكلمة الإنجليزية مطلوب ليس لإظهار التعالم يا أخي القارئ وإنما لوضع الكلمة الإنجليزية بجوار العربية أو حتى بدونها حتى «يتعلم» من لا يعرف كلمة جديدة، أجل، يتعلم يا أخي القارئ، ومن ذا الذي يرفض أن يتعلم حرفًا فما بالك كلمة قد تكون جديدة عليه تمامًا، أو تستعمل بمعنى جديد.

ولهذا فهو ليس انحرافًا ولا تعاليًا وإنما محاولة لتدقيق المعنى لا يمكن أن يرفضه إلا متعالٍ، لا مؤاخذة، بغير علم. والله أعلم.

نحن نموت والعالم يغني

أصابني الأرق ذات ليلة في الفندق، وفتحت التليفزيون، وفوجئت ببرنامج اسمه «التليفزيون الإسكندنافي» برنامج يتحدث مقدموه بالإنجليزية مرة والسويدية مرات، أغاني جميلة وشباب يعيش فعلًا، ويغني ويضحك وكأن لا همَّ له ولا همَّ وراءه، وأدرت المؤشر فإذا بالإرسال يأتي من روما، وحفل يحضره عدة آلاف من الأشخاص معظمهم من الشباب وهم يحيُّون المغنِّين من كافة بقاع أوروبا وأمريكا. مرح وانطلاق وشباب، عالم يغني، عالم ينشرح يعيش ويلهو ويستمتع بحياته ليلًا إلى الثمالة، وجاء موعد نشرة الأخبار في القناة العربية، فإذا بي أرى انفجار طرابلس في لبنان ذلك الذي قتل أكثر من ستين شخصًا وجرح مائتين، وإذا بي أشاهد جثث القتلى من الشباب في الحرب المجنونة التي يشنُّها الخوميني — باسم الذهاب إلى القدس — ضد العراق. جثث وانفجارات وتدمير وقتل، وطبيعي تمامًا أن تستغل إسرائيل الوضع، تقتل «دولة!» في وضَح النهار قائدًا فلسطينيًّا يسكن بلدًا عربيًّا مستقلًّا. الحقيقة أحسست أننا أكثر شعوب العالم معاناة، وأنها معاناة مفروضة علينا فرضًا. وأن أمريكا وإسرائيل أحالتا حياتنا إلى جحيم نهرب منه وكأنه الجحيم. لنا الخراب والأزمات ولهم المرح والأغاني، هم يرقصون ويجأرون بأصوات السعادة ونحن نجأر عويلًا وصراخًا مظلومين ومقتولين.

يا إلهي!

هذا الكابوس الحي الجاثم على صدرونا يمنعنا أن نفرح أو نستبشر أو حتى نفكر فيما سوف يكون عليه الخلاص، أمَا من آخر له، أمَا من حل؟ إنني شخصيًّا أحيا في ذلك الكابوس منذ عام ٤٦ إلى الآن. بلا لحظة راحة واحدة أو تنفس للصعداء، طفولتنا ضيَّعها الفقر وضيق الرزق، وشبابنا مظاهرات وسجون، ورجولتنا حروب ودفاع متواصل عن

النفس والوجود، من يسقط منا يسقط دون أن نملك له حولًا، ومن يتغير ويزهق ويلقي المبادئ في الوحل لا ننظر له حتى بدهشة وإنما نأخذ الأمر وكأنه وضع طبيعي، تشوَّهنا داخليًّا من فرط ما نراه أمامنا من قُبح وموت وقتال، وكأنما جئنا في الزمن الخاطئ، أو كأن جدودنا من زمن سحيق قد ارتكبوا إثمًا وحلَّ علينا نحن الذنب والعذاب والعقاب.

جالت كل هذه الخواطر بذهني وأنا أقارن بيننا وبينهم ولا أحس بالظلم البَشِع فقط وإنما أحس أيضًا أننا من فرط الظلم الواقع علينا أصبحنا نظلم أنفسنا أيضًا، وكل كتاباتنا وأفكارنا أقصى مدى لها في المستقبل هو الغد، أو حتى آخر النهار الذي نحيا فيه. قصروا أبصارنا وأفكارنا أن تجد حلًّا طويل المدى لحياتنا. نعم طويل المدى؛ فالحلول القصيرة لم تعد تُجدي، فلا يمكن للإنسان أن يظل طول عمره يلهث ويجري، والأعداء بأعصاب باردة تمامًا وعيون زرقاء لا ذرة انفعال فيها، يدبرون ويخططون لضربنا في موجع أو مقتل. وبعد أن نملأ الدنيا صراخًا من فرط الألم نعود إلى اللهث والجري.

أمَا من عقل أو تفكير عربي يرسم لنا ماذا يجب علينا أن نفعل لنعيش وتطول أعمارنا بحيث نبلغ مرادنا وندفع عن أنفسنا أذى الأعداء؟!

من وحي دمشق

حين ذهبت إلى دمشق في العام الماضي لحضور مهرجان المسرح أحسست بمدى الكارثة السياسية التي حلت بنا نحن كُتاب ومثقفي وفناني العالم العربي المجيد؛ فدون أن يكون لنا في الأمر يد أو رأي أو استشارة أو استخارة وجدنا العالم العربي الجميل، الذي كنا نحياه في الخمسينيات، قد تحوصل وتحوَّل إلى دول ودويلات ذات حدود وجوازات وقوائم سوداء وحمراء، وسلسلة من الممنوعات الغريبة التي ما أنزل الله بها من سلطان، أنا لا أطعن في أحد، ولا أقول إن هذا الحاكم أو هذا الشخص أو تلك السياسة بعينها مسئولة أو غير مسئولة، أنا فقط أقرر أمرًا واقعًا وهو أننا ككُتاب وفنانين نعاني من تلك الأوضاع الإجرامية في بعض الأحيان.

كان من عادتي أن أزور دمشق كل عام أو عامين واكتشفت في العام الماضي أن عشر سنوات قد مرت لم أرَ فيها أصدقائي الشعراء والكُتاب، ولم أسهر في ليلة دمشقية أو سحبت روحي نظرة من عيون دمشقية، ما ذنبي أنا إذا كان السادات قد وقَّع كامب ديفيد؟ وما ذنبي أنا أننا كحكومات لا نكتفي بقطع العلاقات السياسية ولكن نبتر معها كل صلة ثقافية أو مهنية أو جماعية أو فنية؟ المشكلة أنه لا يوجد مصري ممنوع من دخول أي بلد عربي لأنه مصري، ولا يوجد عربي ممنوع من دخول القاهرة لأنه عربي؛ فالحدود ترحب بنا وتقول: أنا مفتوحة، مرحبًا بكم، ولكن الويل لمن يتخطى الحدود. ويل له أحيانًا من «الدولة» التي دخلها، وأحيانًا الويل الأكبر له من دولته هو.

المهم أني سعدت تمامًا لكوني أصبحت أخيرًا في دمشق، وأنني قابلت كل من أردت لقاءه من الأصدقاء والأحباب، أما مؤتمر المسرح فقد شاهدت فيه بعض مسرحيات أعجبني بعضها إلى حد مذهل، وبالذات مسرحية «كاليجولا» التي أخرجها ومثَّلها شاب سوري خطير الموهبة، حين علمت أنه من خريجي المعهد العالي المسرحي في القاهرة تعجَّبت؛

فالمسرح التجاري الذي ساد من منتصف السبعينيات إلى الآن في القاهرة قد حطَّم وضرب كثيرًا من المواهب المصرية الشابة وابتلعها، أما دمشق فقد تلقفت تلك الموهبة ومنحتها فرصة وفرقة ومسرحًا ومالًا، وكانت «كاليجولا» وكان غيرها من التحف المسرحية الحقيقية، أنا آسف لكوني نسيت اسم الشاب الرائع، وليغفر لي ذلك مع أنه ذنب لا يُغتفر.

أما المناقشات والندوات والمداخلات وكل هذا الكلام، فقد استمعت إليها قليلًا جدًّا ثم مللت، ذلك أنها كلام «مخرجين» ودارسي مسرح دراسة نظرية محضة، في مهرجان أدنبرة المسرحي مثلًا، وقد حضرته هذا العام، لم تنعقد ندوة سخيفة واحدة عن المسرح، وإنما شاهدنا عددًا كبيرًا جدًّا من المسرحيات والعروض المسرحية، لماذا نحن هواة كلام على الفاضي والمليان، نفتح الإذاعة فنجد الممثلة تتحدث عن كيفية لعبها الدور، ونجد المخرج أو الكاتب يتحدث عن «مقومات العمل الفني» من وجهة نظره؟ لماذا لا نكف عن التقعر والتقعير؟! الفن يعني أن نُري الآخرين عملًا فنيًّا، وليس ضروريًّا أبدًا أن «نُعلِّم» الجمهور ما نقدمه، إن الله سبحانه خلق الجمهور متعلِّمًا جاهزًا لتلقِّي كل ما هو نبيل وعظيم وجميل في المسرح وفي الحياة.

إني أرجو من مؤتمرات الأدباء العرب، والشعراء العرب، والمسرحيين العرب والخطباء العرب أن يقللوا إلى حد العدم من كلامهم عن «الأدب والشعر والمسرح والخطابة والقصة والرواية» وأن يجعلوا من تلك المؤتمرات والندوات والمهرجانات مكانًا للعرض فقط، معرضًا ومباراة بين الأعمال الفنية، ومن هنا تتحقق كل «المقررات» و«التوصيات» التي تتبارى في صياغتها وإصدارها عقب كل مؤتمر، إذ هناك توصية واحدة في مجال الفن والأدب: أن نقدم فنًّا وأدبًا.

أوحشتني دمشق!

نسمة مؤلفة

اكتشفت كارثة، ابنتي الصغيرة نسمة (١٤ سنة) كتبت مسرحية عثرت عليها بالصدفة وأنا أبحث في مكتبها عن صورة شهادة ميلادها، احتجت لها، تصوَّرت أول الأمر أنها واجب مدرسي طويل بعض الشيء، ولكن كان هناك شخصيات وحوار، قرأت وقرأت، وإذا به حوار مسرحي فعلًا، وحين حضرت من المدرسة سألتها فتضايقت أول الأمر ولكنها ذكرت لي في النهاية أنها مسرحية ألَّفتها، ولم أُفاجأ؛ فنسمة عوَّدتنا أن تتقمص بعض الشخصيات وتقلِّدها أو أن تمسك سماعة التليفون و«ترغي» وكأنها سيدة مع جارتها على نسق ما تجده في البيوت المصرية والعربية من رغي شديد بين الصديقات والجارات والقريبات إلى آخر الظواهر «المسرحية» التي كانت تفاجئنا بها، وأعدت قراءة المسرحية فأُصِبت بما يشبه «التوله»؛ ذلك أني وجدتها فعلًا فكرة مسرحية وحوارًا مسرحيًّا، والفكرة غريبة، هي فكرة ثلاث بنات، أمام إحداهن ورق وقلم وتكتب، ومع الأخرى فرشاة وأمامها لوحة وترسم، وثالثة تعزف على آلة موسيقية و: اسمعي هذا اللحن، وتنصت البنتان، وتعزف الأولى أو: انظري إلى هذه اللوحة، تأملي خط الأفق.

المهم أننا بتغيير في الأضواء نكتشف أن لا لوحة هناك ولا فرشاة ولا آلة موسيقية ولا قلمًا ولا ورقة، ولكن البنات منهمكات لا يزلن متحاورات معقِّبات مختلفات وكأنهن فعلًا يعزفن ويكتبن ويرسمن، المهم أن الحوار يقودك، إلى أن يرتبك عليك الأمر فلا تستطيع أن تُدرك إن كانت البنات مجنونات فعلًا، أو إن كان الفن نفسه هو عملية إيهام ووهم كبرى، إيهام الإنسان لنفسه أنه «يفنن» والاندماج في هذا إلى أن يتبنى الآخرون هذا الوهم ويعتقدون أنه حقيقة!

يا رب!

ماذا أفعل، البنت لديها أفكار، وأفكار خطيرة في تلك السن التي لم أكن أعرف فيها معنًى واحدًا لكلمة فن. أيامها كنا فقط نتكلم عن الأدب والشعر ولا نتخيل أبدًا وجود علاقة بين الأدب العظيم وهذا المسمى فنًّا.

أكذب عليكم إن قلت لكم إني كأب لم أفرح؛ فهذه النسمة هي أولى أولادي التي تبدو عليها مخايل التأليف.

ولكن بعد فرحة مؤقتة أحسست بما يشبه الغُصَّة، فمعنى هذا أن الفتاة ستبدأ تنغيص حياتها مبكرًا جدًّا بهذا «الفن»، «الوهم»، «الحقيقة»، «الإيهام» سيضيع منها العالم الجميل جدًّا الذي كنت أتمنى أن تحيا فيه، وتضيِّع في «الأوهام» عمرها، كما فعلت أنا، وكما كان علي محمود طه يقول في ذلك الوقت: «أنا من ضيَّع في الأوهام عمره، نسي التاريخ أو أُنسي ذكره.»

يا إلهي!

في اليوم التالي سألت نسمة، هل تريدين أن تصبحي كاتبة يا نسمة؟ قالت: أنا، وأتعذب مثلما تتعذب أنت في لياليك ونهارك، مستحيل.

قلت: إذن ماذا تريدين أن تكوني؟

قالت: رائدة فضاء لا أقل.

قلت لها: ألا تحلمين بشيء أقل خطورة؟

قالت ببلاغة الكاتبة المسرحية «اللمضة»: الكتابة أكثر خطورة بكثير من ريادة الفضاء، ومعاناتك في الكتابة التي أراها بعيني خير دليل على هذا.

قلت: أمري إلى الله، رائدة فضاء، رائدة فضاء.

وسلامي لرواد الفضاء الذين اخترعوا لشبابنا وشاباتنا حرفة أن نجوب الفضاء بغير كتابة.

حكم المعارضة

عشت في المغرب تجربة عربية أسعدتني تمامًا، كنت في زيارة إجازة للمغرب لحضور اللجنة التحضيرية للمؤتمر القومي للثقافة العربية الذي سيُعقد في أكتوبر هذا العام، ودعانا الكاتب العربي الكبير أحمد إبراهيم الفقيه المسئول عن تنظيم المهرجان، وأنا ببلدية مدينة أجادير لزيارة المدينة، والإقامة في نفس الفندق الذي سيُعقد فيه المهرجان، وقابلنا في مطار أجادير مجموعة من الشباب هم أعضاء المجلس البلدي، وتلك أول مرة أزور فيها أجادير، تلك التي كانت في خاطري مدينة أصابتها الزلازل في أوائل الستينيات وتهدمت تمامًا وكتبت عنها صحفنا في ذلك الحين وجمعت التبرعات، ها أنا ذا في مدينة جديدة تمامًا، نظيفة جدًّا، أسسها العاهل المغربي الكبير محمد الخامس عقب الزلزال، وحول مائدة العشاء، عرفت لأول مرة أن ٢٨ عضوًا من ٣١ عضوًا يكوِّنون مجلس المدينة هم في نفس الوقت أعضاء في الحزب الاشتراكي المعارض، وأن رئيس المجلس البلدي وهو في نفس الوقت أيضًا عضو في البرلمان هو عضو كبير في حزب الاتحاد الاشتراكي. وأسعدني هذا الوضع تمامًا.

نحن نتحدث كثيرًا عن الديمقراطية، وعندنا في مصر تعددية حزبية ومع ذلك فقد وجدت في التجربة المغربية شيئًا جديدًا حقًّا، أن تحكم المعارضة بلدًا أو محافظة وأن تصبح المعارضة جزءًا من مؤسسة الدولة. لماذا لا يحدث هذا كثيرًا وقد رأيت بعيني التجربة ورأيتها ناجحة تمامًا؛ فالأعضاء متحمسون لعملهم ومدينتهم، كل ما في الأمر أن أفكارهم معارضة؛ أي ناقدة لبعض سياسات الدولة، ولماذا لا نسمح للمواطن أن يتناقض مع بعض سياسات الدولة، ولا نتهمه حينذاك، ولا نقبض عليه، وإنما نعطيه عملًا وطنيًّا ونرى ماذا سيفعله؟ أكاد أقول إني رأيت أحسن أعضاء لمجلس بلدي في العالم العربي، بل أؤكد أن أحدًا منهم لم يهتم بإظهار خلافاته — إن وُجدت — مع النظام بقدر ما

اهتموا جميعًا بالحديث عن مدينتهم بحب وبحماس شديدَين، وبقدر أيضًا ما اهتموا بتزويدي بمعلومات وإحصاءات وأرقام خاصة بمدينتهم وبالمغرب عامة. حقيقة، وجدت أن كلًّا منهم أخلص لمدينته ولبلده من أي موظف موالٍ أو محسوب على الدولة وكل أملي أن أصحو في يوم وأجد أن الانتخابات البلدية في بورسعيد مثلًا قد أسفرت عن أغلبية وفدية تسلَّمت أمور المدينة، قطعًا ستتغير آراء مصطفي شردي رئيس تحرير صحيفة الوفد، وسيجمع مادته من واقع هو مسئول عنه، مسئول عن كل ما فيه من خطأ أو صواب. إن الناس لا تعارض لله في لله وإنما لأن لديها أفكارًا أخرى غير الأفكار المنفَّذة والمطروحة، أفكارًا لو أتحنا لها، ولو على نطاق ضيِّق، أن تُنفَّذ، لاستطعنا أن ندرك صحتها من خطئها. إن الديمقراطية الغربية لم تنشأ عبثًا وإنما في جانب معيَّن منها وسيلة لإعطاء الرأي المخالف فرصة كي يراه ويجربه الناس، وبهذا نتفادى الإحباط الذي يُصيب النفس البشرية حين يُكبت رأيها ويُصاب صاحبها بالغيظ والحقد، ومن ثم، التطرف والانحراف. إنه ذكاء سياسي يرجع معظمه إلى الملك الحسن الثاني، وليس لهذا فقط استحسنت هذا الذكاء؛ فما رأيته في المغرب من تقدُّم يدل على أنه الذكاء المغربي يعمل في مختلف المجالات بطاقة حسنة تمامًا، واسمحوا لي أني لم أعد أصدِّق ما «يقوله» أي نظام عربي عن نفسه؛ فالأقوال كثيرة وللأسف كلها جوفاء، والمغرب تكاد تنطبق أقواله على أفعاله، وهذا هو المحك الحقيقي للحكم على نظام سياسي، وأبدًا ليس بما يُطلق ذلك النظام من شعارات.

لقد جاء وقت على النظام المغربي كان يعامل المعارضة فيه معاملة دموية، فكنا نرى فيه نظامًا دمويًّا، الآن تغيرت المعاملة حتى وصلت إلى حد المشاركة؛ ولهذا يقولها الإنسان بضمير مستريح إن النظام قد أصبح أكثر نضجًا وذكاءً؛ إذ قُل لي كيف تُعامل من يعارضونك، أقول لك من أنت.

البُعد الرائحي

لماذا الياسمين له رائحة الياسمين، والفل رائحة الفل، والمسك ذلك المستخلص من الحيوان له رائحة المسك. أنا أفهم مثلًا حكاية ألوان الفراشات المختلفة الجذابة تلفت الأنثى بها أو الذكر نظرة الذكر أو الأنثى لإتمام عملية الإخصاب، ولكن لماذا يفرز الياسمين «رائحته» الخاصة في حين أن الحشرات تكاد لا تكون مزوَّدة إلا بحاسة النظر والرؤية، وهو ما يدفعها لارتشاف الرحيق من زهرة الياسمين، فتتم بهذه الملامسة عملية الإخصاب بين حبوب اللقاح التي تفرزها نفس الياسمينة والبويضة الأنثوية الكائنة في قاع الزهرة. إن معنى وجود رائحة للياسمين أن لها دورًا وفائدة ما، فإذا كانت كثير من الأزهار لا رائحة لها وإنما تتمتع فقط بالمنظر الجميل الذي يجذب الفراشات، فلا بد أن لرائحة الياسمين أو الورد أو الفل أو زهرة البرتقال وظيفة أخرى تمامًا.

بل إني، إمعانًا في التفكير وجدت أن لكلٍّ منا نحن البشر رائحة خاصة به، كبصمات أصابعه، لا تتشابه مع رائحة أي كائن غيره في الدنيا، بل إن لكل حيوان رائحته، بل حتى لكل مادة أو مركب عضوي أو غير عضوي رائحته الخاصة، وكنا ونحن ندرس في كلية الطب مقرر علينا أكثر من مائتَي دواء أو أصول دواء، نتعرف عليها عن طريق الشكل والشم معًا واسم هذا العلم Materia Medica أي علم المادة الطبية. حسن جدًّا. أستطيع أن نقول إذن إن هناك بُعدًا «رائحيًّا» للأشياء! وإن كرتنا الأرضية بكل مكوناتها ونباتاتها وحيواناتها لها — في الكون — رائحة خاصة في حاجة إلى أنوف كونية من حجم وحساسية مناسبة، لتشمها، وإن «رائحة» الكرة الأرضية لا بد مختلفة عن رائحة «الزهرة» أو «عطارد» أو «المريخ».

هذا البُعد «الرائحي» للأشياء والكائنات الحية، بُعد فيه سلم تطور هو الآخر؛ فهناك روائح بدائية شديدة البدائية كأنها الحيوانات الدنيا في المملكة الحيوانية، وروائح أرقى كثيرًا، تصل إلى رائحة الياسمين أو البنفسج.

لماذا إذن هذا التطور في الرائحة رغم عدم أهميته للمادة أو للكائنات الحية أو لوجودها بشكل عام؟ بل لماذا أيضًا هذا التعدد في الروائح؟ فرائحة الإنسان الغاضب غير رائحة الإنسان الخائف، وتلك تميزها جيدًا الكلاب؛ إذ حاسة الشم عندها قوية جدًّا، بل هناك روائح تفرزها أنثى الحيوانات لتثير الذكر وتلك روائح مختلفة تفرزها غدد خاصة، تختلف عن رائحة الحيوان نفسه في حالة الغضب أو الخوف، بمعنًى آخر، ليس لكل كائن رائحته الخاصة فقط، ولكن هذه الرائحة الخاصة نفسها «تتغير» و«تختلف» في الكائن الحي الواحد باختلاف حالته الوجودية، فرحًا كان أو غاضبًا، راضيًا أو مستفزًّا!

هذا البُعد «الرائحي» للإنسان وللحيوان وللنبات وللمادة، الذي يتطور باستمرار إلى أعلى وأسمى وأجمل، لماذا يتطور إلى أسمى وأجمل؟ ألغير هدف ما يفعل؟ أم أنها سنة الحياة وسُنة الخالق أن تتطور المادة بما فيها المادة الحية إلى أسمى وأعلى وأجمل؟ إذن السمو والجمال هدف وما الحديث الشريف: «إن الله جميل يحب الجمال.» قد قيل — أستغفر الله — عبثًا؛ فسلم التطور يصعد إلى المنتهى أو بالأصح اللامنتهى، الله سبحانه، أجمل جمال وأسمى عطر وأدق تناسب وأذكى ذكاء، وكل تاريخ حياة أي كائن، وعلى رأسها الإنسان، هو تاريخ قدرتها على الاقتراب من الأذكى والأفضل والأجمل والأرقى رائحة وشكلًا، هو تاريخ لمحاولاتها للاقتراب من صفات الله، رغم قدراتها المحدودة تمامًا بل واستحالة وصولها إلى أكمل كمال وأجمل جمال.

الصمت

حين تحوَّل العالم من عالم زراعي إلى عالم صناعي، جاءت الضجة معه، ضجة الآلات والقطارات والسيارات والمصانع، وضجة الإنسان العامل على تلك الماكينات، باختصار لو كنت قد وضعت سونومتر (مقياس للصوت) في عام ١٧٠٠م مثلًا، لما ارتفع مؤشره إلى أكثر من درجتين، بينما لو وضعته الآن في نفس المكان لوصل المؤشر إلى المائة وما بعدها.

ولأن النهضة الصناعية تلاحقت بسرعة، بدأت الآلات البخارية والقطار وهي الآن تحوي مئات الآلاف من الآلات وربما ملايين، فإن الثلاثمائة عام لم تكن تكفي أبدًا كي تتواءم أجهزة العقل البشري مع هذا الارتفاع الرهيب في كم الضجة ونوعها، كان يلزم للإنسان على الأقل ثلاثة آلاف عام ليهضم عقله تلك الضجة وليرتفع حاجز الضجة، أو «عتبة» الضجة داخل عقله ارتفاعًا يحول بين تلك الضجة وبين النفاذ إلى خلاياه وإرباك توصيلاتها العصبية.

كل هذه الخواطر دارت في ذهني وأنا في زيارتي الأخيرة لليابان، وهي لم تخطر لي في الشارع؛ فشارع طوكيو شارع كأي شارع في عاصمة عالمية حافل بضجة السيارات والموتوسيكلات، وحتى مظاهرات الحزب الفاشي في اليابان تقوم بها عربات أوتوبيس سوداء ضخمة مجهزة بمكبرات عالية للصوت، ومحصنة بشبكات من الصلب ضد القذف بالحجارة أو التحطيم بالعِصِي. أحسست بهذا في الحقيقة في المسرح الياباني، في المسرح «الكابوكي» على وجه التحديد، ولكني أحسسته بطريقة ملموسة تمامًا إلى حد التجسد الكامل في مسرح «النو». ومسرح «النو» مسرح غريب إذ لا جديد في قصصه وأساطيره وإنما كلها تقريبًا محفوظة، وهي تشبه نوعًا من الأوبرا اليابانية الخالصة، ولكنها أوبرا غريبة مبنية على أسطورة تشبه حواديتنا الشعبية إلى حدٍّ كبير، وأبطالها أسطوريون أيضًا ويرتدون أقنعة تدل على شخصياتهم وما ترمز إليه، أما الأغرب في هذه الأوبرا فهي فترات

الصمت، فترات صمت طويلة جدًّا؛ حيث يصمت الممثلون ويصمت الجمهور صمتًا شبه مقدس، صمتًا طويلًا عميقًا ولكنه صمت مليء، مليء بوشوشة أشجار الغابة التي يدور فيها الحدث مثلًا، أو بزقزقة عصفور، أو عواء بعيد جدًّا لذئب، صمت يتحدث إلى صمتك، يُحدِّثك صامتًا وتُصغي له صامتًا، صمت في حاجة إلى قدرة غريبة على ضبط الذات الداخلية وأمرها بأن تُسكت كل هواجسها وتصيخ السمع، صمت في الحقيقة لم أحتمله، ووجدت نفسي أنام، فأنا أبدًا لم أوجد في حياتي وسط إصغاء مركز كهذا الإصغاء، وإذا حلَّ من حولي السكون التام فأول ما أفعله أن أنام.

ولكني عدت إلى المسرح في ليلة تالية، وهذه المرة لم أنم، بل وطَّنت نفسي على أن أُصمت كل ما في داخلي وأن أستوعب هذه الأصوات الغريبة القادمة من المسرح في تباعد قد يبدو لا معنى له، وأحيانًا توقفه دقة طبلة أو صياح طير، ولكن الأساس هو الصمت، وكان أن عشت التجربة، وهنا فقط ومن يومها بدأت أحس بالإنسان الياباني إحساسًا أقرب إلى الحقيقة؛ فهو إنسان قاعدته الأساسية أن يفكر داخليًّا قبل أن ينطق بحرف، عكسنا تمامًا؛ فمعظم أحاديثنا ليست حوارًا ولكنها تفكير بصوت عالٍ، مونولوجات تفكيرية حامية الوطيس، ولهذا فمن يتأمل فينا الأشياء من حوله بصمت نعتبره شخصًا غير اجتماعي وتقيل الدم وخارجًا عن إطار المجموع.

ولكني شخصيًّا أثناء الزيارة وبعدها وإلى الآن أصبحت أحترم الصمت، وأحب الأماكن التي لا ضجيج فيها ولا صخب، وجنيت الثمار؛ فأفكاري بدأت تخرج أكثر نضجًا، وقلَّت تمامًا ملاحظاتي المندفعة، وبدأت أدرك أهمية أن يصمت العالم من حولي، وأهمية أن أعوِّد نفسي وأروِّضها لكي أُخرس الضجة داخلي؛ لأن هذا حين يحدث، لا أصبح أكثر حكمة فقط، ولكني أحس بنوع غريب جدًّا من السعادة المفتقدة.

جرِّبوها مرة.

الكواليس

أيام دامية تلك التي عشناها في هذين الأسبوعين في «أبريل» (نيسان) وكأنما انطلقت كل الجبهات ضدنا نحن العرب، وبقدر ما صُدمت وصُدم العالم كله بمقتل الشابين الكويتيين في لارناكا في حادثة اختطاف الطائرة الكويتية، بقدر ما أعجبت أيَّما أعجاب بالموقف الشجاع والحاسم لحكومة الكويت وأميرها الحاكم. «براد يفير» متوحش يحدث للأسف داخل العالم الإسلامي وفي رمضان المبارك وعلى مرأًى ومسمع من عالم يستنكر ولا يتعاطف، ويتعايش ولكنه أبدًا لا ينحاز، فكلهم في نظره مسلمون «أولاد ...» فدعهم يأكلون بعضهم بعضًا.

ولكن الحادث الجلل حقًّا كان هو اغتيال أبو جهاد، وعلى تلك الصورة التي انتهكت أرض دولة عربية، وأظهرت بلادنا وكأنها كلها حتى أقصى مكان فيها في متناول ما تسميه إسرائيل بيدها الطولى، وكأنه أمر واقع وحقيقي. أم تكون الكارثة؟ ويكون أمرًا واقعًا وحقيقيًّا؟ وبقدر ما أصابني الوجوم طوال النهار للخبر، رحت أتساءل بغيظ لماذا لم نتعلم من درس اغتيال السبعة في بيروت؟ لماذا لم نتعلم من الغارة الإسرائيلية على «فيلا غزيزة» ومقر قيادة بل مكتب ياسر عرفات؟ لماذا هذا الانتشار الإعلامي لقادة المنظمة وكأن المسرح شرعي ومباح لهم فيه الظهور علانية والحياة علانية والجمع بين حياة الأسرة الهانئة وحياة الثورة المسلحة؟ لقد واتاني من فرط الغيظ خاطر؛ أن حياتنا العربية كلها تجري على مسرح مضاء ومعروف ومشهور، بلا كواليس، والكواليس بلغة المسرح هي العمق المسرحي، العمق الذي تُدبَّر فيه بصمت كلُّ الأشياء، العمق الذي لا يراه متفرج واحد. العمق العميق الذي لا تسمع له صوتًا أو ترى له صورة، العمق الفعال المخيف حيث يتم التخطيط والتدبير، بحيث لا تظهر بعده إلا «الضربة». وهي بسرية تامة قد حدثت، وبتكتُّم تام نجحت.

هذا العمق يبدو أن لا وجود له في حياتنا؛ فلقد عرفت الموساد أفراد حادث ميونيخ فردًا فردًا، كيف عرفتهم إلا من دردشاتنا وافتخاراتنا، والنتيجة أنها تتبعتهم وقتلتهم فردًا فردًا، وعرفت الموساد أين يقطن أبو جهاد وكيف وما عدد حرَّاسه، أمعقول هذا، مسئول الكفاح المسلح الفلسطيني يعيش هكذا مثلنا، حتى ولو كان يعيش في تونس البعيدة؟ يبدو أن الحقيقة التي لم نهضمها بعد هي أن إسرائيل تحاربنا بكل ما لديها من جدية وتصميم، وتقتلنا، ولا تعلن مسئوليتها وتتفاخر بهذا، ولكن العالم كله يعرف أنها الفاعلة، والمخططة، والمجرمة، وهي لا يهمها العالم، يكفي أنها تحقق ما تريد.

أما نحن فالعالم يهمنا تمامًا والرأي العام العالمي لا بد أن نكسبه، ونكسبه بإشهار أنفسنا، وكأن في هذا إشهار للقضية، وكأن القضية في حاجة لإشهار في حين أن العكس هو الصحيح؛ ففي إخفاء أنفسنا إشهار أكبر للقضية، وبالعمل السري العميق يكمن نجاح الثورة العلنية.

لماذا لا نبدأ ونصنع لأنفسنا «الكواليس» العميقة المغطاة التي لا يتسرب منها شعاع نور ولا كلمة تصدر ولا حديث ولا مسرح ولا إشهار؛ إذ يكفي أن نعلم أن المرأة الوحيدة التي اشتركت في العملية، وكانت من الإجرام بحيث تولَّت تصوير الاغتيال خطوة خطوة، كانت لسنين كثيرة متنكرة في شخصية صحفية أمريكية لصيقة الصلة بحياته وعائلته، وهي التي استأمنها على إجراء الكثير من الأحاديث الصحفية المصورة معه.

في جنة الخلد أيها الشهيد، شهيد العلانية التي لا معنى لها في حرب ضروس تخوضها ونخوضها ضد أعداء شديدي القدرة على التآمر والعمل في ظلام تام.

الخالق الأول والأخير

أروع قراءاتي الشخصية هي تلك التي أقرأ فيها كتابًا جديدًا عن موضوع علمي لا يزال مجهولًا، أو إن كنا قد عرفنا أشياء عنه، فإننا لم نعرف بعدُ كل الحقيقة، ومسألةُ العلم والجهل معادلة غريبة، فازدياد علمك بالأشياء، أحيانًا يزيدك جهلًا بها، حتى إنني، شخصيًّا، أحيانًا أعرِّف العلم بأنه كم علمك بمدى جهلك بالموضوع الذي تفكر فيه، فمثلًا علم الفلك في السنوات الأخيرة استطاعت الوسائل العلمية الحديثة مثل التلسكوبات ذات العدسات القوية جدًّا، والتلسكوبات التي تستعمل اللاسلكي للتصنت على الأحداث الكونية البعيدة، وتلك التي تستعمل أشعة الليزر، بالاستعانة بأينشتاين ونظرية النسبية العامة وتصوره عن الكون، استطاع هذا كله أن يجعلنا نرى كونًا غريبًا تمامًا، أكبر بكثير من الكون المستأنس الذي كان يتصوره العلماء أيام فلاسفة وعلماء العرب القدامى، مثل ابن سينا وابن الهيثم إلى أواخر القرن الماضي؛ فقد ثبت أن الكرة الأرضية ليست سوى كوكب مسكين في المجموعة الشمسية التي ليست سوى شمس متواضعة في إحدى أذرع مجرتنا، وأن مجرتنا ليست سوى واحدة من ملايين المجرات التي تكوِّن «كوننا»، وأن كوننا هذا ليس سوى كون واحد من ملايين الأكوان التي تشكِّل الكون الأكبر، وإلى هنا انتهت رسائلنا الحديثة جدًّا وقدرتها، وظل السؤال حائرًا، أتلك هي نهاية الوجود، أم أننا فقط وصلنا إلى هنا، وأن الطريق لمعرفة نهاية النهاية للكون الأكبر الموجود لا يزال طويلًا جدًّا؟!

بمعنى أن علوم الفلك الحديثة قد كشفت لنا أشياء جديدة ولكنها أيضًا كشفت لنا كم «الجهل» الذي لا يزال أمامنا للوصول إلى التصور الأعمق.

وإذا كان الفلك هو علم دراسة الأكوان المرئية الكبيرة، فعلوم الذرة هي علوم دراسة الأكوان الأصغر كثيرًا جدًّا التي تشكِّل الوجود «المادي» ولا تستطيع ولا يمكن أن نرى مكونات الذرة إلى الآن، فأي محاولة لرؤيتها تستعمل ضوءًا أو أشعة «إكس»، أو طرقًا

حديثة جدًّا ليس هذا مجال شرحها، وهذه الطرق نفسها تؤدي إلى تغيير تركيب الذرة، بحيث لا تعود ذرة؛ بحيث تتشتت محتوياتها على هيئة انفجار ذري، لو كانت النواة كبيرة كنواة اليورانيوم أو على هيئة وابل من الإشعاعات المكونة من أجسام صغيرة جدًّا تسمى أ، ب، جـ … إلى آخره.

وحين كنت في لندن قضيت يومًا بأكمله في مكتبة «ماندارين» في «ناتنج هيل جيت» أبحث عن آخر ما أخرجته المطبعة في مجال تركيب الذرة بالذات؛ فهوايتي الكبرى هي دراسة الطبيعة النووية ومتابعة بحوثها، ليست متابعة متخصص ولكنها متابعات هاوٍ، على شيء قليل جدًّا من العلم، بمعادلاتها، منذ المعادلات الساذجة التي كنا نأخذها في ثانوي، إلى المعادلات المعقدة جدًّا التي أفرزتها نظرية الكم وماكس بلانك، ونيل بوهر وأينشتاين. إلى آخر هؤلاء الرواد الحديثين.

ولا أريد أن أجعل هذا الموضوع موضوعًا علميًّا ثقيل الدم؛ فأنا أريد أن أصل إلى خلاصة ما قرأته عن تركيب المادة، وأيضًا لا أريد استعمال الأسماء العلمية مثل الميزونات والبوزيكرونات والميكو كونز، إلى آخر تلك القائمة. خلاصة ما انتهى إليه العلماء أن الذي يعطي للذرة مواصفاتها ووزنها ويُبقيها على قيد الوجود الذري وعمرها الذي يُقدَّر بواحد وأمامه ستة وعشرون صفرًا من السنين، هو ما يسمى بنواة الذرة. وقد كنا في الخمسينيات ندرسها على أنها مكونة من «بروتونات» فقط، حولها تلف إلكترونات، يختلف عددها ومجالاتها باختلاف الذرات، وأن ما بين الإلكترونات والبروتونات «فراغ» ذري. وقد ثبت أن هذا كله أضغاث أحلام؛ فالبروتون ليس سوى «عالم» صغير بأكمله من الجسيمات وأن لا فراغ في الذرة سواء داخل النواة أو خارج النواة، وأن الإلكترون نفسه الذي كان يعتبر أصغر وحدة للوجود، ليس سوى عالم مركب أصغر وأصغر، وأن فيه هو الآخر جسيمات أصغر وأصغر.

في ماذا تسبح تلك الجسيمات وماذا يربطها ما دام ليس هناك، في الذرة أو في الكون، فراغ؟ وهل هناك فعلًا فراغ أم أن «الفراغ» هو الآخر خرافة؟

هل تتابعونني إلى الموضوع القادم؟

«لماذا» هي الإيمان، «كيف» هي العلم

نعم ليس هناك فراغ، لا داخل الذرة، ولا خارجها، بل ليس هناك فراغ بين الكرة الأرضية والشمس أو غيرها من الكواكب والشموس، ماذا أستطيع أن أقول؟ إن الوصف العلمي الدقيق يستغرق كتابًا بأكمله «وأنا هنا لست سوى ضيف علم أرجو أن أكون خفيفًا تمامًا وأن أستطيع أن أملأ هذا الحيز الصغير بشيء مفيد» المهم يا أعزائي ليس هناك فعلًا فراغ، وإنما هو مادة من نوع آخر غير المادة الصانعة للذرات، ومن ثم الجزيئات، ومن ثم أنت وأنا والكرة الأرضية وكل الأشياء «الكبيرة» التي نراها.

تلك المادة الأخرى لا يزال العلماء محتارين تمامًا في إدراك كنهها بحيث أصبح السؤال هو: هل هناك «مادة» واحدة وأقصد بالمادة تلك العناصر من أكسجين وحديد وكربون إلى آخر جدول العناصر لمندلييف إذا كنتم ما زلتم تذكرونه من أيام الدراسة؟ هل هناك «مادة» واحدة أو بالأصح عدة مواد، أو بأكثر دقة عدة مستويات للوجود، ومنها ذلك الوجود المضحك فيما يسمى بـ «ضد المادة».

وهو ما عكف مؤلفو الخيال العلمي على النهل منه، باعتبار أن كل مادة في الكون، لا بد أن يقابلها — ليتوازن الكون — مادة مضادة وأن لكل إنسان منا مثلًا إنسانًا في كون آخر شحنته ضد شُحنتنا، بل هناك افتراضات أكثر جرأة تقول إن ضد المادة موجود في ثنايا تكوين المادة نفسها وما كنا نسميه فراغًا بين جسيماتها.

لا أدري إذا كان قارئي أو بالأصح كل قرَّائي سيتابعونني إلى الآن، فالموضوع يحتاج لاطِّلاع مسبق وإلمام إلى حدٍّ ما بتركيب الذرة وعلوم الفلك، ولكني أريد أن أعود إلى ما بدأته في الموضوع السابق من أن التقدم العلمي يكشف لنا مقدار ما لا نزال نجهله، وأريد أن أعود لهذا الحديث لأسباب تخص حياتنا المعاصرة؛ فأنا أقرأ في صحفنا المصرية، أو بالأصح بعض صحفنا، وأسمع في أجهزة إعلامنا من يريد أن نغلق باب البحث العلمي والمنطق

العلمي والتفكير العلمي باعتبار أنها تؤدي في النهاية إلى الكفر أو الإلحاد، وما زلت أذكر أن عالمًا نباتيًّا ذكر في تلفزيوننا أن نبات البنفسج يحتوي على سُم في أزهاره ليدافع به عن نفسه ضد الحشرات، فإذا برسالة تصل إلى محرر صحفي تستنكر هذا وتقول إن النبات لا يحوي سمًّا، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي وضع السم في البنفسج بحكمته الإلهية العليا، وخطاب القارئ يريدنا أن نَنسُب كل شيء إلى المولى سبحانه وإلا نكون قد انحرفنا تمامًا عن ديننا أو حتى كفرنا.

إلى هذا القارئ وإلى الكثيرين من القراء وبعض الأدعياء أقول إن السببية أي إرجاع الأشياء إلى أسبابها هو محاولة لمعرفة أدق بالمعجزة الإلهية وليس إنكارها معاذ الله أو تجاهلها؛ فالله سبحانه هو الخالق الأول، وأحدث الكتب العلمية التي قرأتها تأتي إلى بداية حركة الكون كله ولا تجد لها إلا سببًا إلهيًّا محضًا، كل ما يدرسه العلماء هو الأشكال والطرق والسبل التي اتخذتها المادة في مساراتها المختلفة لتتشكل منها ظواهر الوجود، من جماد إلى نبات وفراغ وإنسان وعقل مدرك وكل شيء، هذه الدراسات لو اطلعنا عليها وأمعنا النظر فيها لوجدنا مساحة تبهر الأنفاس لقدرة الخالق الأول والأخير، وحينئذٍ يكون إيماننا بالله سبحانه وبإسلامنا ليس فقط أقوى ولكنه الطريق الوحيد للإيمان، فالقرآن الكريم مليء بالدعوة إلى تأمل الكون؛ الأنعام «كيف» خُلقت، والسماء «كيف» رُفعت، كلمة الكيف هنا هي مواضيع العلم حديثه وقديمه، العلم كله يبحث في «كيف»، أما لماذا فهي رسالة الله سبحانه في أكثر أشكالها تجريدية. الإيمان بالإسلام وبالرسول ﷺ ودعوته هي الإجابة الوحيدة لسؤال: لماذا، ولم يكتشف البشر بعد ولن يكتشفوا إجابة أخرى. «لماذا» الإجابة عنها إجابة واحدة فقط: إرادة الله سبحانه.

أما «كيف» فالإجابة عليها هي الجهد البشري بالدراسة والعلم لمعرفة «كيف» تعمل القوانين الإلهية، وهكذا تجعلنا أقرب ما نكون إلى المولى سبحانه. ألم يقل في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يخشونه لأنهم يرون في بحوثهم ليعرفوا «كيف» يعمل أو يتحقق هذا القانون أو الوجود، يرون أكثر من غيرهم القدرة الإلهية المعجزة التي تحقق هذا.

أجل، «لماذا» إجابتها وإنما هي الله، هي العقيدة، هي الإيمان.

أما «كيف» يحدث ما يحدث فهي من صميم واجب العلم والعلماء والقدرة البشرية.

«لماذا» هي الايمان.

و«كيف» هي العلم.

وفي هذا بلاغ للناس كافة، وعلى رأسهم أولئك الأدعياء الذين يشجبون العلم ويستهينون بالعلماء، ويعتبرون أن الدراسة والتعلم وفك أسرار الوجود وكأنما هو عمل — معاذ الله — يعتبر تدخلًا في عمل الخالق.

هذه الكلمات كتبت عام ٨٧ قبل أن تبدأ معركة التكفير الكبرى عام ٨٨، تلك التي استهدفت تحريم الفن والسينما والتمثيل والتليفزيون واعتبرت العلم غزوًا فكريًّا غريبًا لا بد من مكافحته وتجريم المطالبة بتعلمه.

كتبت كل هذا وكأني كنت أيامها أقرأ كتاب الجهل المفتوح، وأرى الكثير من صفحاته القادمة، ويا لهول ما كنت، ولا أزال أراه!

يونيو، ٨٨

أنا غير خائف على أنفسنا

أنا شخصيًّا غير خائف أبدًا على أنفسنا كعرب بل لست خائفًا على الفلسطينيين أنفسهم من إسرائيل، في الحقيقة أنا خائف على أنفسنا من أنفسنا.

إن دولة إسرائيل القائمة الآن كانت فكرة أو مبدأ اعتنقه بعض المتطرفين اليهود الذين سمَّيناهم بعد هذا «الصهاينة» وكان شأنهم في المجتمع اليهودي المبعثر في أنحاء العالم شأن «الخوارج» في الدول الإسلامية مثلًا، أو شأن الولاة والأئمة في إيران، بل ربما أقل كثيرًا، ولكن باعتبارهم شعبًا ظل طوال التاريخ أقلية مضطهدة في كل بلد أوروبي أو غير أوروبي عاش فيه، لاقت فكرة «هرتزل» وزملائه حماسًا أدى إلى تجنيد عدد أكبر وقيام منظمات إرهابية لتحقيق الفكرة وخلق رأي عام عالمي أدى إلى انتزاع وعد «بلفور»، وبعده بست وأربعين سنة قامت إسرائيل كدولة، وتصور كثير من الإسرائيليين أنهم قد وصلوا إلى الذروة وحققوا الفكرة التي كان يبدو أن تحقيقها من المستحيلات، ومجرد تحقيق الفكرة أدى إلى انضمام معظم يهود العالم إلى هؤلاء القادة الصهاينة ودولتهم الوليدة الجديدة التي أرادوها ديمقراطية ليبرالية حلوة كالعروسة في وسط الدول العربية المتخلفة العجفاء حينذاك.

ولكن من كانوا وراء المشروع الإسرائيلي لم يروا سوى أحلامهم وامتداداتها، ولم يدركوا حتى أبسط قوانين الطبيعة، من أن لكل فعل رد فعل مساويًا له في المقدار ومضادًّا له في الاتجاه، وهكذا بينما تخلَّقت إسرائيل الدولة، تولَّدت فكرة القومية العربية والوحدة العربية وكانت ثورة ٢٣ يوليو، واشتعل العالم العربي كله صوتًا واحدًا ضد إسرائيل.

ولأنهم كانوا — أي العرب — مجرد أصوات وخطب ميكروفونات، استطاعت إسرائيل أن تهزم الدول العربية؛ أقصد مصر وسوريا والأردن في أي حرب دخلتها، وبهذا تحولت الدولة والعروسة إلى دولة شرهة مصاصة للدماء تحلم أحلامًا إمبراطورية هوجاء، مثل

استقدام جميع يهود العالم لاحتلال المنطقة العربية كلها بالقوة والإكراه، والتوسع وضم الأرض حتى سكروا بخمر يحرز الانتصار الذي حدث غيلة وعن دهاء وخبث وليس أبدًا عن شجاعة قتال أو روح مقاتلين؛ فاليهود — بطبيعتهم — ليسوا مقاتلين، وكل ذكرياتهم عن القتال مأخوذة من أساطير التوراة ومعاركها القصصية، وهي النغمة التي ظلوا يعزفون عليها عند الأجيال الجديدة ليثيروا فيهم روح الأجداد ويواصلوا انتصاراتهم عبر التاريخ.

إلى أن فاجأتهم حرب ٧٣ بما كانوا لا يتوقعونه أبدًا، أن ينهزموا أمام المصريين والسوريين وحدهم، وما لم يتدخل الأمريكان كان يمكن أن تصبح الهزيمة حقيقية وأمرًا واقعًا، ولولا الاتفاقات غير المكتوبة لضاعت الدولة الأسطورة أو أسطورة الدولة.

ثم جاءت انتفاضة الشباب والصبية والأولاد والبنات، جاءت أخيرًا ثورة الحجارة لتكشف القناع عما يسمَّى «جيش الدفاع» الإسرائيلي، عن قيادة دولة إسرائيل وتعطشها للدماء ولإخضاع الشعوب الأخرى بالرصاص في الظهر وفي المليان والحرث بالدبابات والبولدوزرات.

ولكن ما حدث في ناحيتنا (الناحية العربية والإسلامية) كان هو الأخطر؛ فإن انتصار الدولة العنصرية اليهودية كانت ردة فعله الطبيعية قيام حركات إرهابية إسلامية، وتعصبًا ليهوديتك، أنا متعصب لإسلامي ومسيحيتي وشيعتي، وفي منطقة موبوءة بالتعصب من قديم الأزل، جاءت تلك الدولة المتعصبة لتؤجج التعصب من جديد، تعصب ممكن ببساطة شديدة أن يتشابك ويتساند ويسقط الحكومات العربية الموجودة ويتولى هو ذبح الإسرائيليين وإلقاءهم في البحر كما ظلوا يتقوَّلون؛ فثلاثة ملايين متعصب إسرائيلي يمكن أن يهزموا مائة وعشرين مليون عربي، ولكن هذه الملايين الثلاثة ستذوب تمامًا أمام مائة مليون متعصب عربي، وهذه هي الكارثة الحقيقية. فإنها لن تقضي على إسرائيل فقط، ولكن الردة الحضارية التي ستحكمنا بعدها ستؤخرنا إلى مئات السنين.

إن إسرائيل بما تفعله، بعنادها وتعصبها وعماها، إنما تسير في طريق الانتحار مهما حازت من قنابل وأسلحة، وهو انتحار سنعاني منه نحن كما لم نعانِ في أي فترة من فترات التاريخ، وحتمًا سننتصر، ولكن الردة التي يسوقوننا إليها، والتعصب الذي لا بد منه لهزيمة العدو، سندفع نحن ثمنه الفادح من تقدمنا وحضارتنا وكل ما حققناه من حضارة وتقدم!

وهنا تقع الكارثة.

حين انعدلت القضية

لأمر ما، كنت — ولست أدري لمَ؟ — أتصور أن إسرائيل دولة شديدة الذكاء والخبث، تخطط إلى أبعد الآماد، وتحقق خططها بطول بال، وبدقة، وتخفي أهدافها عن الجميع، حتى عن أصدقائها الأمريكان.

وحين قام الجيش المصري بهجومه المفاجئ في حرب ٧٣ وبعد ٢٤ساعة، كان الجيش الإسرائيلي قد تمزق إربًا، وتشتت أمام الجحافل المصرية وأصبح الخطر يهدد إسرائيل نفسها وليس جيشها في سيناء، بدأ هذا التصور عن إسرائيل وذكاء قادتها ومخابراتها وقوَّادها يتهاوى أمام ناظري تمامًا، وبدأت أعتقد أن سر قوة إسرائيل سببه الأوحد ضعف القوة العربية وتمزقها وخلافاتها وزعاماتها الكثيرة التي تأبى كل منها إلا أن تكون المنفردة بالمجد والقيادة العليا والانتصار.

وحين انتهت الأمور إلى احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة تصورت أن إسرائيل ستستفيد باعتبارها أحدث أنواع الاستعمار الاستيطاني من كل الدروس ومن التجارب الإنجليزية والفرنسية والأمريكية في الاحتلال والاستعمار، وإنها ستُخضع هذه الأماكن بذكاء وأساليب سياسية وتآمرية يعجز الفلسطينيون المحتلون عن مقاومتها، ولكن أثبتت الانتفاضة الأخيرة للشعب الفلسطيني كله سواء في قطاع غزة أم في الضفة أم في الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨م، والتي اعتقدت إسرائيل أنها بمرور الوقت قد اندمجت في الكيان الإسرائيلي أو «تهوَّدت» إلى أبد الآبدين.

حيث حدثت هذه الانتفاضة ووجدت الحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي يتصرفان قبلها بأغبى وأجرم طريقة يستعملها أي محتل؛ أي بمحاولة إخضاع الثورة العارمة بالقوة القاهرة وبالحديد والرصاص والقتل والنار. انتهيت إلى الاعتقاد أن إسرائيل ليست أغبى دولة محتلة فقط، بل أغبى من الاستعمار الأمريكي الذي انسحب من فيتنام ضاربًا

عرض الحائط بسمعة ومجد وعظمة أمريكا التي سينال منها هذا الانسحاب، وأغبى من الاستعمار الإنجليزي الذي حين وجد مظاهراتنا في عام ٤٦ تجأر بالجلاء فيقابلها العساكر الإنجليز بالرصاص ويسقط الشهداء في ميدان قصر النيل (التحرير الآن) وفي ميدان المحطة بالإسكندرية سارع الإنجليز بالجلاء عن القاهرة والإسكندرية ليبعدوا بوجوههم الحمراء عن أنظار المصريين شبابًا كانوا أو نساء أو رجالًا.

ذلك أن أبسط المبادئ في التعامل مع إنسان أو شعب ثائر ألا تحاول استعمال القوة القاهرة معه؛ فالقوة لا تُخضع الثائرين أبدًا وإنما تزيد الثورة اشتعالًا، وسقوط الضحايا بالعشرات أو المئات لا يفلُّ من عضد الثائرين أبدًا، بل يعطيهم مزيدًا من أسباب الثورة المقدسة حين تجتاح شعبًا من الشعوب، تشتعل لأن الروح الجماعية هي التي تقضي على الإحساس الفردي بضرورة المحافظة على الذات، ويصبح الفرد مهما كان وصفه، جزءًا من قوة كبرى، أكبر من كل عدد، وعلى هذا يتصرف، وقد رأيت بعيني يوم خرجنا من كلية طب قصر العيني وانضمت إلينا بقية كليات الجامعة وزحفت المظاهرة الرهيبة في شارع قصر العيني إلى ثكنات قصر النيل الإنجليزية، وبدأ إطلاق الرصاص، كيف أننا كنا ونحن طلبة شباب أمامنا المستقبل العريض، ننظر إلى إطلاق الرصاص بكل استهتار وقد حدث أن أصابت رصاصة طالبًا كان بجواري مباشرة فانحنيت عليه غير عابئ بأن الرصاص لا يزال ينطلق تجاهنا، وانحنى معي عشرة من الطلبة ورفعنا الشهيد فوق أكتافنا ودمه يسيل، ونحن نُخرج مناديلنا نعطرها بدمه ونحاول إيقاف النزيف، نحمله ونهتف: الجلاء بالدماء، الجلاء بالدماء. وكنا نردد هذا الهتاف في كل المظاهرات تقريبًا، ولكن، هذه المرة والدم يسيل، طعم آخر ومذاق آخر، ومفعول السحر في أجسادنا حتى لقد كهربها تمامًا، وسارت فينا رعدة من يريد الموت فعلًا، بل يفضله في هذه اللحظة بالذات على الحياة.

لقد ظلت القضية الفلسطينية تتقاذفها الأيدي والأهواء والاتجاهات الخاطئة، وقد كان رأينا ونحن شباب وطلبة أنه لا يجب أن تتدخل الحكومات العربية بجيوش منظمة في الثورة الفلسطينية، وإنما الثورة يقوم بها الشعب الفلسطيني نفسه ونساعده نحن بالتطوع والسلاح والأموال، ولكن إسرائيل وحلفاءها كانوا يريدون الجيوش النظامية ليفرضوا عليها الهدنة مرة، ثم ليكرِّسوا بهزيمتها ومفاوضات قبرص قيام دولة إسرائيل، ولو ظلت المسألة ثورة الشعب الفلسطيني نفسه، لما قامت دولة إسرائيل بهذا الاعتراف العربي، ولظل الشعب الفلسطيني ثائرًا وحاملًا السلاح، ولما هاجر؛ فإسرائيل تستطيع قتال الجيوش

النظامية في ذلك الحين ولكنها أبدًا، لا هي ولا أية دولة في الدنيا، تستطيع قتال شعب بأكمله، وقد كان هذا فيما أعلم رأي عبد الناصر في القضية الفلسطينية، ولكن دهاء وذكاء قادة إسرائيل في ذلك الحين بن جوريون وديَّان ومائير وغيرهم رأى أن يحوِّل المسألة إلى مسألة حرب إسرائيلية مصرية تظهر فيها بمظهر المعتدية التي تريد اجتياح إسرائيل، إذن ستكون حرب دولة لدولة، وليس شعبًا مقهورًا مستعمرًا محتلًّا مأخوذة أرضه بالقوة ضد غاصبيه، وهكذا جرجر الإسرائيليون عبد الناصر إلى حرب ٥٦ وحرب ٦٧ وأصبحت المسألة مسألة مصر — والعرب — إسرائيل باشتراك سوريا والأردن، ولكن الحس الشعبي أبدًا لا يُقهر، فبهزيمة ٦٧ قامت فتح وبقية منظمات منظمة التحرير الفلسطينية لتملأ الفراغ، ولكن، لأسباب كثيرة حاولت تلك المنظمات أن تملأ الفراغ من الخارج، من الأردن مرة، ومن لبنان مرة أخرى، وبخطف الطائرات مرة ثالثة، وبقي الشعب الفلسطيني حبيس سجنه بإسرائيل يصدق وعود مؤتمرات القمة وصيحات دول التصدي، وينتظر يوم الخلاص وجهود السلام وعقد مؤتمر السلام وتواضعت المطالب الفلسطينية — حسبما قرأت في تصريح لأحد القيادات الفلسطينية الهامة — إلى حد الظفر بأي قطعة أرض فلسطينية يقيمون عليها كيانًا فلسطينيًّا مستقلًّا.

وحتى هذا رفضته إسرائيل بصلف وعنجهية وكبرياء وكأنهم هم أصحاب الأرض والقوة والنفوذ، والعرب جميعًا بما فيهم الفلسطينيون لا يساوون أمام قوتهم وقنابلهم قلامة ظُفر.

وأنا مع الأستاذ أحمد بهاء الدين في قوله إن مؤتمر القمة العربية الأخير الذي عُقد في عمان كان هو القشة التي قصمت ظهر البعير، البعير الذي يصل الفلسطينيين في الداخل، بالقوة العربية المزعومة في الخارج سواء أكانت فلسطينية أو عربية.

وهكذا حلَّ اليأس الكامل على الشعب الفلسطيني في الداخل، اليأس من أي تحرير يأتي من الخارج، ومن أية جيوش أو قمم عربية تنقذهم، بل أكاد أقول من أن تستطيع منظمة التحرير الفلسطينية نفسها أن تحل لهم القضية في مؤتمر دولي يحرم على الفلسطينيين فيه أن يمثِّلوا أنفسهم ولا بد من تمثيلهم من خلال وفد أردني فلسطيني مشترك.

وأحيانًا يصبح اليأس هو الطريق الوحيد للأمل في حل جديد.

وهكذا فجَّر اليأس هذه الانتفاضة التي أعتقد أنها هي، وهي وحدها، التي جعلت إسرائيل تفيق من أحلامها الوردية في ابتلاع فلسطين كلها وإقامة الإمبراطورية من النيل إلى الفرات، هي وللإنصاف أقول عمليات الطائرات الشراعية وبداية القتال الجدِّي والهجوم

على القوات الإسرائيلية المسلحة، وليس أبدًا مؤتمرات القمة أو خطف طائرات الركاب أو خطف الأطفال في لبنان.

وأقول إن إسرائيل تتصرف حيال هذه الهبَّة التي من المحتَّم أن تظل مشتعلة حتى تصبح ثورة، تتصرف بغباء لم يكن أحد يتصوره، ذلك أننا ننسى في أحيان كثيرة أن إسرائيل دولة عنصرية متعصبة، وما من متعصب إلا وهو يحفل بكم رهيب من الغباء وانعدام البصيرة، ولهذا يسمون التعصب بالتعصب الأعمى؛ لأن المتعصب لا يرى إلا أهدافه فقط والقوة وحدها هي التي يراها وسيلة لتحقيق أهدافه، إنه لا يرى الآخرين أبدًا ولا يرى لهم قضية أو منطقًا أو رأيًا أو حق وجود، هو وحده ورأيه ووجهة نظره المتعصبة المحدودة، وبعده الطوفان، وبعده كل الناس وكل الآراء أصفار على اليسار.

ولا أعتقد أن إسرائيل ستتحول من منطق القوة الغاشمة، ولهذا أتوقع أن تستمر ثورة الحجارة، ثورة الأطفال والشباب والذين علَّموهم ولقَّنوهم العبرية، وشرعية الدولة الإسرائيلية، ستستمر إلى أن يخبط الحائط البشري الصلد رأس إسرائيل، وحتى عند هذا لن تفيق؛ فالمتعصب لا عقل له ليغيب أو يفيق، المتعصب لا يرجع عن تعصبه إلا بالقوة الغاشمة المماثلة.

أقول هذا لعل بقية من عقل تكون لا تزال باقية في أدمغة الأمريكان والعقلاء اليهود فيرغموا هذا القاتل السفاح المتعصب شامير على قبول السلام؛ فهو آخر أمل لإنقاذ اليهود الإسرائيليين من مصير دموي محتوم.

فأخيرًا، وأخيرًا جدًّا، حمدًا لله، قد انعدلت القضية الفلسطينية، وانتهينا من هذا اللجاج الذي استمر طويلًا حول أنها حرب مصرية سورية إسرائيلية، أو حرب مصرية سورية أردنية عراقية إسرائيلية، أو أنها «مشكلة الشرق الأوسط» أو «السلام في الشرق الأوسط» ومن أن هذا الزعيم المصري أو ذاك هو المسئول عن النكسة أو الورطة أو كامب ديفيد، ومن خناقات بين العرب حول من الخائن ومن البطل، واتهامات وصراعات في سبيل «تحرير فلسطين»، أخيرًا انعدلت القضية وأصبحت قضية شعب فلسطيني محتل يقاوم غزاته ومحتليه الغاصبين المتعصبين الأغبياء، غباء المحتلين في كل مكان وزمان.

وحين تنعدل القضية، كما انعدلت، يأخذ الشعب المقهور حقه كاملًا، بيديه وبالقوة …

أما حين كانت مقلوبة ومميَّعة وضائعة بين الشركاء في الخارج فلم يكن هناك ثمة أمل في حلها …

اليوم فقط أحس، ومعي الدنيا كلها، بالأمل.

هذه المصر الأخرى

حين كنا ندرس التشريح الخلوي (من الخلية) على ميكروسكوبات، كان منتهى أحلامي أن أمتلك ميكروسكوبًا؛ إذ هو يُطلعني على عالم غريب، عالم الخلية ومكوناتها، والبكتريا والميكروبات، ويجعلني أراها رأي العين.

ولكن الميكروسكوب أيامها (عام ١٩٥٠م) كان ثمنه أكثر من ألف جنيه مصري، وكان لا بد من استيراده من إنجلترا؛ ذلك أن المهم في الميكروسكوب هو نوع العدسات المستعملة فيه. العدسة العينية، والأهم، العدسة الشيئية، تلك العدسة التي في حجم يزيد قليلًا على رأس الدبوس، ولكنها تستطيع تكبير الأشياء ثلاثمائة مرة.

لم أكن أتصور يومها، ولم أكن أبدًا أستطيع أن أتصور أن الميكروسكوب يمكن أن يُصنَّع من ألفه إلى يائه في مصر؛ ذلك أن تلك العدسة الشيئية صناعتها من أدق أنواع الصناعات، وتتطلب مهارة فائقة في قياس بعدها البؤري فضلًا عن نوع خاص من الزجاج تُصنع منه.

وحين دخلنا مجموعة من رؤساء التحرير والكُتاب لا يزيدون على الستة مصنع البصريات التابع للهيئة القومية للصناعات الحربية، وقابلنا مهندسًا عظيمًا يدير المصنع وجدت في المعروضات ميكروسكوبات، ونظَّارات معظمة ميدانية ونظارات ترى بالليل؛ إذ تستطيع تركيز ضوء النجوم ثلاثين ألف مرة؛ فترى الليل وكأنه نهار، ونظارات ليزر تستطيع أن تنشِّن على الهدف في الليل وتوجِّه الصواريخ لتركب أشعتها وتصيب الهدف في لمح البرق، تصورت أن هذا كله مجرد تجميع لقطع نستوردها من إنجلترا أو ألمانيا، سألت المدير وعلى فمي ابتسامة، نحن طبعًا نجمِّع الميكروسكوب هنا؟

فقال لي بوجه يحمل كل ملامح التأكيد، بل نحن نصنِّعه بكل أجزائه الحديدية والزجاجية.

واندهشت تمامًا وسألته: أتعني أننا نصنع العدسات الشيئية أيضًا هنا؟

فقال: بل نحن نصنع العدسة الزيتية أيضًا.

والعدسة الزيتية لمن لا يعلم هي عدسة ترى من خلال نقطة زيت توضع بين العدسة والنسيج المراد فحصه، وتستطيع التكبير ستمائة مرة أي ضعف العدسة الشيئية.

وحينما رأى علامات عدم التصديق على ملامحي قال: سترى بنفسك هذه العدسات وهي تُصنَّع أمامك بواسطة عمال مصريين.

والحقيقة وأنا أتجول داخل العنبر النظيف تمامًا، الأنظف من حجرة عمليات أي مستشفى استثماري، رحت أتتبَّع صُنع العدسات من كتلة زجاجية وزنها أكثر من ثلاثة كيلوجرامات تؤخذ منها القطع وتظل الآلات المبرمجة بالكمبيوتر التي يبرمجها عمال مصريون عاديون، تظل الآلات تنحت فيها وتنحت إلى أن تصبح عدسة بالكاد ممكن رؤيتها بالعين المجردة.

ووجدت أن الميكروسكوب هو «أهيف» ما يصنعه ذلك المصنع إذا قيس بمنظارات الليزر، ومناظير الأشعة تحت الحمراء التي تصوِّر وترى في الليل بحيث بهذه المناظير تستطيع القوات المسلحة المدرعة أو نصف المدرعة أن تقاتل في الليل البهيم، وتحدد أهدافها بدقة وكأنها تقاتل في النهار.

أما المصنع الثاني الذي زرناه فهو عكس هذا تمامًا، إنه يبدأ بقطعة أسطوانية من الصلب وزنها ثمانية أطنان ويظل بواسطة الكباسات والمطارق التي تبلغ قوتها ٢٦ طنًّا على ألسنة المربع يطرقها ويعالجها، وبالمخارط يخرطها ويثقبها، وبمئات القطع يزودها بها حتى تصبح في النهاية مدفعًا متقنًا للغاية عيار ١٠٥ أو ١٣٠ أو أكبر من هذا بكثير، مدفع ميدان ومدفع مضاد للطائرات ومدافع دبابات، ومدافع محمولة على عربات مجنزرة.

وكل هذا أيها المصريون يُصنع في مصر، بمهندسين مصريين، وعمال مصريين، وبابتكارات مصرية لتعديل مدافع الدبابات الروسية، والعنبر كبير كبير، لا يوجد به إلا ما يزيد قليلًا على الثلاثين عاملًا ومهندسًا، وكل خطوة لها مقاييس وضوابط واختبارات، تُرسل إلى مصانع فرنسا وإنجلترا أو ألمانيا وتعود معتمدة من هذه المصانع العريقة.

أما المصنع الأخير مصنع صقر، صانع صواريخ صقر، فهو مصنع أتمنى أن يستطيع زيارته كل مصري ليحس ببلاد أخرى غير بلاد المجاري الطافحة والضجيج الهائل في الشوارع والميكروفونات، وفوضى المرور، مصنع غريب، يقوم بصناعة ١٨ ألف هي مكونات الصاروخ، يصل حجم بعضها إلى ملِّيمترين، والآلات التي تنتجها آلات مغلقة، تقوم بكل

العمل، وليس على العامل إلا أن يبرمج الآلة ويراقب أداءها، وفي النهاية رأينا الصاروخ ينطلق ليصيب أهدافًا على بعد ٨٠ كيلومترًا.

الحقيقة لم أكن في حالة جسدية طيبة ومع هذا مشينا كثيرًا، وقضينا أكثر من سبع ساعات على أرجلنا نتفرج ونتبهر، ونحس بالفخر وبالثقة بالنفس، وأروع ما شد انتباهي هو العامل والعاملة في ذات المصنع، ناهيك عن الدكتور أحمد مدير المصنع مَثل للعالم الصانع العارف المتمكن، والعامل المصري يعمل بمهارة عتاة العمال الألمان في دقتهم وانضباطهم التام المهيب، والانكباب الكامل على ما في أيديهم، لدرجة أنهم لم يكونوا يشعرون بنا، ونحن نمر أمامهم ونتحدث، لو عشنا كمصريين بهذه الجدية والخطورة لحللنا مشاكل مصر كلها في أقل من ثلاثة أعوام، هكذا قلت للفريق أبو شناف رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة الذي صاحبنا في الزيارة.

وكان يمضي كثيرًا ويؤلمني ذلك السؤال الذي طالما سألته لنفسي وللآخرين: إذا كنا قادرين على العظمة، فلماذا التفاهة؟

أجل؛ إذ بعد مغادرتنا المصانع بربع ساعة كنا في قلب القاهرة، قلب الفوضى والكلاكسات، والرشاوى والتهرب والتهريب، والاختلاسات والسرقات، والميكروفونات والضجة الشديدة التي لا ترى لها طحنًا وإنما هو طحن للأعصاب، وللآدمية وللإنسان.

إنني أرجو من المصانع الحربية أن تنظِّم رحلات لشباب الجامعات وحتى لموظفي الدواوين الذين يقولون: تعالى بكره. ليروا هذه المصر الأخرى، ليروا هذا المصري الآخر، فلعل شيئًا فينا وفيهم يتغير.

عيوني تترقرق فيها الدموع

أعتبر حي «ناتنج هيل جيت» في لندن قريتي اللندنية التي أعرف محلاتها وأناسها وعلى كل ما يلزمني للإقامة فيها، ربما لأنه أول حي نزلت فيه في الستينيات حين أقمت في لندن للعلاج مدة تقترب من العام، ودائمًا ما أختار فندق «إمباسي» المطل على هايد بارك مكانًا مختارًا لإقامتي كلما زرت لندن؛ فهو في قلب نانتج هيل جيت من ناحية، ومن ناحية أخرى قريب من الشارع العربي المشهور كونتراواي التي لا تُغلق المحلات فيه أبدًا، ويا لذكاء البريطانيين السياحي؛ فحين كنت آتي في أوائل الستينيات كان قانون إغلاق المحلات العامة والخاصة قانونًا صلبًا باترًا يُطبَّق على الجميع بلا استثناء، ولكن مع توافد العرب إلى لندن، واكتشاف الإنجليز للطبيعة العربية التي لا تعرف التخطيط مسبقًا أبدًا، ولا تبني حياتها اليومية على أساس الحسابات المسبقة، بدأ الإنجليز يسمحون لبعض المحلات في «إدجوار رود» و«كوبنزوي» و«إيرلز كورت» سواء كان أصحابها من الهنود أم الباكستانيين أم العرب بفتح المحلات إلى منتصف الليل، وربما طول الليل، لا أعرف، وليس لهذا أكتب ما أكتب، فمنذ أيام وأنا في لندن احتجت أن أصوِّر بعض مسرحياتي وقصصي بالفوتو كوبي لإرسال نسخ منها للناشرين والـ Agent الأدبي الذي أتعامل معه تمهيدًا لطبع ونشر «نيويورك ٨٠» رواية و«بيت من لحم» مجموعة قصص قصيرة و«الفرافير» المسرحية، وكلها مترجمة إلى الإنجليزية في طبعات محدودة قامت بها جامعات شيكاجو والجامعة الأمريكية في القاهرة، والدكتور فاروق عبد الوهاب أستاذ الأدب العربي في أمريكا، وتصورت الموضوع مشكلة من أعقد المشاكل اعتمدت له كل صباح وظُهر ذلك اليوم، ولكن الغريب أنها تمت في سرعة لم أتصورها؛ فقد وجدت مكتب طبع قد افتُتح جديدًا قريبًا من محطة الأندر جروند طبع لي ست نسخ من الأعمال الثلاثة، وجلَّدها بغلاف جميل، وكل هذا لم يأخذ نصف ساعة، واحتجت إلى ظروف كبيرة تسع النسخة فوجدتها بجوار المكتب تمامًا، والبوسطة كانت

قريبة فاشتريت قلم ماستر لأكتب العناوين وذهبت إلى البوسطة وأنا عقلي مشتت حتى لا أنسى شيئًا (وتكون النتيجة بطبيعة الحال أن أنسى أهم الأشياء نتيجة لهذا التشتت)، ودخلت البوسطة وأخذت رفًّا من رفوف الحائط وارتكنت عليه وكتبت العناوين، وأنا بين الحين والحين أنظر إلى طابور المنتظرين لدورهم فأجده يتلوى ويزداد طولًا حتى ليبلغ الباب الخارجي لمكتب البريد، بمعنى أن انتظاري لدوري بعد أن أكتب العناوين لن يقل عن نصف ساعة بأي حال، وأكره ما عليَّ في الدنيا أن أنتظر شيئًا خاصة إذا كنت أنتظره واقفًا، وممنوعًا من التدخين.

وانتهيت من العناوين وحملت المظاريف واتجهت إلى حيث آخر الطابور لآخذ دوري، وإذا بصوت عربي يقول لي: اتفضل يا دكتور. أنا حاجز لك دورك هنا.

وفتحت فمي في ذهول، وذهبت إلى حيث هو واقف فقال لي: أنا رأيتك داخلًا متجهًا إلى كتابة العناوين فقلت أقف في الطابور أحجز لك الدور إلى أن تنتهي والحمد لله أصبح الدور عليك الآن، تفضل.

وأنا لا أكاد أصدق نفسي، تفضلت، آخذ مكانه، وغمغمت سيدة إنجليزية عجوز تحتج على هذا الانتهاك (في نظرها) للأسبقية فقلت لها: لا تنزعجي يا سيدتي سيظل هو واقفًا في دوره ويتولى هو إرسال المظاريف.

ولكن الرجل المهيب الواقف بعدي استنكر هذا الاستنكار منها، وقال: لا شيء هناك يوجب هذا الاحتجاج؛ فدور أيٍّ منا لن يتأخر بخروج شخص وحلول آخر مكانه.

وهكذا بعد دقيقة كنت أمام موظفة الشباك آخذ الطوابع وألصقها وأناولها لآخر شباك.

ولم تستغرق عملية البريد التي كنت قدَّرت لها ساعة، سوى بضع دقائق ولكن وترًا عميقًا في نفسي كان قد ارتعش لما حدث، مسألة أن يقابل الإنسان معجبًا أو معجبة أو قارئًا فيقبل عليه لتحيته، مسألة كثيرًا ما تحدث لأي كاتب أو إنسان يعمل في مجال الفن أو الأدب أو حتى السياسة، ولكن ما أثَّر في نفسي تمامًا وعور فيها، هو أن هذا المعجب لم يَرَ سوى إعجابه بي، فاندفع يسلم عليَّ بحرارة ويعطلني عما كنت أقوم به، وإنما بإعجاب فوق العادة وبذكاء شديد قد أدرك مدى «اللخبطة» التي كنت فيها، وفعلًا كانت لخبطة؛ إذ كانت المرة الأولى في حياتي التي أتولى فيها إرسال طرد صغير أو كبير بنفسي ومن أي مكاتب بريد سواء في القاهرة أو في غيرها، إنما تصرف بهذا الذكاء المصري الجميل، الذي لا مثيل له بين أنواع الذكاء، ذكاء الشهامة والإعجاب وبدلًا من مصافحتي وتعطيلي ساعدني

في أداء مهمتي الثقيلة أولًا، ثم قدَّم لي نفسه بعد هذا. كان شابًّا مصريًّا له عشر سنوات يعمل في المجال الصحفي في لندن، وحين رحت أشكره من صميم قلبي فعلًا، قال: إن هذا أقل واجب، لقد قرأت لك كتابًا غيَّر مجرى حياتي اسمه «الإرادة» ولولا هذا الكتاب لكنت ما زلت أعمل في مراقبة تموين الوايلي، بينما أنا الآن صحفي وكاتب وتعلمت الإشراف على «المطبخ الصحفي» في الجرائد والمجلات، وعرفت أسرار الإخراج وأنا الآن بجانب الكتابة سكرتير تحرير مجلة «…» التي تصدر في لندن، وحين قلت له إني سأروي هذه القصة الفريدة استحلفني بحق قصتي «اليد الكبيرة» وهي يد أبي التي ظهرت من كفنه لحظة دفنه، ولها في نفسي مكان مقدس فريد، استحلفني ألا أذكر اسمه أو اسم المجلة.

كثيرة هي الأهوال التي يلاقيها الإنسان وهو يكتب وهو ينشر وهو يُفصل أو يُسجن لأنه كتب أو نشر، كثيرة هي المرارات، ولكن حلاوة ما حدث، والتي تضاف إلى عدد آخر من حلاوات مماثلة كفيلة بأن تزيل مرارة وملوحة كل محيطات الدنيا التي عانيناها من السلطة ومن غير السلطة في بلادنا، إني متأكد أن مال الدنيا كلها ونفوذ كل رؤساء الجمهوريات والملوك والحكام لا تستطيع أن تمنحهم سعادة لحظة كالذي منحها إليَّ ذلك القارئ المعجب الكاتب.

شيء آخر لاحظته، كلما نظرت إلى عيون أي مصري الآن في أي مكان من العالم، أجد في أعمق أعماق العيون، مصر (مصرنا نحن، وليست مصر التي يغنون لها) أجدها سليمة متميزة كالجوهر العظيم الرابض يغذي الروح ولا ينهيه البعاد، لقد جاء علينا وقت كنا فيه نعتقد أن كل مصري مهاجر، هو فار من المعركة، وما أبشع ما يحسه الإنسان من خجل الآن لهذا التفكير المراهق، فلم يفر أحد من المعركة سواء من خاضها على أرض مصر، أو خارج مصر؛ فمصر هي كل لحظة أنا حي فيها.

إن عيوني تترقرق فيها الدموع.

«الإيدز» المصري

التقيت بجارتنا الطيبة الشابة في المصعد، وكانت مشغولة بإدخال عربة طفل حديث الولادة، ثم حمل الطفل نفسه، ثم أدوات الطفل الكثيرة، وقد حاولت المساعدة ما أمكنني، ولكنني فوجئت بها وقد أخذ المصعد طريقه إلى أعلى: ماذا تم في حكاية ألبان الأطفال المسمومة بالإشعاع؟

وهنا تنبهت إلى طفلها الرضيع وقالت: إن عمره أكثر من شهر، وأنا مضطرة لاستعمال الألبان الصناعية لإرضاعه، وما نُشر وقيل عن صفقة الألبان التي جاءت إلى مصر من قبل ووُزِّعت دون أن ينتبه لها أحد، والصفقة التي لولا أن أعلنت وزارة الصحة الألمانية عن خطورتها، ونبَّهت إلى أنها قادمة لمصر، لتسربت هي الأخرى إلى الأسواق دون أن يشعر أحد، كل هذا يجعلني لا أكاد أنام الليل خوفًا من أن يكون في اللبن الذي أُرضعه لابني لبنًا ملوثًا، وأنت تعرف أن الأعراض لا تظهر إلا بعد مدة، ماذا أفعل يا دكتور؟

أجل، ماذا تفعل تلك الأم المصرية الشابة وعشرات الآلاف من مثيلاتها والحكومة تعلن صباح مساء أنه ليس في مصر لبن مشع، ووكالات الأنباء والمصادر الرسمية الألمانية والهولندية تعلن أن لبنًا مشعًّا قد صُدِّر إلى مصر؟!

هل معقول أن تكذب حكومة ألمانيا ونعتبر أنها هي التي «تشنِّع» على شركاتها، وعلى نفسها وأن حكومتنا هي الحريصة على تكذيب هذه السلطات، وتكذيب الحقيقة وتكذيب الواقع وادِّعاء أن مصر خالية تمامًا من أية ألبان مشعَّة، أما الصفقة الجديدة التي قيل إنه أُنزل منها ستة وعشرون ألف «جوال» لبن مجفف، كل جوال يحتوي على خمسين كيلوجرامًا، وكل جرام من هذا اللبن يحتوي على نسبة مدمرة من الإشعاع، هذه الصفقة يعلن مجلس الوزراء، ولا أعرف علاقة الدكتور عاطف صدقي بهذا، ولا حماسه لإصدار بيان عن مجلس الوزراء يدحض فيه تمامًا أقوال وزارة الصحة الألمانية، ومرة تُصدِر وزارة

صحتنا بيانًا تؤكد فيه أن اللبن لم ينزل من المركب الرابضة ولا تزال خارج الميناء، وأن ميناء الإسكندرية به من الأجهزة ما هو كفيل بفحص أية عينات لبن واردة وإثبات خلوها من الإشعاع المدمر، مع أني متأكد تمامًا، وأتحدى أي جهة حكومية أن تثبت لي أن في ميناء الإسكندرية جهازًا واحدًا لفحص الألبان بالذات لإثبات خلوها من الإشعاع.

مرة يقولون إن اللبن لم يأتِ إلى مصر مطلقًا.

ومرة يقولون إنه جاء وأُنزل إلى الميناء ولكن مُنع تداوله.

ومرة يقولون إن السفينة محجوزة خارج الميناء، ولم يؤخذ منها سوى عينات للفحص في معامل «أنشاص».

ومرة يكذِّبون المسألة تمامًا ويقولون: لا لبن مجفف جاء، ولا إشعاع هناك، ولا سفينة ولا صفقة ولا أحد استورد لبنًا مشعًّا، وكل ما تقولونه أضغاث أحلام وتخاريف كُتاب.

لقد فوجئت يوم الإثنين الماضي أنني لست وحدي الذي كتب عن هذا الموضوع وإنما كان في نفس العدد يوميات الأستاذ أحمد بهاء الدين عن نفس الموضوع، تلك اليوميات التي أعاد نشرها يوم السبت الماضي، وفي عدد الإثنين الذي كتبت فيه كان هناك برواز بارز كتبه الزميل محمود كامل، وعن نفس الموضوع أيضًا.

وكلنا طالبنا السلطات بالكشف عن اسم ذلك المستورد وتقديمه للمحاكمة بتهمة محاولة إبادة الأطفال والكبار المصريين.

وتوقعت أنا، كما توقع غيري، بعدما نكتب ثلاث مقالات عن موضوع واحد في جريدة واحدة «الأهرام» غير الكلمات التي كُتبت في الجرائد والمجلات الأخرى، أن تقوم الدنيا ولا تقعد لهذا الحدث، وأن يسارع مجلس الوزراء الذي تصدى للمشكلة بإصدار بيان يحوي الوقائع الحقيقية بعدما اتضح كل شيء وانكشفت الحقيقة على مستوى العالم كله من ألمانيا إلى إنجلترا إلى فرنسا إلى أمريكا.

ولكن مجلس الوزراء لم يحرك ساكنًا. ولا جهة حكومية أو غير حكومية أخرى تصدت للموضوع، وكأن من كتبوا مجرد أطفال أطلقوا بضع صرخات سرعان ما يسكتون و«يمر» الموضوع، وكأن شيئًا لم يكن!

كل ما في الأمر أني قرأت في أهرام الثلاثاء؛ أي اليوم التالي ليوم الإثنين، خبرًا «من ألمانيا أيضًا» ينفي ورود أية ألبان مشعة إلى الإسكندرية، وهنا أحسست كما أحس غيري أن المسألة ليست مسألة ألبان مشعة أو خطأ جهاز ولكنها مؤامرة على صحة الشعب المصري، مؤامرة لا يمكن أن نسكت عنها حتى نعرف المتآمرين وحتي ينالوا جزاءهم. إني أرجو

من الكُتاب الذين كتبوا في هذا الموضوع ومن الصحفيين الذين تعرضوا له أن يستمروا في الكتابة حتى تظهر الحقيقة. أنا شخصيًّا سأفعل هذا، وإذا كان نصف مليون طفل مصري مهددين بالتشويه وبالموت على يد مسئولين لا يهمهم من الموضوع كله إلا إكفاء الماجور على الخبر والتكتم عليه، فإن هؤلاء المسئولين أنفسهم ممكن أن يبيعوا البلاد أو يخونوها ما دام باستطاعتهم هذا نهارًا جهارًا أن يبيعوا أرواح أطفال مصر وكبارها؛ فقد ثبت أن هذا اللبن المجفف يدخل في تركيب الجبنة والحلويات والزبادي والفطائر وأشياء أخرى كثيرة من أصناف الطعام، ثم إن أعراضه لا تظهر فورًا، إنما تأخذ وقتًا طويلًا لتظهر مثلها مثل أعراض مرض الإيدز، ولكنها إذا ظهرت يكون الزمام قد أفلت ويكون الطفل أو الإنسان غير قابل للعلاج، وليس أمامه إلا الموت المؤكد مصيرًا.

لن نسكت حتى نعرف بالضبط ماذا حدث؟ وكيف حدث ما حدث؟ ومن هم المذنبون الحقيقيون ومن هم المتسترون، ولمصلحة من يحدث هذا كله، ولمصلحة من يتم هذا التستر، ولمصلحة من تعمى أعيننا عن أن نرى حقيقة ما نأكل وما يتهددنا من خطر، لمصلحة من يتم هذا، وفي دولة متحضرة، وفي القرن العشرين؟!

إن بوكاسا قد أُزيح من منصبه كرئيس لجمهورية أفريقيا الوسطى نتيجة لقتله ثلاثين طفلًا اكتُشِفت جثثهم بالصدفة، ونحن عندنا في بلادنا نعرِّض حياة الملايين من البشر للإبادة ولا يُجازى مسئول واحد، أو حتى يُعرف أو يُعلن اسمه.

وليست هذه هي كل المشكلة.

لقد نشرت مجلة آخر ساعة المصرية تحقيقًا عن مراسلها (أظنه الزميل محمد فهمي) في بون، وكانت الدماء تغلي في رأسي وأنا أقرأ هذا التقرير الذي حدث أن شركة من الشركات الألمانية المنتجة للألبان الجافة قد أنتجت عدة مئات الآلاف من الأطنان ثبت بعد فحصها أنها تحوي كمًّا من الإشعاع يعادل ثلاثة أضعاف الإشعاع القاتل للإنسان، وهنا قررت وزارة الصحة الألمانية في تلك المقاطعة منع تلك الألبان من التداول وإنذار الشركة المنتجة بالتخلص منها.

وفعلًا وعن طريق الغش (الألماني في هذه المرة) والإجرام استطاعت تلك الشركة أن تبيع هذه الكمية إلى شركة في مقاطعة أخرى وأن تشحن إليها ثلاثمائة عربة من عربات السكة الحديدة مليئة بهذا اللبن المجفف.

ولكن الخبر تسرَّب وهاج الرأي العام في المقاطعة الجديدة وماج وكانت النتيجة أن بدأت تلك الشركة المشترية في محاولة إعدام كمية الألبان تلك ولكن لأن إعدام هذه الكمية

يتكلف مبالغ طائلة مثله بالضبط مثل دفن النفايات الذرية؛ إذ لا يمكن التخلص منها بالحرق مثلًا، فالحرق يزيد من تكثيف الإشعاع القاتل في الرماد المتخلف عن الحريق ويصبح أشد خطرًا.

لأن العملية مكلفة جدًّا؛ فقد كان الأسهل على الشركة أن «تسرح» على بلاد العالم الثالث لتقبل أن تأخذ الصفقة فقط أي تنقلها من المقاطعة الألمانية ويهجع سكانها ويسكتون، وقد وجدت الشركة من يقبل على نفسه في مصر وفي أنجولا أن يشتري هذه الكمية بثمن بخس، مع أنها كانت مستعدة أن تعطيها لأي شركة أو شخص في العالم الثالث حتى دون مقابل، فقط يخلصها من هذه المصيبة الإشعاعية.

بل والمذهل الغريب أن صاحب هذه الشركة الألمانية جاء بنفسه إلى القاهرة «للاتصال» بالمسئولين ومحاولة تمرير الصفقة، وقد نجح في هذا، وقبلت جهة ما في مصر، شركة أو قطاع عام أو وزارة تموين أو مستورد مغامر، قبل أن يأخذ الشحنة، والمضحك المذهل أن صاحب هذه الشركة كان موجودًا في القاهرة إلى حين أُعلِنت الفضيحة من ألمانيا، وسافر بعد إعلانها بيومين وقرأت خبر سفره في إحدى جرائدنا اليومية.

بدلًا من القبض عليه، ومطالبته ومطالبة شركته ومطالبة الحكومة الألمانية بتعويضات لا تقل عن المليارات من الماركات، تركنا الرجل يسافر هو وزوجته، وأخفينا اسم الشريك المصري، وقبلنا أن تهرَّب الألبان إلى ميناء أنتويرب في هولندا، لتُشحن من هناك إلى الإسكندرية.

وجاءت الشحنة غير المباركة إلى الإسكندرية.

وأعلنت وزارة الصحة الألمانية عن الفضيحة.

وأعلن المسئولون المصريون أن وزارة الصحة الألمانية كاذبة دجالة تدعي كذبًا على شركاتها الغش وبيع السموم الإشعاعية.

وظلت السفينة واقفة في ميناء الإسكندرية.

الكارثة الكبرى أنه سيقع على عاتق مصر التخلص من السفينة وشحنتها. وإذا كانت دولة غنية قوية كألمانيا قد عجزت ميزانيتها عن أن تعدم الشحنة أو تتخلص منها، فكيف باستطاعة مصر، وهي الفقيرة التي تحيا بالكفاف وبالديون أن تقوم بإعدام الشحنة. إن إعدام الشحنات المشعة (واسألوا الصديق الخاص جدًّا أمريكا) لا يمكن أن يقوم به إلا دولة تنتمي إلى النادي الذري، أي دولة غنية؛ إذ هي تحتاج إلى أن تُشحن في صناديق من الرصاص تلقى إلى أعمق أعماق المحيط، وإلى إجراءات أخرى كثيرة تتكلف ملايين الملايين أو بالأصح مليارات الجنيهات والدولارات. وهذا ما لن نستطيعه أبدًا، لا كشعب ولا كحكومة.

إنها مشكلة أخرى كبرى، لا أعرف يا إلهي كيف سنحلها.

أو كيف ستبقى الباخرة الملعونة واقفة في ميناء الإسكندرية تهدد بتلويث جوها وقتل أهلها؟!

كل هذا ومسئولونا لا يقيمون للموضوع وزنًا، وكأنه مجرد حالة «إيدز» واحدة تسربت إلى مصر، في حين أن الإيدز المصري الحقيقي هو الخوف من مجابهة المسئولية إلى درجة الخيانة أحيانًا، والخيانة ليست فقط أن تنضم إلى صفوف الأعداء، الخيانة أساسًا أن تعرف الحقيقة المهلكة لشعبك وتخفيها عن شعبك، لتحمي نفسك أو تحمي أناسًا أخطئوا بل وأجرموا ولا يستحقون الحماية.

إن نصف مليون أم، وشعب مصر بأكمله يقف حائرًا مشلولًا أمام عدو لا يراه ولا يعرفه وأمام سلطات تتكاتف مع العدو لتخفيه، وكل هذا ولا أحد يتحرك، وأنا متأكد أنني وغيري كتبنا وسنكتب ولا حياة لمن تنادي.

ولهذا فالجريمة الأكبر من الاستيراد ومن عدم القدرة على التخلص من الشحنة هي جريمة السكوت على هذا كله.

جريمة متعمدة عن سبق إصرار وترصد لإخفاء الحقيقة.

ويتوقف القلم هنا عاجزًا عن أن يستمر وقد بلغ به الغضب حد الخرس!

رجاؤنا أن تأخذ الأمر بيديك

لا يقدر على القدرة إلا الله سبحانه وتعالى، والأسابيع الماضية قضيناها معًا باحثين منقِّبين عن الحقيقة أو الزيف في قصة الألبان والأطعمة المشعَّة التي قيل إنها هُرِّبت إلى مصر، والتي بدأ الأمر فيها بإعلان من وزارة البيئة الألمانية يحذر السلطات المصرية من شحنة ألبان ملوثة في طريقها إلى الإسكندرية، أو بالضبط قد قالت وزيرة البيئة إنها وصلت إلى ميناء الإسكندرية.

والحقيقة أنني فوجئت بسلسلة ردود الأفعال التي تلت هذا، فأنا إذا حذرني شخص ألماني مسئول من بضاعة ألمانية لا بد أن آخذ هذا التحذير موضع الجد، ولا بد أن أسارع باتخاذ كافة الإجراءات التي تحول بين تلك الشحنات وبين دخول الأراضي المصرية وتقديمها للاستهلاك البشري أو الحيواني. إننا كل يوم نقرأ عن طائرة عادت إلى المطار الذي غادرته لمجرد أن المضيفة وجدت في دورة مياه الطائرة ورقة مكتوبًا عليها جملة تحذير أو تعبير أخرق مجنون، في كل تلك الأحوال لا يتوقف قائد الطائرة ليبحث الأمر ويمحِّصه ويحقق مع ركاب الطائرة حتى يعثر على من قام بالعمل التهديدي. إنه يأخذ المسألة أخذًا جادًّا جدًّا، حتى لو كان متأكدًا أو شبه متأكد أنه ليس كذلك، ويطلب الإذن من الميناء الجوي بالعودة فورًا وتقوم السلطات بتفتيش الطائرة مكانًا مكانًا وقطعة قطعة، وكذلك تفتيش الركاب وإعادة تفتيش الحقائب والاطمئنان مائة في المائة إلى أن لا شيء هناك، وأن كل شيء على ما يرام، وحينذاك فقط تُقلع الطائرة.

هذا يحدث لمجرد ورقة تُلصق على مرآة دورة مياه في طائرة، فما بالك والتحذير ليس قادمًا هذه المرة من مجهول، ولكنه تحذير قادم من وزيرة ألمانية مسئولة ووزير ألماني آخر؟

ولهذا كان مفروضًا أن نأخذ هذا التحذير على محمل الجد الخطير؛ فهذه المرة لا يتعلق الأمر بحياة مائة راكب أو مائتين إنه يتعلق بحياة أو موت ملايين الأطفال والرجال والنساء وإلى أجيال أخرى قادمة.

ولأن الخطر النووي شيء جديد علينا تمامًا، مثلما هو جديد على معظم بلدان العالم وبالذات العالم الثالث؛ فحقيقة خطره لا يعرفها إلا القليلون جدًّا من خلاصة المتعلمين والمثقفين، وبالذات المثقفون ثقافة علمية؛ فالإشعاع النووي هو عبارة عن إشعاعات تخرج من نواة الذرة عقب تحطيمها، سواء في المفاعل النووي أو في القنبلة الذرية؛ فالقنبلة الذرية ما هي إلا كم من ذرات معدن ثقيل جدًّا؛ أي إن ذراته تحتوي على أكبر عدد ممكن من النوايات وهي مزدحمة؛ ولهذا فهي هشة الالتصاق بحيث إذا سُلِّط عليها تيار من البروتونات الأخرى أي نوايات الذرات، تتفجر تلك النوايات من البلوتونيوم أو اليورانيوم وتخرج منها عشرات من مكوِّنات النواة وقد انفرط عقدها على هيئة إشعاعات. أخطر هذه الإشعاعات جميعها هي إشعاعات «بيتا» المكوَّنة من جسيمات «بيتا»، وإشعاعات «جاما» وهي أشعة إكس العادية التي تُستخدم بحرص شديد في التصوير الإشعاعي في الطب وغيره.

أما جسيمات بيتا فخطرها أنها حين تصطدم ببعض الذرات المكونة للجسم البشري مثل ذرات الكالسيوم أو غيرها تحيل تلك الذرات إلى ذرات مشعَّة تُخرج هي الأخرى أشعة بيتا، وعلى أساس هذا المبدأ قام علم بأكمله هو علم التشخيص بواسطة المواد المشعة؛ إذ يُحقن المريض بواسطة جزء بسيط جدًّا من مواد مشعة تسري في الدم وأعضاء الجسم ويمكن تتبعها بواسطة صور الأشعة الكمبيوترية وتُشخيص كثير من الأمراض بواسطتها.

ويتقدم استخدام الذرات المشعة في الأغراض الطبية، وبنشوء وإقامة المفاعلات النووية ابتكر العلماء جهازًا لقياس كم الإشعاعات الصغيرة في أي جسم أو الموجودة في أي جو، وهذه الأجهزة أخذت تتطور من جهاز «جيجر» البدائي الذي ينبئ عن وجود أجسام مشعة قريبة، تتطور إلى أجهزة بالغة الدقة قادرة على رصد أي كمية مهما صغرت من الإشعاعات التي سموا الواحدة منها، مثلما يسمَّى الفولت في الكهرباء والأمبير في قياس التيار، سموا وحدة جرعة الأشعة البكاريل، وبالتجارب المختلفة أمكن الوصول إلى النسبة من الإشعاعات التي تعتبر طبيعية وعادية؛ إذ الإشعاعات موجودة في كل مكان من الكرة الأرضية وجوِّها ووصلوا أيضًا إلى تحديد الكمية التي لا يُسمَح بتجاوزها في أي مكان يوجد به إنسان أو حياة.

هذه النسبة وبعد انتشار المفاعلات النووية استسهالًا سنعرِّفها باسم البكاريل مع أن التسمية الحقيقية أكثر تعقيدًا؛ إذ يرمزون لها الحروف P.Q.R. وهي قيمة نسبية، وحددت

أوروبا ٣٥٠ بكاريل كحد أقصى لما يُسمَح للإنسان أن يقترب منه أو يستعمله، ٣٥٠ للإنسان و٦٥٠ للحيوان في اللبن فقط؛ إذ إن لكل مادة غذائية نسبة إشعاع مختلفة، ولكن ألمانيا زيادة في الحيطة جعلت هذه النسبة ٢٢٠ للإنسان، وقللت بنفس النسبة المسموح به للحيوان.

واختلاف هذه النِّسب أدى إلى مشاكل كبيرة بين ألمانيا الغربية وبين دول السوق الأوروبية المشتركة باعتبار أن ألمانيا لا تستورد أطعمة تحتوي على أكثر من ٢٢٠ بكاريل بينما أوروبا تسمح باستيراد الأطعمة التي تحتوي على٣٥٠، معنى هذا قلة واردات ألمانيا من أطعمة السوق الأوروبية المشتركة، مما يؤثر على التوازن التجاري بين دول السوق وألمانيا.

هذه كلها أشياء كانت جديدة علينا هنا نحن في مصر، وفي العالم الثالث بشكل عام، وبعد انفجار مفاعل تشيرنوبيل وتكوُّن سُحُب ذرية سقطت على معظم دول أوروبا ولوَّثت أرضها وماءها وبالتالي نباتها وحيواناتها وحاصلاتها وحتى أخشابها، صحيح قمنا بإصدار بعض اللوائح والقوانين مثل غيرنا من الدول، ولكن تطبيق تلك القوانين في حاجة إلى أجهزة خاصة وأناس مدربين خصوصًا على هذه العملية، ودقة بالغة في الإشراف على فحص العينات المستوردة من كل الدول تقريبًا، فبعد اكتشاف التلوث الألماني لجأ المهربون إلى تصدير بضائعهم إلى مواني أوروبية أخرى لإعادة تصديرها إلى هذا البلد أو ذاك بحيث تكون شهادة المنبع صادرة عن دولة تعتبر «نظيفة» مثل هولندا أو بلجيكا.

وفي فترة ما بين انفجار المفاعل وتلوث المحصولات مضت شهور استطاع المصدِّرون الألمان بالاتفاق مع المستوردين معدومي الضمير من بعض بلاد العالم الثالث أن يصدِّروا إلى تلك البلاد كميات كبيرة من المحظور تداولها في دولها الأصلية؛ فقد قامت الحكومة الألمانية بدفع تعويضات إلى مربي الماشية حتى لا يعرضوها للتداول ويتم التخلص منها بعد ذلك، ولكن بعض هؤلاء كانوا من الجشع بحيث أخذوا التعويضات وباعوا ماشيتهم ومحصولاتهم إلى شركات مغامرة وهمية قامت خصوصًا من أجل أداء هذا الدور القذر. أخذوا المحصولات الملوثة بدعوى تعهدهم بإعدامها مقابل مبالغ كبيرة وتم تصديرها إلى بلاد العالم الثالث على النحو الذي ذكرناه. مثل تلك المحصولات كانت نسبة الإشعاع فيها تصل أحيانًا إلى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ بيكاريل وهي جرعات قاتلة للإنسان وللحيوان معًا، صحيح أنها تأخذ وقتًا طويلًا نسبيًّا لظهور أعراض الإصابة بها، سواء أكانت سرطانًا أم ضمورًا في المخ والأعصاب أو غيرهما من الأمراض الكثيرة الجديدة التي ظهرت فقط

في العصر النووي وبسبب الإشعاعات، ولكن الشيء المروع أنه ما إن تظهر الأعراض حتى يكون الحكم بالإعدام قد صدر على المريض؛ إذ لا توجد وسيلة لإنقاذه من موت محقق طال الوقت أو قصر، وفي هذا تشبه الأمراض الناتجة من تناول مواد إشعاعية أو التعرض لها مرض الإيدز الخطير الذي يوقف جهاز المناعة في جسم الإنسان بحيث إن أي ميكروب أو فيروس تافه يتسلل إلى جسده يسبب وفاته.

الشيء الخطير الآخر الذي تسببه الإشعاعات النووية وبالذات جسيمات بيتا أنها تتدخل في التركيب الذري والجزيئي للصبغيات أو الكروموسومات الحاملة للصفات الوراثية داخل الخلايا الحية للإنسان أو الحيوان، ومنها بالطبع البويضة في الإناث والحيوانات المنوية في الرجل بحيث تؤدي هذه التغيرات إلى تغيرات في شكل الجنين والطفل؛ كأن يولد ناقصًا ساقًا أو يولد بعين واحدة في منتصف رأسه أو بثلاث أذرع أو بقائمة طويلة من أمراض وراثية بعضها قديم عرفته البشرية، وبعضها جديد على العالم والطب تمامًا. حتى إنه من المحظور التخلص من النفايات الذرية بإلقائها في المحيطات خوفًا من أن تؤثر على الأسماك وتؤدي إلى خلق أنواع غريبة ومخيفة منها، بعضها متوحش وبعضها في حجم الديناصور ولا أحد يستطيع على وجه التحديد أن يتصور ما يمكن أن يحدث من جرَّاء هذا التغيير في التركيب الكروموسومي للأسماك، أو لغيرها من الحيوانات البحرية.

في الفترة ما بين بداية ظهور محاصيل ومواشٍ ومنتجات ملوثة بإشعاعات تشيرنوبيل وكشف الفضيحة على أيدي حزب الخُضر في ألمانيا؛ ذلك الذي أرغم السلطات الألمانية على الاعتراف بتسرب المحاصيل والمنتجات الألبانية والحيوانية؛ كان قد تسرب بالفعل إلى بعض بلاد العالم الثالث كثير من المحاصيل والمنتجات التي تحوي ضعف أو ثلاثة أضعاف الجرعات الخطرة من الإشعاع، وقد انكشف الأمر في البرازيل فعلًا وتبيَّن أن لهم شهورًا يستهلكون منتجات أوروبية ملوثة وكانت أزمة كبرى.

هنا نحن في مصر أخذناها ليس فقط ببساطة ولكن بكبرياء قومي لا معنى له، فقبل الفحص الدقيق والتأكد التام بواسطة أجهزة دقيقة وحديثة وبواسطة علماء مدربين، أعلنَّا هكذا في اليوم التالي من تصريح الوزيرة الألمانية أن مصر خالية من أي منتجات ألبانية أو حيوانية أو أي محصولات مشعة.

ولأن الكذب لا سيقان له فلقد تضاربت الأقوال والتصريحات مرة يقولون إن المركب جاءت ولم تفرغ حمولتها، ومرة إنها جاءت وراسية عند المخطاف، ومرة لم يدخل مصر

أي محصول ملوث، ومرة الاعتراف بأن شحنة بندق ملوثة قد اكتُشفت وأُعدمت (البندق ممنوع استيراده حسب القوانين الجديدة) ثم كيف وأين وبأية طريقة أُعدمت تلك الشحنة؟ فهي لا يمكن دفنها في الصحراء، كما صرح أحدهم قياسًا على المشروع الذي كان قد بحث إمكان تنفيذه الرئيس السابق المرحوم أنور السادات بناء على اقتراح من النمسا أن يدفن نفاياتها الذرية في الصحراء الغربية أو الشرقية. لا أعرف كيف أُعدمت تلك الشحنة؟ ومن المعروف أن إعدام هذه الشحنات مسألة ضخمة جدًّا وخطيرة جدًّا؛ فهي إما توضع في صناديق سميكة من الصلب وتسقط في قاع أعمق المحيطات، وإما أن تُحرق في أفران ذرية؛ أي أن يقام من أجلها ما يشبه المفاعل النووي هائل الضخامة الذي يستطيع حرق كل تلك المئات والآلاف من الأطنان في حين أن أفران المفاعلات النووية العادية مصنوعة ليكون وقودها المحروق بضعة أرطال فقط من مادة اليورانيوم.

المهم حدث ارتباك كبير مما انزعج له الرأي العام كثيرًا، ولا يزال ومما أخل بمصداقية التصريحات الرسمية، ومما جعل هم البعض أن يعرف اسم المستورد، وكأنه بمجرد معرفة من الذي استورد ستُحل المشكلة، مع أن المشكلة والخطورة هي المواد المستوردة نفسها وعرضها للاستهلاك الآدمي والحيواني.

وبما أنه لا يمكن أن تكون السفينة قد انطلقت من ميناء أنقرس أو غيره وهي لا تعرف وجهتها بشحنة لا تعرف لمن ستسلمها، وقد تعاقد مع الشركة الناقلة ودفع إلا أن تكون سفينة سارحة على موانى العالم تنادي يا من يريد لبنًا أو جبنًا مشعًّا. إذن لا بد أن جهة ما كانت سترد إليها تلك الشحنة، ولكن السلطات تصرح أنها لم تستدل أبدًا على تلك الجهة، وحين يشتد عليها الخناق تقول إن الشحنة منحة من حكومة ألمانيا الغربية، ومعروف أن حكومة ألمانيا حين تعطي منحة لا يمكن أن تكون منحة ملوثة وإلا كانت فضيحة كبرى يتردد صداها في أنحاء العالم سنين وسنين.

ولأن الموضوع كان يدفع أي كاتب له ضمير إلى ألا يتركه حتى يكشف جميع نواحيه وحتى نعرف على وجه اليقين إن كانت قد تسربت لنا في فترة عدم الوعي والاهتمام بفحص الواردات إشعاعيًّا، وما هي بالضبط تلك المواد؟ وكيف السبيل إلى سحبها من السوق والدخول في مفاوضات مع الدول القادرة لمعاونتنا على التخلص منها؟ فقد آليت على نفسي أن أكون واحدًا ممن يوالون الاهتمام بالموضوع حتى يتضح الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحقيقة فيه.

ولكن في ظل حالة الإنكار التام التي تتمسك بها السلطات، وفي ظل عجز تام من قِبلي أو من قِبل أي مؤسسة وحدها أن تقوم بعمل هذا المسح سواء على البضائع التي استوردت

حديثًا أو الجديدة القادمة، وأن هذا عمل لا بد أن تقوم به الدولة كلها أو بالضبط عديد من أجهزة الدولة تتعاون وتنسق فيما بينها. بل لا بد له من آثار على سياستنا الاستيرادية القادمة بحيث تمنع ورود الأطعمة بكافة أنواعها من أوروبا فعلًا، ونستبدلها بأطعمة ومنتجات ألبانية وحيوانية من بلاد بعيدة تمامًا عن الإشعاع مثل أستراليا ونيوزيلندا وجنوب شرق آسيا، وهي منتجات أرخص كثيرًا من المنتجات الأوروبية ومضمون خلوها التام من الإشعاع.

هذا إلى جانب حتمية أن تُرسم استراتيجية للإنتاج الزراعي والحيواني بحيث تمنعنا تمامًا في المدى الطويل عن استيراد أيٍّ مما يؤكل من الخارج، وحبذا في هذا المجال لو فعلنا الأشياء المعقولة؛ فنحن مثلًا نزرع كمية كبيرة من القطن نصدِّره ونحصل على ثمنه بالعملة الصعبة، وفي نفس الوقت نستورد بهذه العملة الصعبة وبمبالغ أكثر منها بكثير منتجات ومأكولات. فلماذا لا نوفر على أنفسنا العناء ونتوسع في زراعة الخضروات وتربية المواشي ونصبح نحن الذين ننتج «غموسنا» تمهيدًا لكي ننتج نحن خبزنا أيضًا؟

لأن الموضوع واسع وخطير ومتشعب، وإلى أن يتم على أكمل وجه من الدقة لا بد من هيئة جديدة تعمل مع هيئة الطاقة الذرية وتكون متخصصة في فحص المأكولات إشعاعيًّا؛ إذ هي تخصص خاص بعيد عن التخصص في الطاقة النووية والمفاعلات النووية ولا بد له من علماء مدربين تدريبًا خاصًّا وأجهزة حديثة خاصة.

لأن الموضوع موضوع حياة إنساننا في هذا الجيل والأجيال التي تليه وصحة مجتمعنا كله وهي مسئولية دولة، ولهذا السبب وُجدت الدول أصلًا وتشعبت أجهزتها.

فإنني أرفع هذا الرجاء إلى الرجل الذي تثق فيه مصر كلها ومستعدة أن تأتمنه على صحتها وعلى طعامها وعلى شرابها:

يا سيادة الرئيس

> لن تطمئن القلوب تمامًا ولن تهجع ولن ينام الآباء والأمهات قريري الأعين إلا وهم قد تأكدوا أنك أخذت الأمر بين يديك وأنه أصبح عندك أهم من أي سياسة أو انتخابات؛ فما فائدة السياسة في بلد مواطنوه مهددون في طعامهم وأطفالهم وحياتهم؟ وإن المفاعل الذي انفجر في تشيرنوبيل روسيا لن ينتهي في مَعدات أطفالنا وعظام كبارنا. نحن نحمِّلك أمانة نقاء ما نأكل وما نشرب وأنت عليها — بحكم سلطاتك — قدير.

أخبار وأخبار

في يوم واحد فقدت صديقَين ورفيقي عُمر، وفي نفس اليوم نُعي إليَّ وأنا في الفندق الكبير أُهنئ نفسي بنجاح الرحلة ونجاح الترجمات وانتهاء كل الأعمال وأعدُّ نفسي لثلاثة أيام بأكملها أحيا فيها باريس الحضارة والمسرح والجمال، ولكنني أوقظت في الثامنة صباحًا على تليفون يدق، «البقية في حياتك، أخوك مات.» أخي عبد الحي الذي تركته موفور الصحة زاخرًا بالتفاؤل والإيمان العميق، مات؟

قلت للصديق وللزميل الأهرامي الذي تكبَّد مشقة إخباري نقلًا عن الطبعة الثانية للأهرام، تلك التي لا تصل إلى الأهرام الدولي: «أرجوك، دعني قليلًا.» كان عقلي بعدُ لم يستوعب، كان الخبر لم يصل بعد إلى مراكز الإدراك. أخي؟ مات؟ كيف؟ وماذا يعني أنه مات؟ بينما أنا أحاول أن أوصل الخبر إلى الإدراك، والإدراك إلى الخبر، لست أدري كم مضى من الوقت ولكن التليفون دقَّ وجرى الكلام بيني وبين الصديق المتحدث عاديًّا، ولكني كنت أتحدث، لست تائهًا وإنما أتحدث على موجة أخرى، وإلى أناس آخرين، وإذا بالمتحدث يذكر لي أن عبد الرحمن الخميسي قد مات ونُقل إلى مصر ودفن، وأن نعمان عاشور هو الآخر قد مات، وكانت الأخبار تأتي ببساطة، ورسائل الموت وكأنها الجريدة تتسرب إليَّ من تحت عقب الباب متوالية، وبسرعة حتى بدا كما لو أنها صنعت دوامة اختفت فيها أسماء صديقي وأخي ولم يبقَ إلا فم الدوامة مفتوحًا ودائرًا وجاذبًا إلى أسفل، وأن تلك الدوامة حالًا سوف تبتلعني أنا نفسي، ولماذا لا تكون قد — الآن — ابتلعتني، وأني أتلقى الأخبار في العالم الآخر من عالم آخر، كنت وحيدًا في حجرتي، ووحدتي طالت حتى تحولت الحجرة إلى نسيج عنكبوتي للموت، أنا فيه الذبابة التي سقطت، والعنكبوت قادم، أراه قادمًا يزحف، احمرَّت عيناي وسال الدمع، ولكنني لم أبكِ، ضاقت الحجرة العنكبوتية حتى دخل العنكبوت في حلقي وحبس حتى الهواء.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة، وكنت كالمنوَّم قد سألت عن مواعيد الطائرات وعرفت أني لن أعود إلى مصر إلا في طائرة المساء القادم، وكان عليَّ أن أمضي ساعات انتظار طويلة أكثر من سبع وعشرين ساعة أنتظر الموت، أو الإنقاذ. طائرة تحملني إلى مصر.

تجربة أرجو ألا تمر بأحد، كان اليومان السبت والأحد عطلة، وباريس خاوية من سكانها الأصدقاء، وأنا لم يكن في صحبتي إلا الموت، وإلا عقل توقف وأبى حتى أن يتذكر أو يصل إلى تمام الوعي، والإحساس الوحيد المتبقي أني محاصر، وأني ضعيف ضعفًا لا أملك معه فض الحصار أو دفع العنكبوت لو أنشب مخالبه في عنقي. ارتديت ملابسي. كيف؟ لا أعرف، هبطت إلى صالة الفندق الواسعة، تشبثت بمقعد شاغر أجلس وارتميت عليه، بعيون جوفاء، ترى ولا تنظر، أحدِّق في الناس، الناس كثيرون، قادمون وراحلون عن الفندق، لماذا هم قادمون، ولماذا يرحلون، هل هم أحياء، أم هم صور تتحرك في وعاء زجاجي مفرغ من الهواء؟!

فراغ تورشيلي الذي درسناه في الطبيعة، مدرس الطبيعة، أخي مات، عبد الرحمن الخميسي، ليلة رأس السنة في الستينيات وهو يقف ساعة الفصل بين العامين يقول: بإذن الله سأحيا إلى سن المائة.

كان قويًّا عملاقًا متفائلًا إلى ألف عام قادمة، وكان فمه مفتوحًا إلى آخره مستعدًّا لابتلاع الحياة كلها بكل ما فيها من طعام وشراب وجمال، ولكني فوجئت به في اللحظة التالية، وفي داره الحافلة بالأصدقاء يتفجر باكيًا زوجته الشابة فاتن الشوباشي، ويقضي بقية الاحتفال في بكاء، ولم يبتلع عبد الرحمن الخميسي الحياة، وإنما ابتلعته الغربة، وإلى أربعة أركان الكرة الأرضية مضى يتسلمه ركن ليرفضه ركن، وهو قوي مقاتل وطني عنيد، هذا الشاعر المخترع الموسيقي كاتب القصة راوي الحكاية قاهر المدينة الذي قهره من قهرنا كلنا ومن بطط — بحذائه الغليظ — ثقافتنا وإنساننا، ثم لماذا — أستغفر الله — يموت نعمان عاشور، مع أن الموت حق، كنت حين ألقاه ويشكو لي الوحدة وبُعد الأصدقاء، أضحك لشكواه، فقد كان يبدو — لأمرٍ ما — غير جاد في شكواه؛ إذ كنت أعتقد أن إنسانًا مثله، مملوءة مخيلته بكل تلك الشخصيات والأنماط التي تبكيني الآن وأنا أشاهد رائعته «عيلة الدوغري» لا يمكن أن يوجد للحظة واحدة وحيدًا، ولكن هكذا كان نعمان الإنسان ونعمان الفنان، يحدثك عن المآسي فتظن أنه يسخر أو أنه لا يحفل بها، بينما هي في الحقيقة تطحنه، وتمرر حلقه، فإذا أضحكتَه ضحك من أعماقه وكأن لا شيء هناك.

وأن يموت صديقاك ورفيقاك وفي أسبوع واحد حتى، شيء — ماذا أقول؟ — اعتدنا عليه، فمنذ بضعة أسابيع عددت اثني عشر صديقًا وفنانًا ماتوا خلال السنوات القليلة

الماضية، الآن صاروا أربعة عشر، مرة أخرى ذلك النسيج العنكبوتي المميت تضيق فتحاته، ويتجول عنكبوته بعيونه الجاحظة البارزة، تحتار قليلًا، ثم بمفاجأة كالصاعقة ينقض على فارس أحلام، على فنان، على صديق في عمر الزهور، وكل مرة يموت لك صديق يموت معه جزء منك.

ولكن هذا كله شيء وموت أخيك شيء آخر، إنه مثل عملية جراحية تُجرى لبتر جزء منك وبغير مخدر أو بنج، وأنت فاتح عينيك، مستشعرًا أقصى وأبشع درجات الألم، ولا تملك — وأنت الرجل — أن تصرخ أو تتأوه؛ فالبكاء للرجال عيب، والصراخ للأطفال، وأنت رجل، وكبير أخوتك وأخواتك، فلتقف، بعد أن انفضَّ المأتم قبل حضورك وتم العزاء ولا حول ولا قوة إلا بالله، فلتقف في بيت العائلة الواسع حيث كان أخوك معمره وكبيره، ولتحس ما شئت بالدنيا كلها مجرد فراغ أجوف اختفى منه أحب إنسان إليك، ولم يعد له ولا للدنيا من بعده معنًى، لن تراه بعد هذا أبدًا، لن تجلسا أبدًا تناقشان أمور العائلة وتتبادلان الشوق بعد طول غياب، لن يأتي العيد ونحن مكتملون أبدًا.

شيء مخيف حدث ولم تعد العائلة هي العائلة ولا أنت أنت، إن زيارة الموت الأولى لِلَحْمك الحي شيء من البشاعة بحيث لا أتمنى لأعدى أعدائي أن يجربه.

ولأني كنت أشفق على قارئي أن أبدأ الكتابة بهذا فأعتقد أني لا بد أن أتوقف هنا، فلست في مجال تأبين أو تقدير، إنما هي دمعة تغلي، وطال غليانها، وكان لا بد أن أسكبها، لأرى لكم، وأكتب، وها أنا ذا أعتذر.

وزارة المحافظة على البيئة

في أهرام يوم الثلاثاء الماضي قرأت خبرًا أسعدني حقًّا، كان الخبر يقول: تقرر إعداد تشريعات جديدة لحماية البلاد من تلوث الإشعاع النووي تشمل المواد الغذائية ومختلف البضائع الأخرى التي يتم استيرادها، وكذلك نقل المواد المشعة أو تخزينها، وستتضمن مشروعات القوانين الجديدة تشديد العقوبات على كل من يستورد عمدًا مواد غذائية أو غير غذائية بها تلوث، وقرر المستشار ممدوح عطية وزير العدل تشكيل لجان من مستشاري الوزارة بالتعاون مع الخبراء الفنيين في هيئة الطاقة الذرية ووزارة الصحة والجهات المعنية الأخرى لإعداد هذه التشريعات.

قرأت الخبر وأحسست بنوع من الراحة لا يوصف، حين كتبت — قبل أن أسافر — بضع مقالات عن المواد الغذائية المشعة كنت أحس وكأني أريد تحريك ترس ضخم من الحديد الذي علاه الصدأ واشتبك بغيره من التروس بطريقة في حاجة إلى معجزة ليعود الترس يتحرك، وتعود الآلة الحكومية الرهيبة تدور وتعمل، وها هو الترس قد بدأ يتحرك.

ألا ما أبطأ إجراءاتنا!

لن أقول لماذا ينتظر المستشار وزير العدل كل تلك المدة ليبدأ في التفكير في تكوين لجان وتشريع قوانين، ولكن حسنًا أنه بدأ، كل ما في الأمر أني أتمنى ألا تكون المسافة بين البداية وبين الانتهاء من تشريع القوانين وتطبيقها ألف عام، فجرائدنا تحفل — أو على الأقل كانت — كل يوم بعدد من السفن الحاملة للمواد المشعة والتي في طريقها لإفراغ حمولتها في موانينا، وكل هذا يمضي بلا أي عقاب، لا على المستورد ولا الحامل ولا المصدِّر، وإنما نكتفي بأن نقول لقائد السفينة: ارحل، وكفى الله المؤمنين شر القتال. إن جلب مواد أو محاولة جلب مواد مشعة إلى مصر جريمة أكبر بكثير من جلب المخدرات التي يُعاقَب مرتكبها بالإعدام، فالمخدرات مهما بلغت خطورتها لا يمكن أن تصل إلى

عشر معشار خطر التلوث الإشعاعي، فأي مواد غذائية أو غير غذائية مشعة تصل للبلاد يستمر مفعولها المدمر — أي عمر المادة الإشعاعية الموجودة فيها — إلى أكثر من ثلاثين عامًا مستقرة في جسد البشر تفعل فعلها القاتل والمشوه، أو في التربة والنبات والحيوان.

وكنت قد كتبت أطالب علماءنا، علماء الطبيعة والطبيعة النووية والذرة وعلوم الإشعاع بأن يتكلموا وأن يقفوا يشرحون لنا هذا الخطر الخفي ويكلموننا عنه، وقد أسعدني حقًّا أن أتلقى خلال يومين متعاقبَين دعوتَين لحضور ندوتَين هامتَين تمامًا، إحداهما عُقدت في جامعة عين شمس برعاية الدكتور الهاشمي مدير الجامعة وقد أقامها مركز دراسات الشرق الأوسط بالتعاون مع نادي هيئة التدريس في نفس الجامعة، والأخرى عقدتها وتعقدها الآن كلية العلوم بجامعة الإسكندرية، وهي ندوة على أعلى مستوًى من حيث الموضوعات التي تتحدث فيها وأشخاص المتحدثين من علماء وأطباء وحتى من علماء القوات البحرية أيضًا، ثم علمت أيضًا أن نقابة أطباء القاهرة والمركز القومي للبحوث في سبيلهما إلى عقد ندوات لمناقشة هذا الخطر الإشعاعي المروِّع.

لم تمكنني ظروفي الخاصة من حضور ندوة كلية علوم إسكندرية، وكم أسفت لهذا، ولكني تمنَّيت أني تعلمت الكثير وأنا أُصغي لعلمائنا الكبار وهم يشرحون لنا ما هي بالضبط حكاية المواد المشعة تلك؛ فعلم الإشعاع وإن كان قد طُرق في أوائل القرن الحالي وأواخر القرن الماضي، إلا أنه لم يُدرس بشكل علمي وجاد يمكن قياسه وقياس مدى تأثيره على الإنسان وعلى الكائنات الحية إلا بعد إلقاء القنبلتَين الذريتَين على هيروشيما ونجازاكي، ولست هنا بسبيل شرح مفصل لكل تلك المواد المشعة، ولكن أقول على سبيل التعميم غير المخل إن الانشطار النووي ذلك الذي إذا حدث بسرعة شديدة يؤدي إلى انفجار ذري أو قنبلة ذرية، وإذا ما تحكم في انفجاره وأبطِئ منه ينتج عنه مواد مشعة وهي عناصر قابلة للانحلال البطيء أو السريع، ومع انحلالها تصدر إشعاعات تُسمى — بالعربي — ألف وباء وجيم، أخطرها جميعًا أشعة ب أو بيتا، وتظل تنفث هذه الأشعة التي تُحدث أمراضًا خطيرة من السرطان إلى تغيير مكونات الكروموسومات الوراثية في الإنسان، تظل تفعل هذه لفترة طويلة من الزمن؛ ففي عناصر «السيزيوم» مثلًا يظل لثلاثين عامًا طويلة يصدر هذه الأشعة بينما هو قابع في النخاع العظمي للإنسان أو في لحاء الشجر والحبوب أو في التربة أو في مكونات جسد الحيوان.

ندوة كانت حافلة حقًّا، وأعتقد أني لست وحدي الذي استفاد منها وإنما استفاد منها كل الحاضرين بما فيهم الدكتور عزت عبد العزيز رئيس هيئة الطاقة الذرية نفسه.

كل ما في الأمر أنني أعتقد أننا ما دمنا قد دخلنا أو بالأصح أُدخل لنا عنصر الإشعاع النووي من الباب الخلفي، وكما كُتب علينا القتال، كُتب علينا أيضًا الوقوف وقفة واعية متربصين لهذا الخطر، فإنني أعتقد أن الهيئة العامة للطاقة الذرية وظيفتها تطوير الأبحاث الذرية ولا يمكن أن تُترك — كما أجمع الحاضرون — مهمتها العلمية الهامة تلك للتفرغ لقياس الإشعاع في المواد الغذائية أو المواد التي استوردت من قبل، لقد اقترحت في الندوة أنه قد آن الأوان لإنشاء وزارة للبيئة في مصر؛ فقد أصبحت المحافظة على سلامة البيئة كيماويًّا وإشعاعيًّا مسألة حياة أو موت بالنسبة لمصر، ليس فقط المحافظة على البيئة وإنما المحافظة على الرقعة الزراعية؛ فهي ليست فقط مصدر المحاصيل والغذاء، ولكنها المصدر الوحيد للأكسجين — إكسير الحياة — ذلك الذي تقابله في مصر مصادر هائلة من ثاني أكسيد الكربون وأكسيد الكبريت وكل ما يجعل مدينة كالقاهرة تتعدى مراحل الخطر بكثير.

إن من المضحك أن الذي يحافظ على الرقعة الزراعية ويحمي الأرض من تجريفها هي شرطة «المسطحات المائية»، فشرطة المسطحات «المائية» تحمي «الأرض» الزراعية، كيف بالله؟!

أما اللجان التي ستتكوَّن لوضع التشريعات ضد المتاجرين والمستوردين للإشعاع فإني أرجو ألا تقل عقوبة الفاعل عن عمد عن عقوبة جالب الكوكايين والهيروين، من الإعدام؛ فهو لا يقتل شخصًا وإنما يقتل شعبًا بل أجيالًا كثيرة من الشعب.

هذا البعد القريب

وأنا في الطائرة البوينج ٧٦٧ القادمة من نيروبي كان الطريق طويلًا، حوالي خمس ساعات بدأت في السابعة صباحًا (السادسة بتوقيت القاهرة) ومنذ أن بدأت وهي تقطع منطقة غابات كثيفة، ومراعٍ خضراء، مئات الكيلومترات وراء مئات الكيلومترات. الطائرة جديدة وأنيقة وفاخرة، والمضيفة لبقة ومصرية ورشيقة، والطيار معلم كبير، صعد بنا دون أن نشعر، وهبط بنا في مطار القاهرة دون ارتجاجة واحدة، وأنا سعيد أنني أخيرًا أصبحت في حضن مصري طائر، أتحدث العربية وأقرأ الجرائد والمجلات، سعيد كأني أستيقظ على حلم جميل أو أنام مستريحًا بعد يوم حافل من التحقيقات والنجاحات. رحلة، أشق رحلة، تكاد تكون بلا راحة حقيقية وبلا نوم إلا لمامًا، وبلا متعة ولكنها في الزمان والمكان رحلة العمر.

مضت الطائرة تقطع أوسع مساحات رأيتها في حياتي من الخضرة والأشجار والمراعي، وأنا أسترجع اثنين وعشرين يومًا مضت أسترجعها ككتلة زمنية متداخلة مختلطة مظلمة في أغلب الأحيان ولكن داخلها لؤلؤة تلمع، أراها تلمع ولا أستطيع الإمساك بها وكأنها لؤلؤة الحقيقة. وبين الحين والحين أعود أنظر من نافذة الطائرة فأرى الخضرة لا تزال باقية والساعة قد مضت منها ثلاث ساعات ولم يكن الأمر خداع بصر، ولكن الخضرة كانت قد بدأت تبهت وتصْفَر ثم ما لبث الأصفر أن طغى وأزيد وأصبح غامق الصفرة البنية لون الجدب الأعظم.

والمحرك اليدوي وكأن صوته قادم من الفضاء واللون الأصفر البني يشمل الكون الرابض تحت سحاب، إنها صحراء السودان الشمالي لون أخضر لا لمعة سراب، صحراء كالوجه الصخري الكالح لا توحي إلا بالعدم أو الموت أو بهما معًا.

وخُيِّل إليَّ أن عمرًا قد مضى وليس ساعة زمن، والطائرة معلقة بين سماء لا سحاب فيها وصحراء داكنة، طبيعة صامتة من فوق وصامتة تمامًا على الأرض، والطائرة وحدها بمن فيها كانت صمتت وصمتنا عن الكلام.

وفجأة بدا شيء يلمع من بعيد جدًّا، قلت لقد بدأ السراب، وما كنت ظمآن لأخرِّف، ولكن عيني كانتا ظمأيين لمشهد يختلف وقد ملَّتا الرؤية، ولكنه لم يكن سرابًا، ولا ضلالة عين. كان ماءً تفرَّست فيه فوجدته فعلًا شيئًا كالنهر الغليل وكنت متأكدًا أنه ليس النيل؛ فالنيل لا يمكن أن يبدو هكذا غليظًا من ارتفاع عشرة كيلومترات فوق سطح الأرض. أيكون بحيرة السد العالي؟ أقصد اسمها الحقيقي بحيرة ناصر.

ناصر. ناصر. لكأن مئات السنوات قد مضت علينا منذ أن ودَّعنا هذا الجبار الذي نازل الاستعمار وأراد أن يغلبه، كالأبطال، وحده، لكي تتكوَّن هذه البحيرة بأعظم كنوز الأرض، الماء العذب، كان لا بد أن يخوض ونخوض معه أهوالًا، كل قطرة ماء من هذه البحيرة التي ظهرت كالجنيَّة الحورية راقدة وسط القحط والجدب والموت، كل قطرة وراءها قطرة دم، ولتر عرق وجهد، وكفاح شعب، وعزيمة قائد بطل عنيد.

أخذت أتأمل البحيرة من أعلى عليين وكنت لأول مرة أراها من طائرة بهذا الارتفاع، ورد منظر الماء الذي قلنا له بإرادتنا، كن فكان، رد منظر الماء روحي، وأحسست أني مشتاق لهذا الشعب الذي بنى السد بعد جولة في بلاد، هي منبع النيل نفسه، وتشكو المجاعة والظمأ.

في السنوات الأخيرة بدأ إحساس يتنامى داخلي ويقلقني، إحساس أنني أريد أن أرى أفريقيا الحقيقية، وليست أفريقيا الشمالية التي زرت بلادها جميعًا، وكان أقصى ما وصلت إليه الخرطوم، التي مكثت فيها أقل من ٤٨ ساعة ثم أُرغمت على العودة للقاهرة بعد أن اعتقلني البوليس السياسي النميري لمدة نصف يوم، رغم أن الذي كان قد دعاني لزيارة السودان هو وزير الثقافة السوداني آنذاك لحضور الاحتفالات السودانية، وعلمت بعد هذا أن السبب فيما حدث لي كان للحيلولة بيني وبين أن أُلقي محاضرة في جامعة الخرطوم، وتخوف سلطات الأمن وقتها من رد الفعل لدى الطلبة والأساتذة.

لم يكن إحساسي هذا مبعثه رغبة سياحية في «السفاري» أو رؤية الرقص الأفريقي، إنما كان نداء في الحقيقة غامضًا، لكأنه نداء العودة إلى الجذور أو العودة لقرية نزح عنها الإنسان إلى المدينة وترك أهلها لا يعرف ماذا فعل بهم الدهر أو ماذا فعلوا بالدهر.

وكنت أيامها لا أكاد أعرف شيئًا عن جغرافية أفريقيا الحديثة، أسمع مثلنا جميعًا، أسماء مثل بوروندي وزامبيا وليسوتو، أو مثلما تسمعون اليوم بوركينا فاسو وكوماسي ولا أعرف بالضبط موقعها على الخريطة، بل إنني متأكد أننا لو أجرينا امتحانًا لطلبة الليسانس في أقسام الجغرافيا عندنا عن عاصمة ليبيريا مثلًا لما أجاب إلا واحد في المائة منهم عن السؤال، بينما نحن نعرف تمامًا أسماء بلاد لا يتعدى سكانها بضعة آلاف مثل دوقية لوكسومبرج وإمارة موناكو.

وليس هذا مجرد جهل، ولكنه نوع من التوجه في المعرفة؛ فنحن نقع إلى أقصى الجنوب من أوروبا ولهذا فرأسنا وعقلنا، وربما إحساساتنا أيضًا تتوجه دائمًا إلى فوق إلى الشمال، تطمع أن تحيا مثلهم وتعرف لغاتهم وتعتبر إنسانهم وإنسانتهم كائنات أرقى نطمع إلى تقليدها حتى في أدق شئوننا حبًّا أو ملابس أو سينما، وقد انخرطنا في تقليد هذه الحضارات الشمالية القوية المقتحمة بلادنا بالعنف مرة وبالاقتصاد وبالثقافة وبالعلم إلى درجة كادت، بل أفقدتنا فعلًا كياننا نفسه وأصالتنا، ولكي ندرك المدى الرهيب الذي وصلنا إليه فلنقارن مثلًا أحدث شعاراتنا وهي الشعارات الداعية لتشجيع واستعمال الصناعات المصرية باليابانيين الذين وجدوا أن الدعاية الوحيدة التي تتبناها الدولة هناك هي الدعاية لشراء وامتلاك الصناعات الأوروبية، والأمريكية؛ ذلك أن اليابانيين متحمسون إلى حد الهوس للصناعة اليابانية، لا يثقون بأي صناعة غيرها مثلما لا يثقون في أي غريب، نحن نولي ثقتنا التامة للمستورد إلى درجة أخلَّت بميزان مدفوعاتنا إلى ديون وصلت إلى عشرات المليارات من الجنيهات كلها استنفدناها في شراء بضائع أو معدات أجنبية، وأيضًا ليست هذه أخطاء الرأسمالية المصرية، طفيلية كانت أم وطنية أصيلة، ولكنها خطأ التوجُّه المصري الذي دائمًا يعتبر الأجنبي القادم من الشمال أو من الغرب أكثر رقيًّا وإتقانًا، وكلمة الخواجة وتعني الكلمة الواحدة التي لا شك فيها، أخطاء أجيال وأجيال من المفكرين والمثقفين المصريين، وبالذات الكُتاب، الذين حدَّثونا عن لندن وباريس كما لو كانتا الجنة، وعن الأدب الأوروبي وكأنه لا ينطق عن الهوى، حتى شاعر شعبي كبير كبيرم التونسي قال:

ح أجن يا ريت يا إخوانا ما رحتش لندن ولا باريز.

طبعًا أوروبا متقدمة ولسنا نسعى من وراء نظرتنا إليها واهتمامنا الذي جرفنا لفقد أصالتنا إلى التقدم في حد ذاته المتمثِّل أمامنا في الدول والأمم والحضارة الأوروبية ثم الأمريكية من بعدها.

ولكن الزمن تغير.

ولم تعد أوروبا وأمريكا هي الظاهرة المبهرة للحضارات، لقد تقدمت الحضارة الغربية كثيرًا، ولأنها فعلت ذلك، فقد تقدم الصدق الأوروبي المتمثل في الفن والصحافة والسينما والرواية والمسرحية، ووجدنا داخل هذا الإنسان المتحضر قسوة وحشية غير بشرية في أحيان كثيرة، وقدرة على الجريمة وارتكابها بمثل ما لم يره التاريخ البشري كله، وتمييزًا عنصريًّا رهيبًا لمسناه حين رأينا في بلاد أوروبا ذلك الكم الهائل من الاحتقار الذي يكنُّونه لكل ما ليس أوروبيًّا أو فرنسيًّا وإنجليزيًّا أو أبيض أمريكيًّا بروتستنتيًّا وبالذات للملوَّنين والعرب.

وهذه طبيعة الأشياء أن يحب الشمالي الشمالي مثله، أما أن يشرئب الجنوبي أو تخدعه المقولات الجميلة ويتصور أن الشمالي سيعترف ويحس به أخًا أو رفيقًا، فهذا يتطلب درجة من السمو البشري لم تتحقق بعدُ للأجناس الشمالية القوقازية البيضاء للأسف الشديد.

ذهب مرة أحد كبار المسئولين المصريين لزيارة السنغال، وقابل أيامها الشاعر ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنغال في ذلك الحين، وسأله سنجور عن رأيه في السنغال فقال: أنا سعيد جدًّا أنني في أفريقيا يا فخامة الرئيس.

فقال له ليوبولد سنجور: هل سمعت جيدًا، أنت سعيد لأنك في أفريقيا؟ قال: نعم يا فخامة الرئيس لقد سمعتني فخامتك جيدًا.

فقال ليوبولد سنجور بابتسامته التي تحمل قدرَين متساويَين من الخبث والطيبة: ألست مصريًّا يا صديقي؟!

قال: بالطبع فخامتك تعرف أنني مصري. قال: ألا تقع مصر في أفريقيا؟

قال: بالطبع تقع في أفريقيا.

قال: إذن أنت طول حياتك في أفريقيا دون أن تشعر؟!

وضحك المسئول المصري عاليًا، أعلى مما يجب وكأنما اكتشف لحظتها فقط أن مصر دولة أفريقية.

ومشكلة المصريين ومشكلة الشماليين الأفريقيين العرب كلهم أنهم يقعون في «شمال» أفريقيا، وأنهم دائمًا وأبدًا يرون أنفسهم جزءًا من الشمال الحقيقي للكرة الأرضية، وأن قربهم من السواد الأفريقي والوسط الأفريقي والجنوب الأفريقي يجعلهم ربما أشد الناس رفضًا لهذه الحقيقة، فكلمة العبد مثلًا التي كانوا يطلقونها على الأفارقة السود، كان يطلقها أشد الناس «سمرة» القريبين كثيرًا من أفريقيا للرجل «الأسود» نأيًا بأنفسهم عن أن يكونوا من نفس النوع.

وليس هذا عيبًا في السُّمر أو العرب الأفريقيين، ولكن يبدو وكأنه جزء من طبيعة البشر؛ فقد قابلت عددًا من الناس السود تمامًا في بعض البلاد الأفريقية يقولون عن الذين يعيشون في منطقة الغابات في أفريقيا وهي المنطقة الأكثر جنوبية، هؤلاء الزنوج، وكنت أكاد أضحك، وكأن صفة اللون أصبحت سمة في حين أنها ظاهرة طبيعية تمامًا؛ فالشمس الاستوائية شمس عمودية على سطح الأرض معظم ساعات النهار، وأشعتها فوق البنفسجية تنزل بكل قوتها على الأرض والناس والزرع والحيوان؛ تلك الكائنات الحية التي تدفع عن نفسها مغبة الأشعة فوق البنفسجية بعمل غشاء كثيف من الميلانين (وليس الميلامين طبعًا) هو الذي يصبغ الجلد باللون الأسمر أو الأسود أو الأسود الغامق حسب كثافة الأشعة فوق البنفسجية، وهذه الصبغة الخلوية تتوارث جيلًا بعد جيل فينتج عنها الأسود أو الأبنوسي أو البني أو الأصفر أو القوقازي الأبيض، شيء لا حيلة للإنسان فيه إلا الحكمة العليا التي أرادت للإنسان وللحيوان أن يعيش في هذه الشمس اللافحة؛ فقد لاحظت أن لون الجاموس الوحشي المطلوق في مراعي كينيا وتنزانيا أسود فاقع السواد بينما الجاموس في مصر رمادي وأحيانًا فاتح الرمادية يكاد يقترب من الرمادية الحمراء.

على أساس هذه الحقائق العلمية البسيطة تم أسر ناس والمتاجرة في ناس، واحتقار ناس وخطف ناس وتجارة عبيد، وثورة عبيد، وتقسيم البشر إلى حاميين وساميين ولا أعرف ماذا أيضًا.

لقد شاهدت مرة طفلة زنجية في محطة قطار ممباسا-نيروبي تلهو بعروسة تسرح شعرها الذهبي الناعم وتساعدها أمها وهما يلهوان معًا بتلك العروسة الشقراء ذات الشعر الأصفر، هذه البنت قطعًا ستصاب بكارثة عقدة اللون دون أن تدري؛ فصناع العرائس في العالم لم يعترفوا بعد بألوان البشر، وصنعوها كلها شقراء، صفراء الشعر بحيث إن من تنشأ وشعرها كثيف أكرت تصبح كالمضغة في أفواه صناع زيوت الشعر وملىناته «البيض أيضًا»؛ بمعنى أن الشمال قد استعمل الشمس أيضًا وما توزعه من ألوان وخصائص في استعمار شعورنا ومقاييسنا للجمال، وفي تكوين العُقد لدينا منذ نعومة أظفارنا.

لماذا لا أكون صريحًا معكم ومع نفسي وأقول لكم إنني لن أجد حماسًا كبيرًا من القراء لهذا الحديث عن أفريقيا، فما يكاد بعض القراء يلمحون كلمة أفريقيا حتى ينحوا الجريدة جانبًا ويقولون: أفريقيا تاني، مش كفاية اللي عملوه في لعيبة الأهلي.

ولهذا سأتعرض للموضوع حالًا، إن الخطأ في مباراة الأهلي وكوتوكو خطأ جغرافي بحت؛ هو خطأ قبول إدارة الأهلي مثل إدارة الزمالك بملعب كوماسي كساحة للقاء مع

الفريق الغاني؛ فكوماسي تقع في قلب منطقة قبائل أو قبيلة الأشانتي بينما العاصمة الغانية لا تسودها القبلية إلا بأقل القليل، والقبلية ليست عيبًا ولا تأخرًا؛ إنها نوع من النظام البشري لا يزال سائدًا في أفريقيا، بل حتى في أوروبا، وما تعصب الإنجليز للإنجليز إلا نوع من القبلية، وما تعصب الألمان للألمان إلا أحدث أنواع القبلية، بل ما تعصب البورسعيديين للنادي المصري أو الإسكندرانيين إلى الاتحاد أو الأولمبي إلا نوع من القبلية. وأن يتعصب جمهور الأهلي للأهلي شيء فجماهير الأهلي والزمالك والترسانة موزعة على القطر أو حتى كما شاهدت بنفسي على القارة الأفريقية كلها، أما أن يكتمل التعصب في وحدة جغرافية واحدة مثل مدينة كوماسي فهنا تخرج جماهير القبيلة الواحدة الموجودة في مكان واحد عن «عقلها» الجماعي بالذات إذا هُزمت، وتتحول المسألة من رياضة إلى عملية انتقام قبلي وقتل.

ولهذا لو كانت معرفتنا بأفريقيا معرفة مصرية من وجهة نظر مصرية أو حتى كروية، لما اخترنا أو وافقنا أبدًا على أن تكون المباراة أو أي مباراة قادمة في عاصمة ريفية قبلية، ولاخترنا العواصم دائمًا مكانًا للقاء حتى لو كان النادي اللاعب ناديًا محليًّا غير قومي.

وهكذا ترجع إلى أصل السبب في رحلتي الجنوبية، إن كل معلوماتنا عن أفريقيا أخذناها من مصادر إنجليزية أو فرنسية أو ألمانية أو أخيرًا أمريكية، وكل ما قرأته بالعربية كان كتابًا ألَّفه رحالة مصري عن رحلته إلى أفريقيا وجنوب أفريقيا بالذات وأنا طالب في الثانوي، كلها مأخوذة من كتب أوروبية أو أمريكية أخيرًا ومن الأفلام. طرزان والقردة شيتا والسفاري، وكلها حتى العلمية منها لم يصل بها إلى حقيقة الحقائق بالنسبة لأفريقيا أو الإنسان الأفريقي، وذلك أن العقل الأوروبي مهما بلغ في موضوعيته لا يمكن أن يتقمص أبدًا الوجدان والعواطف، والأفكار التي تدور في عقل أي أفريقي، وإنما ستكون نظرته سطحية مهما بلغت في عمقها.

وصدقوني حين أقول لكم إن كل ما قرأته عن أفريقيا والإنسان الأفريقي شيء، وما رأيته وأحسسته ووجدته فعلًا، شيء آخر مختلف تمامًا، ذلك أنني كنت أراه كما سترونه إذا ذهبت بعيون أفريقية لأنني من نفس القارة وتحكمني نفس العوامل الجغرافية والتاريخية التي عاشها إنسان هذه القارة منذ زمن بعيد.

أجل، كان هدفي من هذه الزيارة أن أرى بنفسي، وأن أجيب على السؤال المحض، من نحن؟ مصريون نعم، عرب، حين سافرت ورأيت البلاد العربية والعرب ووجدت صورة

طِبق الأصل من حياتي في قريتنا ومركزنا ومحافظتنا وقاهرتنا ومصرنا، نعم نحن عرب أيضًا، مسلمون، نعم مسلمون، والكعبة كعبتنا والنبي العظيم نبينا ﷺ.

إما مصريون عرب مسلمون أو أقباط وأفريقيون أيضًا فهذا هو السؤال.

الذي دفعني أن ألبِّي ذلك الهاجس وأذهب أبحث إن كنا كذلك أيضًا بقيت كمقدمة كلمة إلى الاعتراف أقرب، إنني أدين بهذا الشعور للقائد القومي جمال عبد الناصر الذي منذ ما قبل منتصف الخمسينيات رسم لنا دوائرنا المصرية العربية الإسلامية الأفريقية، دائرة كنا غافلين عنها بالحلم الرومانسي حول وحدة وادي النيل وأملاكنا المنهوبة منذ عهد محمد علي وإسماعيل في مصوع وهرر.

في فلسفة الثورة قرأت لأول مرة عن دائرتنا الأفريقية وقت أن كان شغلنا الشاغل بالكاد هو إجلاء الإنجليز عن قاعدة القنال، وكان الرجل يمد حلمه بالاستقلال إلى القارة المستعبدة، قارتنا يربطنا بها ويربطها بنا، ويساعد حركات التحرر الأفريقي بكل ما يملك من قدرة، وقد استثمرت مصر الكثير من اقتصادها وأبنائها في تحرير الشعوب الأفريقية والعربية، وفي غمضة عين كدنا نضيع كل رأس المال، ولكن لا العرب ولا الأفريقيون نسوه.

إن البُعد المصري في أفريقيا والبعد الأفريقي في مصر أخطر بكثير، يكاد يوازي تمامًا البُعد العربي لمصر والبُعد المصري للعرب، وإذا كان البعد الإسلامي يُعد عقيدة وانتماء فالبعد الأفريقي يُعد طبيعة وأرضًا وماءً ونيلًا ودمًا ولحمًا. إن من يزعمون أن عبد الناصر كله كان خطأً هم كمن يحاولون أن يفقئوا عين الشمس بأصبعهم المرتعشة.

لقد كان للرجل رؤية مستمدة من الحلم المصري العظيم، كل ما في الأمر أنه لوى عصره بعنف لا مبرر له ليرينا ما كان يراه.

الفقر «الدكر»

قبل أن أسافر إلى شرق أفريقيا، حرصت على لقاء ثلاثة من المسئولين عن سياسة مصر الأفريقية منذ الخمسينيات وإلى الآن، كان أولهم السيد محمد فائق مبعوث الرئيس جمال عبد الناصر الشخصي إلى أفريقيا لحقبة طويلة من الزمان، ومحمد فائق نموذج رفيع لواحد من رجالات مصر في عهد عبد الناصر، أخلاق كأخلاق الأولياء وأدب جم، وأفق سياسي واسع مدرب وفاهم، كنت أريد أن أعرف منه جذور علاقاتنا بأفريقيا في فترة التحرر الوطني والاستقلال تلك التي تراوحت بين استضافة الزعماء الجدد في القاهرة أثناء رحلة الحصول على الاستقلال، إلى التدخل العسكري العلني في الانحياز للومومبا الزعيم الوطني الكونغولي على تشومبي وعصابة ألمانيا الأوروبية التي كانت ولا تزال تمتص كل ثروة الكونغو، وكان ذلك التدخل سياسيًّا أول الأمر ثم انتهى بإرسال قوات الصاعقة المصرية بقيادة سعد الدين الشاذلي آنذاك وبراعة الدكتور مراد غالب سفير مصر. فترة غريبة من التاريخ والسياسة، والعسكرية المصرية تكاد تعادل — رغم الفارق الشاسع — الفترة التي أرسل فيها الخديو إسماعيل جزءًا من القوات المصرية ليحارب مع جيش صديقه نابليون الثالث في أمريكا أو المكسيك، لست أذكر ولكن شتان بين الهدفين؛ فعبد الناصر كان يؤمن أن تحرير مصر من الاحتلال البريطاني لن يتدعم إلا بخروج الإنجليز والفرنسيين من كافة مستعمراتهم في أفريقيا، وكانت الولايات المتحدة لا تعترض على هذا الهدف باعتبارها تخطط لتَرِثَ الإمبراطوريتين القديمتين فيما بعد، وإن يكن هذا قد حدث إلى حد كبير وأصبحت المصالح الأمريكية في القارة الأفريقية الآن تشكل أكبر المصالح قاطبة، تليها المصالح الفرنسية؛ ذلك لأن الاستعمار الفرنسي كان استعمارًا حقيقيًّا بالمعنى الثقافي والحضاري الذي قد وصل

إلى درجة اجتثاث الهوية القومية من لغة وعادات وتقاليد، ولهذا كان طبيعيًّا أن تجد دول «الفرانكوفون» أي المستعمرات الفرنسية السابقة، نفسها، في ورطة هائلة بعد «الاستقلال» لا تملك معها إلا عودة الصلات الحميمة مع فرنسا، وفي حين أن دولة الجزائر قامت بمعركة بطولية لاستعادة اللغة العربية واللسان العربي والخصائص القومية؛ لأنها كانت ترتكز في مقوماتها الوطنية على الدين الإسلامي الحنيف واللغة العربية بكل تراثها وتاريخها ذلك لم تمسه اللغة والثقافة الفرنسية إلا لأقل من مائة وأربعين سنة، في حين حدث هذا، بقيت كل أفريقيا (الفرنسية) تعتمد على اللغة الفرنسية والتجارة والصناعة الفرنسيتَين إلى الآن، بل وأصبحت فرنسا في بعض الأحيان بقواتها العسكرية في تشاد مثلًا وأماكن أخرى تدافع عن المصالح الغربية كلها بما فيها المصالح والسياسة الأمريكية في القارة.

أقول: من محمد فايق استمعت إلى تفاصيل كثيرة عن تاريخ مصر القريب في مساعدة حركات التحرر الوطني الأفريقي من المساعدة في تحرير الكونغو إلى إيقاف حرب الانفصال الاستعمارية في نيجيريا إلى الاتصال بحركة الماوماو في كينيا واستضافة القوى الثورية في روديسيا (زيمبابوي الآن) وعشرات من زعماء حركات التحرير الأفريقي في أواخر الخمسينيات والستينيات إلى أن نالت كل الدول الأفريقية تقريبًا ما عدا ناميبيا وجنوب أفريقيا استقلالها الكامل، وأصبحت دولها تشكِّل خمسين صوتًا من أصوات الدول في هيئة الأمم المتحدة، خمسين صوتًا كلها تقريبًا تصوت في جانب مصر وجانب العرب وكانت من أوائل الدول التي بادرت إلى قطع علاقاتها مع إسرائيل بعد عدوان ٦٧.

ثم جاءت السبعينيات ورحل عبد الناصر وتولى أنور السادات الأمور وكانت سياسته إلى ما بعد حرب ٧٣ هي سياسة الاستمرار على الخط الناصري التحرري.

ولكن …

بعد مفاوضات فض الاشتباك وزيارة القدس ومعاهدة كامب ديفيد تغيرت الأوضاع تمامًا؛ فقد نفض أنور السادات يده من سياسة مصر الأفريقية.

ورغم أن السادات قد أعاد العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل بما فيها التطبيع، إلا إن معظم الدول الأفريقية لا تزال علاقاتها مقطوعة مع إسرائيل.

وحدثت تغيرات كثيرة في القاهرة.

فزعماء ما بعد الاستقلال تهاووا واحدًا وراء الآخر؛ سقط نكروما، ومات سيكوتوري، وذهب أحمدو أهيدجو وجومو كينياتا وغيرهم كثيرون.

وتلك ظاهرة لا بد أن نتوقف عندها.

ماذا أقول؟!

أأقول إن الاستقلال قد جاء مبكرًا أكثر مما يجب لمعظم الدول الأفريقية قبل أن ينشأ «كادر» وطني متمرس يستطيع أن يقوم بكل أعباء «التركيب التحتي» Jnfra Structure للدول الجديدة؟

أم أقول إن الدول الأوروبية المستقرة كانت حريصة على ألا تدرب الوطنيين على أي عمل مؤثر في الحكومة، وإن كل الوظائف الرئيسية والصغرى حتى كان يقوم بها البلجيكيون والفرنسيون والإنجليز والبرتغال؟

أم إن «الدولة» بحدودها المصنوعة والتي أقامها الأجانب أنفسهم فيما بينهم كانت لا تزال غريبة على النظام السائد في القارة منذ القدم نظام القبائل والعشائر؟

أم إن هذا كله معًا، جعل أمور أي بلد أفريقي بعد الاستقلال أسوأ مما كانت قبله.

صحيح أن بلادًا مثل كينيا والصومال وأوغندا وتنجانيقا (تنزانيا الآن) كان يُعامَل المواطن فيها معاملة الخدم والحمالين لعدة «السفاري» ولقد تغير الوضع الآن كثيرًا وأصبح المواطن سيد بلده.

ولكن الاستقلال أفرز أنواعًا غريبة من الحكم في أفريقيا.

فلأنه لم تكن هناك حياة حزبية بالمعنى المفهوم فإن الذي بادر واستولى على الحكم هم الضباط بقايا الجيوش الملحقة بالجيوش المحتلة، وهكذا قامت دكتاتوريات عسكرية سافرة في كثير من البلاد، وقد اختار الغرب من يخلفه بعناية زائدة؛ فقد راعى أن يكون الحاكم العسكري للبلاد فردًا من أقل القبائل عددًا وأضعفها نفوذًا حتى لا ينقلب إلى ديكتاتور وطني حقيقي يملك الأغلبية، وحتى يظل في حاجة ماسة إلى البلد الأوروبي الذي أعطاه الاستقلال.

كانت تلك هي القاعدة.

ولكن كانت هناك حالات قليلة ورثت فيها الحكم فئة لم يحسب — أو حسب — لها الاستعمار الغربي حسابًا.

أولئك هم فئة القادة الشعبيين الأيديولوجيين في القارة مثل «المعلم» جوليوس نيريري في تانزانيا، وبكاسا، ونكروما، وسيكوتوري، وروبرت موجابي في زيمبابوي، وكان أكثر هؤلاء ماركسيين سابقين، أو عرفوا الماركسية كمذهب وأرادوا خلق ما يمكن أن يسمَّى بالحكم الاشتراكي الوطني، وساروا على نفس الخُطى تقريبًا التي سارت عليها مصر في ثورتها مع الفارق الكبير بين مصر المتقدمة ذات التاريخ والثقافة العريقَين والحركة الوطنية التي بدأت منذ مائة وخمسين عامًا، وبين حركات وطنية لم يمضِ على بعضها أكثر

من عشر سنوات؛ ولهذا فلم يحفل الأوروبيون كثيرًا بأن يتسلم هؤلاء الزعماء الماركسيون مقاليد الحكم مثلما فضلت الحكومة البريطانية أن تتفاوض مع الماركسيين في عدن ترفض تمامًا أن تقبل أو تتفاوض مع الجبهة القومية لميولها الناصرية الوطنية.

ذلك أن تلك الدول كانت تعرف سلفًا أن تطبيق الاشتراكية علمية أو وطنية مسألة صعبة تمامًا حتى على مجتمع أوروبي يعج بالمثقفين والمتعلمين والاشتراكي فيها محصور في دائرة ضيقة تمامًا، ومن الصعب على جماهير مواطنيه أن تستوعب التجربة.

وكأنما فعلت هذا عن وعي خبيث، لتفشل التجربة، وتتعلم الجماهير الأفريقية أن الاشتراكية والقطاع العام في كل شيء لا يصلح نموذجًا للحكم، في حين أنها الوسيلة الوحيدة لحكم وطني حقيقي يعمل لصالح الجماهير الفقيرة في فترة ما بعد الاستقلال، لو وجدت مقوماته، وأولها العناصر المخلصة الواعية المدربة.

وجاءت السبعينيات.

نكسة حقيقية.

أسعار المواد الخام من بُن وشاي وكاكاو ومعادن ومحصولات زراعية قليلة، تهاوت أسعارها إلى الحضيض، بينما ارتفعت أسعار البترول والمواد المستوردة إلى معدلاتها القصوى؛ بمعنى آخر زادت الدول الغنية من غناها، وازدادت أفريقيا فقرًا.

وبدأ تهاوي زعماء ما بعد الاستقلال ونظرياتهم.

وبدأت الحروب الأهلية في أوغندا وتشاد وموزمبيق، وبدأ تحرش جنوب أفريقيا بأنجولا وناميبيا، وبدأت النزاعات على الحدود بين الصومال والحبشة، وبدأ الجفاف وبدأت المجاعة.

وأيضًا وهذا هو المهم تأثرت سياسة مصر الأفريقية وتحولت ١٨٠ درجة؛ كان الرئيس السادات يكره الماركسيين كراهية التحريم؛ فألغى من قاموسه كل دولة أفريقية تدين أو أن لها أدنى صلة بالماركسية، في حين أن معظم الدول الأفريقية التي تحكم بالماركسية لا علاقة لها أبدًا بالشيوعية أو حتى بالاشتراكية وإنما هي نُظم وطنية أخذت الحكم، إما من إمبراطور كإمبراطور الحبشة، وإما من حكم استعماري غاشم، وإما لأنها كانت الفئة الوحيدة المنظمة في بلاد لا أحزاب فيها ولا تنظيمات.

حتى بلغ الأمر حد القطيعة التامة مع «جمهورية الحبشة الديمقراطية الشعبية» واتهام رئيسها مانجستو هيلا ميريام في خطبة سمعتها من الرئيس السادات بأنه — أي ميريام — مصاص الدم، وبلغت حد أن ميريام وضع أمامه زجاجات مليئة بالدم، يتوعد فيها الرئيس السادات بالقتل، ويلقي بزجاجة دم من فوق المنصة تغمر ما أمامها بالدم الأحمر المراق.

وانكمشت علاقاتنا الاقتصادية تمامًا بأفريقيا، شركة النصر للتصدير والاستيراد تلك التي كان لها فروع في كل بلد أفريقية، اقتصرت على وجود مندوب لها، والتبادل التجاري وصل إلى الحضيض.

وبدأت بعض الدول الأفريقية السيطرة على منابع النيل تتحدث عن إقامة سدود وخزانات على بحيرات فيكتوريا في أوغندا، وتانا في الحبشة والنيل الأزرق وعطبرة بحيث لا يعود يصل إلى مصر مياه تكفي حتى كي يشرب الناس.

وظل هذا يحدث إلى أن جاء حادث المنصة وتولى الرئيس مبارك.

الحقيقة كانت تركة مثقلة تقريبًا في كل شيء وكل مجال.

وكان على الرئيس مبارك أن يحل عشرات العُقد التي كبَّلت مصر عربيًّا ودوليًّا وأفريقيًّا، وأفريقيًّا بالذات، فمن الحبشة التي يقال إنها ماركسية تأتينا ٩٠٪ من مياه النيل، كذلك تأتي روافد أخرى من تانزانيا الاشتراكية والصومال وكينيا، وكدت ذات يوم لا أصدق نفسي وأنا أرى الرئيس مبارك في التليفزيون يزور الحبشة ويصافح ويعانق الرئيس مانجستو ميريام، وأنا أرى ميريام في القاهرة يشيد بعظمتها، شيء لا يكاد يُصدق.

ولكن ما كان لا يُصدق، قد حدث.

وشكرًا لسياسة مبارك الأفريقية، وشكرًا لمهندس سياسي مصري حقيقي هو الدكتور بطرس غالي، الذي تولى برحلاته الكثيرة طوال أعوام، وبمناقشاته وما يحضره من مؤتمرات «الفرانكوفون» و«الأنجلوفون» الدول الناطقة بالفرنسية والناطقة بالإنجليزية شكرًا له بدأت العلاقات المصرية الأفريقية تعود إلى نبضها الطبيعي وتقريبًا إلى سابق عهدها في الستينيات وربما على مستوى أكبر؛ فقد كان دور مصر التحرري في الستينيات يحول بينها وبين إقامة علاقات طبيعية مع ما يمكن أن يسمى بالنُّظم القريبة من السياسة الغربية في القارة، الآن نحن على علاقة مع الجميع وبالذات مع الدول الشريكة في النيل ومنابعه، ولقد أنشأ الرئيس مبارك ما يُسمى «صندوق أفريقيا» وهو هيئة ثقافية علمية ذات ميزانية متواضعة، هذا صحيح (عشرة ملايين جنيه) ولكنها تتولى إيفاد أطباء وأساتذة جامعة وخبراء لإغاثة بعض البلاد الأفريقية المحتاجة في أحيان، ولعمل علاقات ثقافية وثيقة مع بقية البلدان.

وقد يقول قائل: وهل تملك مصر المديونة أن تقدم خدمات على هيئة إعانات لدول القارة الأفريقية؟

والسؤال مشروع تمامًا ولكن الإجابة عليه واضحة؛ فماء النيل حياتنا، وأفريقيا هي المتنفس الوحيد لأي صناعة مصرية أو أي صادرات ودون أرضية من العلاقات الودية والثقافية وحتى الشخصية لا يمكن أن نقوم بدور فعال في القارة.

ولقد أفادتني مناقشاتي الكثيرة مع الدكتور أسامة الباز الوكيل الأول لوزارة الخارجية ومدير مكتب الرئيس للشئون السياسية في فلسفة مصر العميقة تجاه أفريقيا وفي التعرف على الجهود الكبيرة التي دارت وتدور من وراء الستار؛ وكأن مصر تؤمن بالحديث الشريف القائل: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.» فهي جهود بطلة حقًّا، ونتيجتها مذهلة، في أسبوع واحد زار كينيا وشرق أفريقيا ثلاثة من المصريين، كلٌّ فذ في مجاله، السفير سمير أحمد ليحدثهم عن استراتيجية مصر في أمن البحر الأحمر، والدكتور علي الدين هلال، وكاتب هذه السطور، حتى لقد وقف أحد أساتذة جامعة نيروبي يتحدث عن هذه الظاهرة ضاحكًا: إن المسألة تبدو وكأن هناك غزوًا مصريًّا لأفريقيا. ثم أضاف ضاحكًا: ولكن ما أروعه من غزو! إنه غزو الأشقاء والعلماء والمثقفين المصريين الأفريقيين، غزو نريده ونسعى إليه.

ذلك فوق مئات الأطباء والمصريين المتناثرين في أنحاء القارة من النيجر إلى أوغندا، يأخذون بالقياس العالمي بضعة دولارات، ويقومون بأعمال بطولية في مناطق لا توجد بها أحيانًا مياه شرب أو لقمة عيش.

والنتيجة …

بدأت مصر تستعيد دورها الطبيعي كالقاعدة الطبيعية للدول الأفريقية، وأصبحت القاهرة حلمًا من أحلام أي أفريقي، نفس الحلم الذي كان يراود أجيالنا السابقة لباريس عاصمة النور والثقافة، وللندن عاصمة النظام والتحضر، القاهرة عندهم أكثر ثم أنها منهم، من قارتهم بل وصل الأمر كما ذكر لي الدكتور بطرس غالي أن الأفارقة تبنوا الحضارة الفرعونية القديمة كلها واعتبروا أفريقيا بهذا، القارة التي نشأت فيها أول حضارة من صُنع الإنسان على سطح الأرض.

ولا يستطيع إنسان أن يدرك القيمة الحقيقية لمصر إلا إذا زار وتوغل في بلاد أفريقيا البعيدة، ورأى كم «يسلِّم» الناس بزعامة مصر (إلا في كرة القدم!) وينظرون إلى قاهرتنا التليدة وكأنها ماسة الوجود تلمع من بعيد جدًّا وسط الأحراش والغابات وتلهمهم المسيرة والطريق.

كنت ألقي محاضرة في جامعة أفريقية كبرى، ولحسن حظي كان في مقدمة الحضور السفير محمود عثمان والسيدة سميحة غالب رئيسة الأقسام الثقافية في التليفزيون التي كانت تمثِّل مصر في مؤتمر الإذاعات الأفريقية، أما حظي الأكبر فقد كان في حضور الصديقة العزيزة والزميلة الأهرامية بهيرة مختار، وكان موضوع المحاضرة، هو: هل توجد ملامح عامة للأدب الأفريقي وللشخصية الأفريقية في أدب القارة؟

وكنت من تجوالي في كتب الأدب الأفريقي التي تصدرها دار «هاينمان» البريطانية وقراءات للكُتاب الأفريقيين الكبار أمثال: أوجوجي وجريس بوجوث وكريس وأنجالا واند نجازي وفرانسيس أمبوجوا وموسوكا وكنارابي وماسامبا ومولو كوزي وغيرهم، أولئك الذين يكتبون بالإنجليزية والقليلون منهم الذين يكتبون بال «كي سواحيلي» والسواحيلية المترجمة، كنت قد اكتشفت ملامح رئيسية لأبطالهم تتشابه كثيرًا جدًّا مع ملامح شخصيات يول سوينكا الكاتب النيجيري الحاصل على جائزة نوبل، والشاعر النيجيري الكبير وليم كلارك كذلك مع ما يكتبه شعراء وكُتاب القصة القصيرة في موزمبيق (وعندهم أحسن كُتَّاب القصة القصيرة).

وليس هذا هو كل شيء.

فلقد وجدت أيضًا أن كتابات هؤلاء سواء كانت بالسواحيلية أو الفرنسية أو الإنجليزية يتشابه أبطالها إلى حد كبير مع أبطال كُتاب الشمال الأفريقي العربي في المغرب والجزائر وتونس وليبيا.

وأيضًا في مصر.

وهنا بدأت تنبت لديَّ فكرة الشخصية الأفريقية العامة في الأدب وكيف أنها قد تختلف في التفاصيل ولكن ملامحها العامة جد مشتركة، بل وواحدة، إلى درجة أننا يمكن أن نتحدث عن وجود شخصية أفريقية عامة في الكتابة، وكاد الموضوع يبدو غريبًا على الجمهور الحاضر ومعظمه من كبار المثقفين، والنقاد والكُتاب ودارسي الأدب الأفريقي وحتى الغربي.

ولم تكن تلك أول مرة يقابَل كلامي بالدهشة أول الأمر، ثم بالاقتناع التدريجي من طول النقاش.

وفي سبيل إقناعهم بهذا كانت أمامي عدة مشاكل ليس أقلها ذلك الستار الحديدي الذي أقامه الاستعمار الأوروبي بين أفريقيا السوداء أو أفريقيا ما تحت الصحاري الكبرى، وبين شمال أفريقيا العربي ومنه مصرنا العزيزة، قالوا لهم أفريقيا هي القارة السوداء، وهؤلاء عرب بيض أو سمر لا ينتمون إلى القارة لا لونًا ولا لغة ولا تقاليد.

ونجحوا في هذا إلى حد كبير.

ثم قسَّموا القارة السوداء جنوب الصحراء إلى أفريقيا تتكلم الفرنسية، وأفريقيا التي تتكلم الإنجليزية، وجزء ضئيل من شرق أفريقيا يتكلم السواحيلية والكي سواحيلية.

وبضرب الأمثلة للتناول وأبطال الأدب استطعت أن أقنعهم بتشابه الأبطال الأفريقية فوق الصحراء وتحت الصحراء الذين يتكلمون العربية أو الإنجليزية القاطنين في الشرق أو في الغرب أو في قلب القارة.

ولكن بقيت مشكلة اللون.

كان هدفي واضحًا، فمثلما أخذنا نحن وقتًا طويلًا جدًّا في أن نقتنع أننا أفريقيون فعلًا وجزء لا يتجزأ من القارة جغرافيًّا وإنسانيًّا وثقافيًّا، فقد كانت تلك أول مرة يُواجَهون هم فيها بفكرة أننا أيضًا أفريقيون مثلهم.

فالقاعة عامرة بالوجوه الغامقة السمرة، وأنا الذي يحاول إثبات أفريقيته فاقع البياض مثلي مثل محمد فائق الذي كنت دائمًا أتساءل كيف يختار عبد الناصر هذا الرجل الأشقر ليكون المتحدث باسمه في قارة سوداء، وهنا أخذت أتحدث عن موضوع مضحك تمامًا، ذلك هو موضوع الأقلية البيضاء الأفريقية التي تجيء من شمال القارة، أجل نحن البيض والأفريقيين أقلية ضئيلة جدًّا في القارة الأفريقية لا نتعدى الكسر من الألف في المائة فمعظم المصريين سُمر، وكذلك عرب المغرب العربي الأفارقة فيما عدا الخط الساحلي الضيق للبحر الأبيض المتوسط.

ولكي أثبت لهم أن لوني هو الشاذ في مصر وليس التقليدي، أشرت إلى صديقتي العزيزة بهيرة مختار الجالسة في الصف الأول، وقلت لهم هذا هو لوننا نحن المصريين، ووقفت بهيرة مختار وأعطتهم وجهها وصفق الحاضرون حماسًا واستحسانًا؛ ذلك أن الله سبحانه منح بهيرة سمرة أبنوسية فاتحة رائعة، هذا فوق ملامحها المصرية الجميلة التي ألهبت الأكف بالتصفيق، ولحظتها فقط أحسست بفخر بمصريتي وأفريقيتي.

وبدأ نقاش جاد وخطير حول الملامح العامة للبطل الأفريقي في الأدب.

كما قلت انحدرت الأوضاع الاقتصادية في أفريقيا إلى حد المجاعة بعد الاستقلال؛ ذلك أن الحكومات الأيديولوجية لم تنجح في إقامة المجتمعات التي كانت تحلم بها، والحكومات العسكرية تحولت إلى مافيا داعرة تسرق وتنهب وتضع المليارات في بلاد يموت الناس فيها فعلًا من الجوع.

يموتون من الجوع وهم صابرون وكأنهم يستعدون ليوم الدين، أو يوم الثورة الكبرى التي لن تُبقي ولن تذر، وإن أنسى، لا يمكن أن أنسى منظر المواطنين الأفريقيين المنتظرين على محطة الأوتوبيس في واحدة من كبريات المدن الأفريقية، كانت الشمس الاستوائية تنصبُّ في وحشية منقطعة النظير وكان الوقت ظهرًا، مررنا على محطة الأوتوبيس بسيارة مستشار السفارة وتغدينا وجلسنا نتناقش طويلًا حتى مضت حوالي أربع ساعات، وعدنا من نفس الطريق لأجد نفس طابور المنتظرين الذي يمتد طوله لأكثر من مائة متر، ولا أتوبيس قد جاء بعده، وحين سألت مرافقي المستشار لماذا هذا؟ قال: لأن عدد الأتوبيسات قليل جدًّا ولا يأتي الأوتوبيس في العادة قبل مضي ثلاث أو أربع ساعات والركوب فيه بالطابور. طابور صامت صامت بلا شماسي أو مظلات ينتظر وينتظر وينتظر، فإذا جاء الأتوبيس فالركوب بالدور المنظم ولا هرجلة ولا زق ولا دفع.

يا لهؤلاء الناس!

الشغالة التي تعمل في بيت المستشار تبدأ رحلتها إلى بيتها الواقع في الضواحي في الثالثة ظهرًا وتصل إلى منزلها في العاشرة مساءً، وتقوم في الخامسة صباحًا لتصل إلى منزل المستشار في العاشرة، كل يوم، كل يوم، أي فقر وأي صبر أي إنسان بطل يتحمل كل هذا؟ إنه الفقر «الدكر» كما نسميه بالمصري، فقر الأنظمة والحكومات، وبأمر الدول الغربية اللصة التي تدفع المليارات لتمنع فلاحيها من الزراعية والمنتجات الحيوانية المكدسة كجمال الزبدة في دول السوق الأوروبية وأمريكا، وهو فقر «دكر» لأن الحكومات التي تسوس هذه الشعوب إما متفرغة للنهب أو فشلت تجاربها الاشتراكية بالحصار الرأسمالي، والآن فقط بدأت تفكر في الانفتاح بعد خراب مالطة.

كما قلت قبلًا كانت رحلتي إلى قلب أفريقيا رحلة عمر وخبرة وتعلُّم ولقد تعلمت وعرفت الكثير.

وإن كنت قد قدمت لهذا كله في تلك المقالات الثلاث التي كتبتها هنا، فان الموضوع لا يصلح له إلا كتاب كامل أعدُّ له منذ الآن، وأتمنى الانتهاء منه قريبًا إن شاء الله.

كم تشبهنا ونشبهها

المرعى، المراعي، رعى، يرعى، قبائل الرعاة، كلمات وإن كانت عربية الأصل والمعنى إلا إن استعمالنا لها في مصر قليل، ذلك أننا مصر، بلاد إما الصحراء التامة الغالية، وإما أرض زراعية أو مستنقعات وبحيرات تكوَّنت بعد انحسار البحر المتوسط، لا توجد لدينا «مراعٍ» إلا تلك المساحات المحدودة جدًّا التي نزرعها «برسيمًا» أو بالأصح نصنع المراعي.

لن تعرف المعنى الحقيقي لكلمة المراعي إلا إذا تركت حوض النيل واتجهت شرقًا أو غربًا لتجد عشرات الملايين من المساحات التي لا يملؤها سوى الحشائش وأشجار قليلة متناثرة، وأنهار قليلة تأتيها من قمم الجبال، بعضها منابع صغيرة جدًّا للنيل العظيم، بالمناسبة لأول مرة في حياتي أعرف أن النيل ينبع من تسع دول أفريقية؛ إذ كانت معلوماتي الجغرافية السابقة تتوقف عند حدود أن ١٠٪ من مياه النيل تأتي من بحيرة فيكتوريا في أوغندا و٩٠٪ بما فيها الفيضان تأتي من النيل الأزرق الذي ينبع أساسًا من بحيرة تانا في الحبشة، ولكن اتضح أن جذور هذا النيل العظيم تمتد من الكونغو كينشاسا إلى أجزاء من تانزانيا وكينيا وبلاد أخرى كثيرة.

ولكن حديثنا ليس عن النيل، حديثنا لا يزال عن المراعي، عن ملايين الأفدنة من العشب التلقائي الذي لا ينقطع، مكانًا وزمانًا؛ فهو ينمو تقريبًا طوال العام لأن الأمطار الغزيرة التي تسقط صيفًا، والأمطار التي تسقط شتاءً أيضًا، تضمن للأرض مياهًا كثيرة تنبت العشب والأشجار ولكنها ليست من الكثافة بحيث تصنع الغابة أو كما يسمونها البوش، تلك المراعي تمتد من شرق السودان وجنوبه إلى الصومال وكينيا وتنزانيا ورواندي وزامبيا والكونغو، هكذا خلقها الله سبحانه، وعليها تحيا قبائل قليلة العدد أهمها قبائل «الماساي» التي تجدها في كل تلك البلاد، ومن الطريف أن أذكر أن دليلي، وهو من نفس القبائل، وكنا تقريبًا على بُعد خمسمائة كيلومتر من نيروبي، سائرين بالعربة اليابانية المجهزة خصوصًا

لاتقاء هجوم الحيوانات إذا هجمت، وللسماح للراكب أو الركاب أن يفتحوا سقفها ليصبحوا وجهًا لوجه أمام الأسد أو الفيل أو سيد قشطة أو ... وهذا هو المضحك حقًّا، الجاموس البري الأسود، أكثر أنواع الحيوانات في المراعي شراسة واستعدادًا للهجوم حتى إن السائق الدليل ذكر لي أن سيارته السابقة قد دشدش موتورها تمامًا جاموس، ولاحظت أن السائق لا يخاف من الأسود أو الأفيال أو حتى الزراف الطويل ولكنه يتجمد في مكانه إذا رأى جاموسًا بريًّا واحدًا فما بالك — كما حدث مَرَّة — إذا رأى طابورًا طوله أكثر من ٢ كيلومتر من قافلة ذلك الجاموس، وقلت في سري هذا الرجل قد أصيب بعقدة الجاموسة؛ فقد كان، لكي يتفادى أي مرور قريب منها يلف لفة طويلة قد تكلفنا ساعة زمن ليدور دورة كبيرة يبتعد بها عن ذلك الذي يبدو كطابور النحل الأسود الضخم تصنع خطًّا سميكًا من السواد المتحرك عند نهاية الأفق.

سألته لماذا لا يحمل بندقية يدافع بها عنا وعن نفسه، قال: إن الحكومة تمنع وجود البنادق لأنها تحرم قتل أو صيد أي حيوان هنا فهو ثروة قومية، وكاد في فترات توحش الأوروبيين للصيد والقتل ينقرض بعضه.

قلت: ولكن الدفاع عن النفس؟! قال: إن أي صائد كذاب يستطيع أن يقتل الحيوان ويزعم أنه كان في حالة دفاع شرعي عن النفس.

والحقيقة أنه لا يوجد في تلك المراعي، ما دمت في السيارة، شيء يستاهل الدفاع الشرعي عن النفس، فباستثناء حادثة الهجوم على سيارة «التويوتا» التي ذكرها الدليل السائق ولم أرها، كنت أضرب ببصري إلى أبعد ما أستطيع، والمراعي تتيح لك رؤية ممتدة، فليس لها لمعان الصحراء، وسراياتها، فأجد الحيوانات (المتوحشة كما يقولون) تحيا في حالة من الاكتفاء والسلام لم أحس بها أو أرها في أي مجتمع بشري أبدًا، الأرض ممتدة وشاسعة، ولا مسافات تقاس هناك؛ فالمسافات بآلاف وملايين الأفدنة، والعشب كثير كثير، والرزق واسع، وكل أسد وأليفته لهما منطقة نفوذ لا يحرسها أحد، فبين عائلة الأسود هنا وعائلة الأسود هناك، مسافة كبيرة، تسمح بحرية تامة للحركة، ولا طمع هناك ولا جشع يدفعك للاستيلاء على أراضي الغير أو اغتصابها، والحيوان أبدًا لم يعرف حكاية الاستعمار والاحتلال، والسلام مستتب بطريقة ساحرة مذهلة.

أما المعارك فهي تنشأ بين جنس البشر فقط، كما كان يحدث في البادية العربية حين ينتهي الكلأ من مشرب قبيلة فتزحف إلى مضارب القبائل الأخرى وتنتزعها عنوة وتكون حرب البسوس مثلًا، أو ما لا نزال نذكره من سِيَر الحروب القبائلية قبل الإسلام وحتى

إلى العهد القريب قبل أن ينفجر البترول وتنشأ الدولة السعودية الحديثة وحرسها الوطني الذي تولى إنهاء فترة الحروب بين القبائل للأبد.

أشار السائق الدليل إلى حجر من الإسمنت المسلح وقال: هذه علامة الحدود بين كينيا وتنزانيا. سألته: هل نستطيع أن نهبط، نظر إلى الأفق هنا وهناك، وتطلع من خلال فتحة السقف وبالذات حين تأكد أنه لا وجود لآثار عفاريته الخاصة، الجاموس البري، قال: ممكن، وهبطت، وتأملت الحجر الذي يحدد هنا تنزانيا، وهنا كينيا، فلم أجد شيئًا يميز بين الأرضين، إن هي إلا أرض الله واسعة، وحيواناتها طليقة حرة.

وخطر لي سؤال قلت له: أنت من الماساي؟

قال: نعم.

قلت: أي ماساي؟ كيني أم تنزاني؟

قال: كيني.

قلت: وهل من حق ماساي تنزانيا المجاورين أن يأتوا إلى كينيا ما دامت الأرض كلها مراعي الماساي؟

قال: نو، مستحيل، لا. (وأشار بسبابته إلى أسفل رأسه) سيجد الواحد منهم حربة مغروزة أسفل ذقنه هنا.

وأدركت في الحال مشكلة أفريقيا الحديثة.

لم تحدث معارك حقيقية بين المستعمرين الأوروبيين وبين أهل أفريقيا، إلا فيما ندر، وبالذات بين الإنجليز وبين مملكة يوجندا (أوغندا الآن) ذلك أن الأوروبيين منذ ماركو بولو جاءوا تحت ستار النزعة الدينية التبشيرية التي سادت شبه القارة الأيبيرية «إسبانيا والبرتغال» بالذات بعد سقوط الممالك الإسلامية في الأندلس، ارتفع المد المسيحي الإسباني والبرتغالي متجهًا إلى الشرق أقصاه وأدناه وإلى جزر الهند الغربية وإلى الأمريكيتين.

ولمدة تكاد تصل إلى ثلاثمائة سنة تنافس الإسبان والبرتغاليون ثم الفرنسيون والإنجليز والهولنديون والألمان والإيطاليون على احتلال أفريقيا، وكانت تنشأ بينهم منازعات، تتفاقم أحيانًا، وتخمد أحيانًا أخرى.

وكان الإنجليز أكثرهم ذكاء وسياسة في احتلال مصر والسودان وكينيا وإلى حدٍّ ما جنوب أفريقيا وغانا ونيجيريا وروديسيا وبلاد أخرى كثيرة، بل إن البريطانيين قد استعملوا اسم مصر والدولة العثمانية في إثبات أحقيتهم في احتلال بلاد وسط أفريقيا

تجنبًا للمواجهة المباشرة مع الفرنسيين في واقعة مشهورة في التاريخ، واحتلت البرتغال أنجولا وموزمبيق، واحتل الفرنسيون شمال أفريقيا والصومال الفرنسي «سابقًا» وغينيا وسيراليون وبلاد أخرى كثيرة.

واحتل الإسبان الريف المغربي، وبقيت ألمانيا وإيطاليا بغير قضمة واحدة تسمح بها فرنسا أو إنجلترا، ولكن الألمان تسللوا إلى تنجانيقا واحتلوها، وكان للعرب نصيب؛ فقد احتلوا جزيرة زنزبار وأصبح لها سلطان عظيم الشأن، أما الإيطاليون فقد أخذوا الأمر عنوة واقتدارًا وبأحلام إعادة الإمبراطورية الرومانية احتلوا ليبيا بوحشية منقطعة النظير، وبشراسة مقاومة رهيبة من الليبيين الذين كانوا اسمًا تحت الاحتلال العثماني، أما ونحن أطفال فكلنا لا نزال نذكر حرب «الحبشة وإيطاليا»، ذلك أن الحبشة كانت فيها دولة وكنيسة مستقلتان بقيادة «إمبراطور» وتبعية للكرازة المرقسية المصرية، ولذلك دارت حروب طاحنة حتى استطاعت إيطاليا أن تحتل الحبشة وجزءًا من الصومال سموه الصومال الإيطالي.

وهكذا استقام الأمر للاستعمار الأوروبي ووُزعت الأسلاب، وأُقيمت الحدود، وقد لفت نظري سفيرنا في أنجولا محمود عثمان وهو سفير مثقف، أو بالأصح مثقف سفير لا بد أن يفخر به أبناء وزارة الخارجية، لفت نظري إلى أن حدود البلاد الأفريقية الحديثة هي أغرب حدود، ذلك أنها في معظمها تكاد تكون مستقيمة، وهذا ليس شأن الحدود في أوروبا وآسيا، تلك التي وُضعت بناءً على حوائل جغرافية من جبال أو أنهار، أو حوائل لغوية وقبلية قديمة، ذلك لأنها — تلك الحدود الأفريقية — حدود مصنوعة، تقسيمة بالمسطرة والقلم صنعتها الدول الأوروبية فيما بين مناطق نفوذها.

مثل ذلك الحجر، علامة الحدود، الفاصلة بين كينيا وتنزانيا.

ذلك أن الوحدة السكانية والديموغرافية والإثنوجرافية والأفريقية الحقيقية هي القبيلة؛ فأرض أفريقيا كلها، ما عدا مناطق قليلة جدًّا، أرض متشابهة تنقسم إلى مراعٍ وغابات وصحارٍ، وللصحاري قبائل، وللمراعي قبائل، وللغابة سكانها وقبائلها، وهي ليست مجرد مراعٍ وصحارٍ وغابات، إن كل هذا يحتوي في بطنه على أعظم كنوز لأرض أفريقيا أغنى قارة في العالم في معادنها، فمن الماس في جنوب أفريقيا، إلى اليورانيوم إلى الذهب إلى النحاس إلى القصدير إلى الأحجار الكريمة لا تستطيع أن تحصي عدد المعادن التي تنتجها ويمكن أن تنتجها الأرض الأفريقية.

ويبدو أن نفس الشمس التي أحدثت بأشعتها فوق البنفسجية وتحت الحمراء ذلك الاختلاف في اللون عن الأجناس الشمالية الأوروبية والآسيوية أحدثت بحرارتها الشديدة،

وتسلطها معظم العام شبه عمودية، ووجود معظم المنطقة الاستوائية الأرضية في أفريقيا؛ إذ إن معظم خط الاستواء يمر بالمحيط الهادي والأطلنطي والهندي ولا ينصبُّ إلا على قليل جدًّا من أراضي أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا، يبدو أن هذا كله عمل عمله في بطن أرض القارة وأنتج كل تلك الكمية من الثروة الخفية.

وقد كان هذا هو المطمح الرئيسي لمعظم بلاد أوروبا التي سعت منذ زمن بعيد لاستعمار القارة، المهاجرون الأمريكيون والعرب المشارقة كان اهتمامهم الرئيسي منصبًّا على جلب القوة البشرية الأفريقية في مرحلة كانت البشرية فيها — أو كان الطمع — في حاجة إلى أيدٍ عاملة بكميات كبيرة لإقامة المشاريع الزراعية الضخمة في القارة الجديدة تلك التي أدت إلى قيام أخصب أرضٍ زراعية في العالم وجمعت ثروات هائلة كان من السهل بعدها أن تتحول أمريكا إلى الصناعة وتصبح أكبر الدول الصناعية.

بمعنًى آخر:

منذ القدم وأفريقيا مطمع، ومغنم، وإنسانها الطيب المسالم بطبعه لا يعرف خبث العالم ولا جشعه وحتى في أحيان كثيرة، لا يعرف للذهب أو الماس قيمة؛ إذ الذهب أو الماس لا تحتاجه إلا طبقات شبعت طعامًا وشرابًا وملابس وتريد أن تتزين. الزينة عند الإنسان الأفريقي زينة رائعة الجمال مأخوذة من المواد الرخيصة المتاحة؛ بحيث لا يمكن أن تبيع امرأة أفريقية نفسها، مثلما تفعل النساء في العالم الثاني، مقابل عقد ماس أو خاتم، وبحيث تضطر زوجها كان أم عشيقها أن يؤلف جيوشًا ويغزو بلادًا، ويستعمل السوط والبندقية لإخضاع شعوب سخية الإنسانية قليلة التوحش لاستخراج الماس والذهب لإهدائه لزوجته، أو في معظم الأحيان لعشيقاته.

إذن ما هو الشيء الثمين الذي كانت تتعامل به القبائل الأفريقية فيما بينها عوضًا عن الذهب والماس، وحتى إلى يومنا هذا، الدولار؟

مسالمة هي تلك العملة الأفريقية، ومفيدة تمامًا، ورائعة.

إنها البقرة في مناطق المراعي.

البقرة.

أكثر المخلوقات سلامًا وفائدة، تلك الكائنات المستأنسة الوسنانة الوديعة، الحلوب الولود، العاملة، الدائبة، التي هي الخير كل الخير في حياتها وهي الطعام وأعظم الشراب، حليبها، حتى قرونها وجلدها وأظلافها فيها نفع للناس.

وهي العملة والثروة والمهر والقيمة في مراعي أفريقيا.

رئيس القبيلة هو صاحب أكثر عدد من الأبقار، به يستطيع أن يتزوج، أو يُطلِّق أكبر عدد من النساء، والمسألة مسألة العلاقات والزواج، تمضي ببساطة وبلا غيرة ولا عنف ولا اغتصاب، ولا مؤامرات ولا عصبيات، إنما الأمر كالسلام المستتب في مملكة الحيوان، مستتب أيضًا في مملكة الإنسان، والجميع من الحيوانات التي تتغذى على اللحم، إلى الإنسان الذي يأكل اللحم والعشب معًا، يحلُّون للبقرة، القاسم المشترك لغذائهم، مكانًا فريدًا، بل ويرفعونها إلى رتبة عليا من مراتب الحرص والحب، إلى درجة أن في الأزمان البعيدة، عبدوها وقدسوها، كما لا يزال الأمر في مراعي الهند، قابلت مرة في دار السلام مثقفًا من مثقفي رعاة الماساي، خريج هارفارد الأمريكية، مضى يحدثني عن قبائل الماساي وعمرهم الطويل وحياتهم الصحية وأطفالهم الأشداء الخالين من كل الأمراض المعدية، وعلاقة الحب التي تربطهم بأبقارهم إلى درجة أن بقرة أحد الرعاة ماتت فمات بعدها بشهر حزنًا وكمدًا، وسألته عن حكاية شرب حليب البقرة مخلوطًا ببعض دمائها فقال لي: هذه تخاريف الأوروبيين عنا، نحن لا نجرؤ على جرح البقرة أو إسالة دمائها، نحن أكثر تحضرًا من فرسان الفايكنج الهمج السويديين والعسكريين البروس، وحتى من وزراء مجموعة السوق الأوروبية الذين شاهدتهم في التليفزيون في اجتماع هدفه إنقاص المحاصيل الزراعية للمنتجين المزارعين الأوروبيين، وتعويضهم عن عدم زراعة الأرض أو إنقاص محصولها بمليارات الدولارات، هؤلاء الناس الذين يرتدون نظارات طبية أنيقة ويجلسون في غرفات مكيفة الهواء، وحاصلون على أعلى الدرجات الجامعية من أرقى الجامعات مجرد قتلة وسفاكين ولصوص ومصاصي دماء؛ فالمجاعة تجتاح بعض أجزاء أفريقيا من الجفاف والتصحر وأنانيتهم البشعة تأبى إلا أن ينفقوا مليارات الدولارات لإنقاص محصولاتهم الزراعية ومنتجاتهم الحيوانية، أتعرف أن في ألمانيا وفرنسا ودول الشمال تِلالًا من الزبدة تُقدَّر بملايين الأطنان يكلف الاحتفاظ بها ملايين الملايين حتى يظل سعرها ثابتًا، لو كان لدى هؤلاء الناس ذرة من إنسانية أو انتماء للجنس البشري ألا يصدروها لبلاد نهبوا ثرواتها واستعبدوا إنسانها وامتصوا دماءه وعرقه؟!

كان هذا الحديث في ردهة الفندق المتواضع تمامًا «أحد أهم» فندقَين في عاصمة أفريقية كبرى، وكنت وأنا أسمعه لا أكاد أصدق أن هذا المتحدث من قبائل الماساي.

فلقد أخذني السائق الدليل، حين طلبت، إلى قرية من قرى الماساي، وهي ليست القرى السياحية التي نجحت بعض الحكومات الأفريقية في تجهيزها للسياح ليتفرجوا كيف يحيا الماساي، والمضحك أنهم يسمونها، «قرية الماساي الثقافية»، إنها قرية حقيقية لم يطلب مني أحد فيها ٢٠٠ شلن لآخذ له صورة كما هي الحال في القرى السياحية.

كانت القرية غريبة فعلًا، ولكنها ليست غريبة عليَّ كمصري، فللقرية سور من البوص إذا دخلت منه وجدت نفسك في «حوش» كبير جدًّا بنيت حوله مساكن الرعاة، هذا الحوش مستعمل كحظيرة للأبقار؛ بمعنى أنه لا يمكن الوصول للأبقار، الثروة والرأسمال وكل شيء إلا باختراق البيوت نفسها، والقرية كلها تحفل برائحة بقايا الأبقار، وهذا ليس غريبًا علينا في مصر؛ ففلاحونا المصريون لا يجعلون الحظائر «خارج» الدور ولكنها في الداخل، في أمتع مكان من بيت الفلاح.

أما أشكال الناس فعادة الماساي لكي يميزوا أنفسهم أن — منذ الصغر — يثقبوا الأذن ويعلقوا فيها شيئًا ثقيلًا يتولى توسيع الثقب إلى أسفل وأسفل، إلى حيث — أحيانًا — يصل إلى منتصف الرقبة، ويبدو أن هذا التقليد كان شائعًا بين الرجال والنساء على حد سواء إلى أن اختصت به المرأة وحدها وأصبح من مظاهر الأنوثة والجمال، أما ما عدا هذا من أقراط وعقود مصنوعة من خرز ملون بكثير من الألوان الباهرة التي تزخر بها أحجار أفريقيا ومعادنها، فلا شيء يختلف في قرية الماساي عن عزبة صغيرة مصرية أو سودانية، صعيدية أو بحراوية، وكثرة الأطفال واحدة، أطفال فعلًا أصحاء رغم الذباب الكثير، أطفال لا يطعَّمون ضد الدفتريا أو الجدري أو الحمى الصفراء ولا يمرضون بها أبدًا.

وهناك نظريات كثيرة حول هذه الظاهرة الطبية بعضها يقول إن روث البهائم والكم الهائل من الميكروبات ومزارعها فيها تتولى تحصين الأطفال منذ الصغر؛ فلا كحة ولا حصبة والغذاء الأعلى والأوحد اللبن الحليب يشربونه من آنية مخصوصة أصبحت صناعتها وإتقانها من الموروثات الشعبية.

وكم تشبهنا أفريقيا وكم نشبهها!

من الثالث إلى الأول يا قلب لا تحزن

فعلًا، تُقدِّرون فتضحك الأقدار، كان المفروض أن الرحلة القصيرة انتهت. ومراسم افتتاح معهد العالم العربي في باريس وما صاحبها من دعوات ولقاءات انتهت، وما هو إلا يوم واحد أقضيه في لندن لإنجاز بعض المهام وأكون بعدها في القاهرة إذا أراد الله.

ولكن المشيئة أرادت شيئًا آخر.

في الحقيقة إن الرحلة كلها كانت غريبة، وخلال إقامتي في ذلك الفندق الفاخر في باريس، مدعوًّا، كنت كالمنوَّم أو المسحور بهذا الجو الفرنسي الحضاري والثقافي الأنيق، كيف تزينت باريس لقرب مقدم الكريسماس، وكيف تنظف نفسها بأجهزة أوتوماتيكية معقدة لإزالة بقايا الكلاب المدللة طوال النهار؟

معهد للعالم العربي أقامته — مفروضًا مناصفة — حكومة فرنسا بالاتفاق مع اثنتين وعشرين دولة عربية باستثناء دولة عربية واحدة فقط هي مصر المحروسة، ذلك أنه أُنشئ وأُقيم في ظل مقاطعة الجامعة العربية لمصر سياسيًّا وثقافيًّا وحكوميًّا وشعبيًّا، تبرعت فرنسا بمساحة كبيرة جدًّا من أجمل بقاع باريس على ضفاف نهر السين، وقام مهندس فرنسي عبقري بتصميم المبنى بحيث نال على هذا التصميم جائزة أحسن عمل هندسي في فرنسا، والمبنى مزود بمسرح ومتحف ومكتبة وقاعات دراسية واجتماعات وهدفه دعم التبادل الثقافي بين فرنسا والثقافة العربية.

وقد دُعيت إلى هذا المعهد من قبل حين قام باحتفال لتكريم الكُتاب العرب الذين تُرجِمت أعمالهم إلى اللغة الفرنسية، كان ذلك في العام الماضي، وتصادف أن كان الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة في ذلك الحين في باريس ليحضر افتتاح معرض أشغال الذهب الذي افتتحته السيدة سوزان مبارك وألهب عقول الباريسيات والباريسيين لفرط رهافة الصناعة الذهبية في ذلك الماضي السحيق أيام الفراعنة، ومن المؤسف أني وأنا هناك قرأت

تعليقًا لكاتب من مصر يقول عن المعرض إنه ذهب اليهود ذلك الذي عُثر عليه في صان الحجر. المهم، حين استفسرت عن تفاصيل حفلة التكريم قيل لي إنه سيكون في قاعة مكتبة؛ سيكون في قاعة المكتبة الوطنية في باريس حيث تتم أرقى التجمعات الثقافية وقيل لي أيضًا إنه مدعو لحضوره وزارة الثقافة، في الدول التي يُكرَّم كُتابها وسفراؤها، فسألت هل وجِّهت دعوة للدكتور أحمد هيكل باعتباره مصريًّا وهو وزير الثقافة المصري، قالوا: أنت تعرف الوضع، هذه مؤسسة أُقيمت وأُنشئت بقرار من الجامعة العربية التي قاطعت مصر، ولكن موقفنا نحن منك ومن أعمالك شيء آخر. وضايقني هذا تمامًا، إني أتصور أن تُقاطع مصر سياسيًّا فعلًا أو اقتصاديًّا، أما المقاطعة الثقافية فذلك عمل من أعمال المراهقة؛ فمصر هي معظم الثقافة العربية، وفي جامعاتها وعلى أيدي أساتذتها تخرج معظم الكُتاب والمثقفين العرب، فكيف تُقاطَع ثقافيًّا؟ وقلت أنا لن أحضر هذا الحفل إلا إذا دُعي الدكتور هيكل دعوة رسمية وكذلك سفيرنا في فرنسا، ومستشارنا الثقافي أيضًا، واستغربت أنهم بادروا بدعوة الوزير والسفير والمستشار وحضروا حفل التكريم.

وهذا الذي حدث أرويه للدلالة على سخافة فكرة أن تُقاطِع مصرَ البلادُ العربية ثقافيًّا أو حتى اقتصاديًّا، أو أن تُقاطع البلاد العربية مصر في هذين المجالين بالذات فأنا أعتقد أننا كعرب كالجسم الواحد غير قابل أن تقاطع أعضاؤه بعضها حتى لو أرادت، وقد كلفتنا المقاطعة الثقافية كعرب الكثير، وكلفتنا نحن ككُتاب ومثقفين الكثير، فصحيح أن الكاتب قد يكون مصريًّا ولا يُعامَل بنفس المقاييس التي تُعامَل بها حكومته، وحتى بافتراض أن حكومته أو دولته مخطئة في موقفها السياسي فإننا نصاب بغاية الحرج في بعض الأحيان، وأذكر واقعة مماثلة حدثت في نيويورك حيث كنا مدعوِّين في مؤتمر للكُتاب الأمريكيين وأعضاء نادي القلم الدولي برئاسة آرثر ميلر، وجاءني المرحوم لقون كشيشيان مراسل الأهرام في أمريكا من قبل أن أُولد وقال لي إن السفراء العرب للأمم المتحدة سيُقيمون حفلة غداء لي سيحضرها ١٧سفيرًا، قلت له: ومعهم الدكتور عصمت عبد المجيد سفيرنا في الأمم المتحدة في ذلك الوقت؟ فقال: بالطبع أنت تعرف قرار المقاطعة وهو غير مدعو وهذا شيء طبيعي.

ووقعت في حرج؛ هؤلاء أناس يريدون أن يكرموا كاتبًا مصريًّا باعتباره كاتبًا عربيًّا أيضًا فهل أرفض دعوتهم وأقوم أنا الآخر بنفس المقاطعة الثقافية التي أستسخفها؟ وهكذا حملت المشكلة للدكتور عصمت عبد المجيد باعتبار أن الإنسان منا في الخارج مهما كان رأيه في دولته تلك فعليه: لا يأخذ مواقف ضدها خارج بلاده إلا إذا شاء أن يتمرد ويبقى

في الخارج ويسقط النظام من الخارج أيضًا، وهو الشيء الذي لم يحدث أبدًا طوال مجرى التاريخ.

إن كفاح المواطن الحقيقي لتغيير الأوضاع في بلاده لا يمكن إلا أن يكون من داخل الوطن، مهما تعرَّض له الإنسان من سجن أو تشريد فهو الكفاح الوحيد الذي قد يثمر، وهو أيضًا الحق الشرعي للمواطن؛ فالرأي الذي لا أستطيع أن أقوله داخل بلادي وبملء فمي ومهما كانت النتائج، من العار أن يقوله الإنسان خارجها؟ يقوله لمن؟ لأناس هم ليسوا بالتأكيد أصحاب الأمر، وهم في أحسن الأحوال متفرجون أو متعاطفون، إنما الأكيد أنهم ليسوا أصحاب القضية أبدًا.

المهم، شرحت الموقف للدكتور عصمت عبد المجيد، وكان الرئيس السادات في قمة سِبابه للدول العربية، والدول العربية في قمة عدائها لحكم السادات.

والحقيقة استغربت تمامًا لحكمة الدكتور عصمت عبد المجيد في معالجة الموقف؛ فلقد وجدت أنه سعيد تمامًا بالخبر، وسعيد أن سبع عشرة دولة عربية تقاطع مصر تقيم حفل غداء لكاتب مهما كان عربيًّا فهو مصري أيضًا، وقال لي: اذهب أرجوك فمن المؤلم تمامًا أن تتقطع بيننا وبين الدول العربية كل الروابط. قلت له: إني لا أخاف الذهاب، ولكن ما أخافه هو خطابات ما بعد الغداء؛ فأنا أكاد أن أرى مقدمًا أنها كلها ستنصب هجومًا على الرئيس السادات وسياسته، وأنا أعترض وغير متفق أبدًا مع سياسة الرئيس في معظم توجهاته ولكني لا أستطيع أن أتصور أحدًا يلعن رئيس بلادي أمامي أو يتهمه بالخيانة، إن الشعب المصري داخل مصر هو وحده الذي يملك هذا الحق.

قال: في هذه الحالة أترك لك أن تتصرف كما ترى.

وكان موقفًا دقيقًا فعلًا، وأصررت أن أصطحب معي ممثلًا للسفارة أظنه كان المستشار محمود كارم محمود ابن الفنان الكبير كارم محمود، أو لعل الذاكرة خانتني وكان مستشارًا آخر.

ويا للمفاجأة التي كانت تنتظرني في الغداء.

فبعد نهاية الطعام، وقبل تقديم «الحلو» بدأ الحديث ممثل الجامعة العربية ثم أعقبه بقية السفراء، وقالوا كلامًا جميلًا عن شخصي المتواضع، وفي كل لحظة أتوقع أن يبدأ الهجوم على السادات، ولكن المضحك أنه لم يحدث عليه أي هجوم، وإنما مضى كل سفير ينعى حرية الرأي المفتقدة في العالم العربي وحتى في بلاده، وبعضهم أشفقت عليه تمامًا فقد كانوا يمثلون أنظمة لا ترحم، ولكني وجدت الغداء يتحول إلى ندوة مثقفين عرب

ينعون على عالمنا العربي جهل معظم حكامه ومعاداتهم للفكر والثقافة وحرية الرأي والأقلام.

كلنا في الهم شرق.

وتناولنا «الحلو».

نعود إلى حفل افتتاح معهد العالم العربي الذي عهد المعهد بتكاليف افتتاحه إلى صاحب شركة صخر للكمبيوتر وهو الصديق، أغرب عربي قابلته في حياتي، محمد الشارخ، هو رجل غني كمعظم الكويتيين ولكنه مجنون بالتقدم والتحضر كلورد سنكير الذي صنع أول كمبيوتر منزلي وخسر فيه الجلد والسقط، ومثل زميلنا الكبير السابق في الأهرام المهندس محمد نصير رائد الكمبيوتر في مصر ولكن عبقرية محمد الشارخ أنه «عرَّب» الكمبيوتر من ألفه إلى يائه بحيث جعله يتكلم ويكتب ويفكر بـ «العربي» وصرف على هذه البروجرامات الكمبيوترية أكثر من مليون دولار، وساعده في هذا مهندس كمبيوتر طيران مصري عبقري هو الآخر مع الدكتور أسامة الخولي عالم اللغة العربية، وفي حفل افتتاح المعهد دلفت إلى صالة صخر، وتفرجت على شيء يشبه المعجزة، فالقرآن الكريم مثلًا موجود كله، ليس هذا فقط بل هو مبرمج بحيث يعطيك كل الآيات التي فيها عن الوالدين مثلًا، أو ذكر لكلمة فرعون، أو يهود، أو الآيات الخاصة بالعلاقة بين المسلم والمسلمة، فبضغطة زرار تجد هذا كله سطورًا أمامك.

في برنامج آخر للشعر العربي، تلقم الكمبيوتر البيت فيكتب لك: هذا من بحر كذا ووزنه كذا كذا، تلقمه بيتًا مكسورًا فيشير لك إلى الكلمة الزائدة أو الناقصة أو غير المناسبة والتي كسرت البيت.

ولقد جلست ساعة أستمع إلى إمكانيات هذا الكمبيوتر العربي في تطوير التعليم واختزاله، وتخزين المعلومات، والحق أن ما أعجبني ليس هو نجاح محمد الشارخ في هذا المشروع التعليمي الخطير، ولكن ما أعجبني حقًّا أنه مشروع لم تقم به أي حكومة عربية أو حتى أي مؤسسة تعليمية، ولكن قام به فرد عرف كيف «يفكر» له، وبمن يستعين، ثم أنشأ شركة يابانية الاسم عربية رأس المال اسمها الشركة العالمية لتصنيع هذا الكمبيوتر.

لو فعل واحد في المائة من أغنيائنا وأغنياء العرب ما فعله هذا الرجل لانقلب بكاؤنا في تخلفنا وعلى خيبتنا إلى فخر بنهضتنا وطفرتنا، ولكن للأسف أغلب أثريائنا إما لاهون في متع الدنيا بعد أن اطمئنوا على ودائعهم في البنوك، أو يفكرون في التهرب من الضرائب

أو شراء هاردوز، ما أخيبه من هدف تغتني به دولة غنية، ونفتقر به نحن الفقراء أصلًا، قليلون هم الأثرياء الذين لديهم بقية من عقل أو إدراك يعون به أن لا يدعوا المال يمتلكهم، وإنما هم مالكو المال، وأنه مسئولية وأنه إذا لم يُستعمل لخير الناس فهو حرام وهم مجرمون، إنهم كالذي يُؤتى موهبة من عند الله فيستغلها في الشر وفي الإضرار مع أن الله يمنح المواهب لتستعمل لإسعاد الناس ودفعهم إلى الأرفع والأنفع.

فوجئت أن الافتتاح افتتاحان واحد سيقوم به الرئيس ميتران، والآخر سيقوم به شيراك رئيس الوزراء، واحد تفتتحه الدولة والثاني تفتتحه الحكومة، أناس دعتهم الدولة عن طريق شركة صخر، والآخرون دعتهم الحكومة الفرنسية عن طريق آير فرانس وهذا هو مجرد مَثل واحد من أمثلة السباق الانتخابي على الرئاسة بين فرانسوا ميتران وجاك شيراك، إذا ظهر هذا في التلفزيون كان على الآخر أن يختلق مناسبة ليظهر فيها، إذا خطب هذا خطب ذاك، والاثنان: الحكومة والدولة في حالة لا أعتقد أن الديمقراطية الفرنسية قد شهدتها أبدًا.

كنت قبل الذهاب إلى باريس بأسبوع واحد قد عدت من رحلتي إلى أفريقيا، أي فجأة وجدت نفسي أنتقل من قِبل العالم الثالث أو ربما الخامس إلى قلب العالم الأول، بعد الغابة والخشونة والناس المسالمين البسطاء الطيبين في قلب أفريقيا، ها أنا ذا أتحرك في قلب باريس محاطًا بمخمل ناعم ينفث عطرًا وبرفانات، ونباتات الغابة بكل عنفوانها العشوائي قد استؤنست ووضعت في الغرف، وحتى داخل الحمامات، نباتات دقيقة الأوراق محدِّقة كالكلاب الكانيش الصغيرة التي يقود شعرها عند الكوافير، وعليك في النهاية أن تدفع أنت كل ثمن هذه الأناقة والجمال. عزمت أحد أصدقائي على الغداء في مطعم متوسط فدفعت ألف فرنك حوالي ٢٠٠ دولار أي ما يوازي ٤٥٠ جنيهًا مصريًّا ثمنًا للوجبتين، نذهب نحن إلى العالم الأول بمهايا وأسعار العالم الثالث فندفع ضريبة التقدم من حُر عرقنا ودمائنا.

طبعًا الفارق هائل بين دار السلام أو ممباسا أو مقديشيو وبين باريس، ولكن صدقوني إن الناس في قلب أفريقيا أكثر طيبة ونقاء، وجهنم قد تكون موجودة في الجو ولكن جهنم الحقيقية هي في الأسعار هناك.

وانقضى الأسبوع وكان عليَّ أن أمر على لندن لمدة ٢٤ ساعة.

ولكن شاء القدر أن أبقى أسبوعين.

لست أدري لماذا.

ولكن يخيَّل إليَّ أن تغييرًا كبيرًا قد حدث في العالم كله بحيث تسلل نوع من الغوغائية الحديثة إلى كافة أنحاء المعمورة، لندن مثلًا في الستينيات وأوائل السبعينيات غيرها الآن تمامًا، في حجرة سواء أكانت حجرة فندق أو حجرة مستشفى فقد كانت أعراض هذا التغير واضحة في برامج التليفزيون، والتليفزيون البريطاني سواء بي بي سي أو القناة التجارية تليفزيون محترم تمامًا يقدم الإمتاع والثقافة والمعلومات والمناقشات الحرة، وتحس أنك لا تستطيع أن تترك متابعة أي قناة فيه إلا لضرورة قصوى. ظللت أسبوعًا بأكمله حائرًا بين قنواته الأربع أبحث عن برنامج يليق بعقل إنسان ناضج فإذا كلها تقريبًا برامج لا تستحق أن يشاهدها إلا الأطفال أو الطلبة، كلها برامج مضحكة أو تستضيف أناسًا يضحكونك أو تضحك عليهم، والإنجليز قوم يحبون الضحك والتمثيل مثلنا نحن المصريين، بالسليقة، أذكر أن الأستاذ «ديري» أستاذ علم التشريح في كلية الطب وكان يناهز السبعين من عمره وهو الذي كشف على جثة توت عنخ آمون حين اكتشفها زميله البريطاني كان رجلًا مضحكًا؛ فقد كان فرَّاش المدرج يحمل الأذرع والسيقان والهيكل العظمي إلى المدرج ونعتقد أن «ديري» هذه المرة سيعطينا محاضرة حقيقية عن التشريح، وإذا به كالعادة يقضي ثلاثة أرباع المحاضرة في تقليد القردة والشمبانزي العليا، وفي رواية طرائف عن نظرية داروين في الأنواع، وقصص من حياته في أفريقيا وفي الأدغال، أما التشريح فيقول لنا ببساطة إنه في الكتب وفي المشرحة اذهبوا شرِّحوا الجسد البشري واحفظوا علاقات العضلات والأوعية والعظام والأعصاب وتصوروها فأنا في محاضراتي لا أستطيع أن ألقنكم هذا.

وكنت أتصور أن الأستاذ «ديري» وحيد نوعه، ولكني اكتشفت أنها الطبيعة الإنجليزية؛ فهؤلاء أناس يبدون وكأنهم لا يريدون أن يفعلوا شيئًا في الحياة إلا أن يضحكوا ويضحكوا.

وهكذا كثرت برامج الهلس في القنوات الأربع.

بل والأدهى أنها أصبحت، وبالذات القناة الرابعة، قناة موجهة بخبث ضد العرب والمسلمين بالذات، وكأن العقول التي تدبِّر هذا تريد أن تجعل التمييز العنصري ضد اليهود الذي ساد في فترة ما ينقلب إلى تمييز عنصري ضد المسلمين وضد العرب منهم بالذات، والإنسان يسمع عن منظمات اسمها المؤتمر الإسلامي، ومؤتمر القمة الإسلامي، وعن الجامعة العربية ونقود البترول، ونفوذ العرب الاقتصادي، ويرى أن السر الحقيقي في ازدهار الاقتصاد الإنجليزي مرجعه إلى النقود العربية البترولية بالذات، ومع هذا فلا أثر لهذا كله أمام الدعاية المضادة للعرب وللمسلمين كجنس بشري وليس فقط كديانة، أو كبشر يأخذون منا النقود يديرونها هم لحساب إدانتنا كعرب ومسلمين، والمضحك أنهم

يفعلون هذا بمادة عربية خام، باستنطاق العرب والمسلمين من خلال وجهة نظر خبيثة حتى لا يقول أحد إنهم يدَّعون علينا شيئًا.

إنها حملة عنصرية أعتقد أن مؤتمرًا قد أقيم في لندن لدراستها والتصدي لها، ولكن شيئًا حقيقيًّا للآن لم يحدث.

وقد آن أن يحدث.

كان الشيء الوحيد الصادق الذي أنفعل له على شاشات التليفزيون هو عرض الأخبار للمظاهرات الفلسطينية في الأرض المحتلة؛ ربما لأنها فاجأت العالم كله حتى الفلسطينيين في الخارج فهي غضبة شعبية تلقائية، وقد قلت مرة أن الشعوب في صبرها كالجِمال، تصبر وتصبر وتظن أنها ساكنة وراضية ولكنها فجأة كما يغضب الجمل ويعقر عقرة الموت من يحيطونه، تفعل.

إنها مثل غضبتنا هنا في مصر عام ٤٦ للاحتلال البريطاني، ومثل غضبة الجزائر للاحتلال الفرنسي، غضبة ضد محتل غاصب حتى لو كان يحكمه ويسانده أذكى الأذكياء وأقوى الأقوياء.

والكارثة أن المحتل دائمًا يتصرف نفس التصرف الغبي الذي كان يتصرفه المحتلون في كل تاريخهم، يحاولون إخماد الغضبة بالقوة القاهرة، والنتيجة، الثورة التي لا تُبقي ولا تذر.

ليس هناك ذكاء أمريكي أو إسرائيلي أو إنجليزي أو فرنسي أو رومي في مواجهة الشعوب؛ فهي كالقوى الكونية، أبدًا لا يخمدها أي عقل بشري مهما أُوتي من ذكاء، لا يخمدها إلا الرضوخ لها، وهو آخر ما يفكر فيه أي محتل منذ عهد الهكسوس إلى عهد إسرائيل.

– شكرًا يا فضيلة الشيخ.

– الأخ الدكتور يوسف إدريس.

– نعم.

– فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي يريد أن يحادثك.

– أهلًا وسهلًا.

قلتها غير مصدق.

كنت وحدي في غرفة المستشفى بعد أن كنت قد قلت للأصدقاء جميعًا أنني مسافر غدًا، ولهذا كان زائري الوحيد هو الزميل والصديق العزيز محمد الحناوي مدير مكتب

الأهرام الدولي في لندن، وكان هو أيضًا حلقة الاتصال بيني وبين الأستاذ إبراهيم نافع رئيس التحرير الذي أحسست أنه يقاسمني المحنة، وفوجئت أن محمد الحناوي هو نفسه أحد أبطال انتخابات معركة النقابة التي خضتها مجردًا من أي سلاح ضد العزيز والصديق المرحوم يوسف السباعي، ووقتها كان مرشح الدولة ورئيس تحرير الأهرام ورئيس التضامن الأسيوي الأفريقي ورئيس اتحاد الكتاب، وضقت ذرعًا أن يُضاف إلى هذه الصفات نقيب الصحفيين أيضًا فتوكلت على الله ورشَّحت نفسي نقيبًا.

ولم أكن أتصور أنني سأخوض معركة ضد النظام كله وليس أبدًا ضد يوسف السباعي بمفرده، ويبدو أن هذا الموقف مني قد حشد كل الطاقات الشجاعة في الصحفيين وما أكثرها، حتى إنني كنت فعلًا لولا خذلان من أصدقائي للأسف أن أنجح، وكان محمد الحناوي أيامها يعمل في وكالة أنباء الشرق الأوسط وكان مع الدكتورة سهام هاشم من أشد المتحمسين لانتخابي ونالا أذًى كثيرًا بسبب هذا الموقف. المهم، ذكر لي محمد الحناوي في إحدى زياراته أنه كان مدعوًّا على العشاء مع الكاتب الظاهرة محمود السعدني عند فضيلة الشعراوي، وهكذا عرفت أن فضيلته كان يُعالج بمستشفى ولنجتون وأنه غادره موفور الصحة، فطلبت منه أن يبلغ فضيلته أعمق تحياتي وتمنياتي بتمام الشفاء، وإذا بالرجل هو الأكثر كرمًا والسابق إلى عمل الخير والمعروف.

وفي الثواني الأولى لم يَدُر حوار مطلقًا إن هي إلا كلمات من عندي أتمتم بها شاكرًا محييًا، وببيت شعر من عنده يبدو أنه من أصعب أبيات الشعر إذ لم أستطع أن أدرك منه إلا ما يفهم من المثل الشعبي ما مودة إلا بعد انقطاع، أو لا قدر الله خصام.

إن رجلًا فيه خير كثير مثل فضيلة الشيخ الشعراوي أحبَّه الخَلق لأنه يحب الخَلق ويريد أن يفيض عليهم بما عنده، رجل كهذا ممكن أن يختلف الإنسان معه في الرأي فالرأي اجتهاد وكل منا عليه أن يجتهد فيصيب فيكون له أجران، أو يخطئ بأجر وشتان ما بين الاجتهادَين؛ فموضوع اجتهاد أي عالم ديني أو داعية كبير هو الدين وهذا ما لا يمكنني ولا أستطيع أن أجتهد فيه إلا بمقدار ما عند المؤمن المتعلم من أدوات الاجتهاد، أما اجتهادنا نحن الكُتاب فهو اجتهاد في مجال حياتنا للدنيا هذه وكيف نعيشها ونسمو بها في حدود الإمكانيات العقلية والبشرية والتي نملكها والتي أمرنا الله سبحانه وتعالى باستغلالها إلى أقصى قدر وطاقة.

في أحيان قليلة جدًّا يحدث التشابك والتضاد.

وضميري كمسلم يملي عليَّ أن أقول ما عندي حتى في آراء علماء كبار كالشيخ الشعراوي. وقد يُغضب هذا بعض مُحبِّيه ومُريديه الذين يريدون رفعه إلى درجات عليا

من التقديس بحيث يضعونه فوق البشر، وهذا ما لا أعتقد أن فضيلة الشيخ يريده أو يستريح له أبدًا، إن رفع أي إنسان إلى درجة التقديس واللامناقشة هو شرك بالله معاذ الله أن يأخذ به أي مسلم، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ...﴾ صدق الله العظيم. النبي بشر والشيخ شعراوي بشر وشخصي الضعيف مثل شخصك بشر. هكذا علمنا الإسلام.

وبعد أن أجزلت كل الشكر والامتنان لفضيلة الشيخ بادرني ببيت شعر آخر لا أذكره وإنما أعي منه ما معناه أن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، وهكذا الرجل في بساطته وتواضعه أطلب منه أن يدعو لي بالشفاء، وهو يطلب من ضيوفه أن يدعو له وأنه في حاجة لدعاء الآخرين. نعم لأنه عالم، ولأنه عارف يدرك أن مثله مثل البشر في حاجة لدعاء الآخرين، فليست المشكلة أبدًا في فضيلة الشيخ، المشكلة الدائمة أبدًا هي في بعض مريديه والمستفيدين منه والمستغلين لاسمه ومحبة الناس له.

سامحهم الله وعفا الله عنهم جميعًا.

وشكرًا لمكالمتك وسؤالك يا مولانا.

فقد كنت سبَّاقًا إلى الخير والمعروف.

كل سنة وأنتم واعون

هذه أول كلمة أخطها في العام الجديد، وأنا سعيد أني قادر هذه المرة على الكتابة في نفس أسبوع بداية العام؛ فقد درجت خلال أكثر من عشرة أعوام سابقة، على وجه الدقة منذ أواسط السبعينيات على أن يبدأ مزاجي العام في الانخفاض ابتداءً من منتصف الشهر الثاني عشر في العام، وليس انخفاضًا متدرجًا معقولًا، إنما، من قمة الصحة والطبيعة أجد نفسي فجأة بدأت أكتئب، وفي اليوم التالي مباشرة يزداد اكتئابي إلى درجة تغلق نفسي عن أي رغبة سواء في العمل أو الحركة أو حتى الطعام، وهكذا يتسلسل الانخفاض منحدرًا انحدارًا حادًّا كأنه السقوط من أعلى حائط إلى أن ينتابني مرض جسدي حقيقي ما، يأخذ كل عام شكلًا، مرة آلام لا تُطاق في المفاصل أو صداع لا قِبل لي به، حُمَّى، أنفلونزا غير معروفة لجنس البشر، كسر، أو حتى حادث سيارة أو مرور.

وقد كنت آخذ هذه الظواهر على محمل عادي تمامًا، كأن لا علاقة لأي مرض بالآخر، وكأن لا علاقة لما يحدث في نهاية ذلك العام بالعام الذي قبله أو العام الذي سيجيء بعده. إلى أن بدأ التكرار ينبِّهني إلى أن المسألة ليست عشوائية بالمرة، وأنني نفسيًّا، ومن ثم، جسديًّا، أمرض في نفس الموعد تقريبًا من اقتراب نهاية العام أو اقتراب بداية العام القادم، وقد حدث هذا حين اكتشفت أنني لثلاث سنوات على التوالي أقضي ليلة رأس السنة الميلادية في أحد المستشفيات، أو على الأقل راقدًا في فراشي، ويأتي الأطباء، ويشخِّصون، ويحتارون في التشخيص، بل ويصل تشخيصهم في أحيان إلى أمراض خطيرة جدًّا، ثم ... ثم لدهشتي ودهشتهم ما يكاد ينقضي الأسبوع الأول من العام الجديد، حتى أكون سليمًا معافًى وكأني ما مرضت قط، وكأن ثمة ساعة كونية مركبة داخلي، تحسب، بالثانية والدقيقة، الأيام والليالي على مدار العام، ويدق لها منبه خفي ما خلال النصف الثاني من كانون الأول

(ديسمبر) وتبدأ العمليات الاكتئابية والنفسية تتداعى، على تلك الصورة الدرامية التي وصفتها.

والغريب أنني شفيت أو بالأدق، كدت أشفى من تلك الحالة، حتى بدأت أدركها وأعي بها، وما إن يبدأ الشهر الأخير من كل عام حتى أبدأ أحذر نفسي ذاتيًّا وأقول: لقد حل موعد الاكتئاب والمرض، فاحترس. وما إن تبدأ بعض الأعراض تتبدَّى، حتى أقول لنفسي: اكتشف وتذكر، ما حدث في العام الماضي، وحذِّر جسدك من منبه عادة الاكتئاب والمرض، وقل لأي عَرَض قادم تحسه: أنا متنبه تمامًا لك، ولن أجعلك تمرضني هذه المرة. واستمر هذا الانتباه والكشف بضع سنوات، حتى أصبحت عادة عندي أن أنتبه إلى حلول انتهاء العام وأتخذ العدة له، وألبس وأرتدي ما كنت أسمِّيه «بدلة الفضاء» الدفاعية التي يرتديها رواد الفضاء، اتقاء لانعدام الأكسجين، وكل مخاطر الرحلة.

وشيئًا فشيئًا بدأت الأعراض تخف، بل السنتين الأخيرتين بدأت لا أكتئب أبدًا، وبالتالي لا أمرض.

وكان هذا خطأ.

إذ كنت، بمضي العامين اللذين لم تزرني فيهما الأعراض، قد نسيت عادة «مرض آخر العام وأول العام»، ولم أذكر هذا كله مروعًا، إلا هذا العام فقط، حين وجدت فجأة أعراضًا غريبة شديدة الألم تهاجمني، وبعد أن تهت كثيرًا تبينت أننا في الأسبوع الأخير من ديسمبر، وإذا كنت أنا قد نسيت، فإن ساعة العادة الكونية المركَّبة داخل كل إنسان، لم تنسَ، وإنها باستمرار تدق وتمضي وتعمل، وفي الموعد تمامًا تحرك آلة المرض الرهيبة.

وأذكر أني ذات عام، وكنت في الولايات المتحدة أحضر مؤتمرًا مشتركًا لعلماء النفس والاجتماع والكُتاب، قد ذكرت هذا الذي يحدث لي لأحد الكُتاب الأطباء الكبار، فإذا به، لدهشتي، لم يدهش، وإذا به يخبرني أن جهاز المقاومة في الجسم خاضع للمراكز النفسية في المخ، وبالتالي خاضع لكل ما يؤثر في الحالة النفسية للإنسان، وهذا الخضوع يبلغ من الدقة حد أن يرتبط هذا التأثير بالتوقيت الكوني، وبعدد السنين والأيام وربما الساعات، وأن الوسيلة الوحيدة للشفاء من هذا الاكتئاب النفسي الجسدي العضوي هو الوعي به قبل حدوثه واتخاذ الإجراءات الإرادية التنويرية لتنبيه العقل الواعي لقرب حدوثه، وأنه بالتكرار، سيغير هذا التنبيه من عادة العقل الباطن، ويخففها كثيرًا، بل إنه في أحيان يمنعها، ولقد هاجمتني نوبة الآلام النقرسية الحادة في ركبتي هذه المرة، لأني، بعقلي الواعي، نسيت أو غفلت عن هذا التنبيه، وهكذا قضيت ليلة رأس السنة في آلام لا تطاق، أذنِّب نفسي على غفلتي وعلى عدم انتباهي لقرب نهاية العام.

ولا أعتقد أنني وحدي الذي حدث ويحدث له هذا، فكثير جدًّا من الناس الذين أعرفهم يحدث لهم هذا النوع من الاكتئاب السنوي الرهيب، ويؤدي في أحيان كثيرة إلى أعراض مرضية عضوية، يشفون منها إذا لم يحدث لا قدر الله وكانت الأعراض والأمراض من الخطورة بحيث تؤدي إلى الوفاة، يشفون منها بمجرد مرور الفترة الزمنية المحددة لنهاية وبداية العام.

أما السبب ففي اعتقادي أنها عادة نفسية مرضية تتربَّى لدى الإنسان، كلما حلَّ أو اقترب حلول عام جديد، من الخوف من ذلك القادم الجديد وما قد يحدث فيه، الخوف من المستقبل؛ ذلك المرض العضال الذي أصبح مرض البشرية كلها الآن، فليس الخوف من الحاضر هو فقط الذي يقلقنا، ولكن الأخطر، هو الخوف من وعلى المستقبل وما قد يحدث فيه، ذلك الذي يسبب القلق والتوتر والاكتئاب، ومن ثَم يؤدي إلى الأعراض الجسدية والأمراض التي نسميها أمراضًا، وهي ليست في الحقيقة كذلك، وفي نفس الوقت ليست نفسية أو كاذبة أو عصبية ولكنها أمراض حقيقية؛ إذ قد ثبت أن كل الأمراض أو على الأقل ٩٩٪ منها سببه نفسي وسببه القلق على الذات أو النفس أو الأولاد أو المال أو حتى الخوف من المرض أو الموت.

ذهب العام إذن وجاء العام، وهذه المرة أقولها علميًّا، كل عام وأنتم طيبون، أو على وجه أصح كل عام وقد وعيتم بالاكتئابات التي تصيبكم في نهاية وبداية كل عام.

إذ تلك هي الطريقة الوحيدة لكي نستبعد الحزن والقلق، ونستبدلهما بالفرحة والتفاؤل والسعادة.

الهلس السينمائي لم يعد يُجدي

العائد إلى القاهرة بعد غيبة ولو قصيرة لا بد أن يفاجأ بشيء لا يمكن أن تراه في أي عاصمة في العالم، المشهد هو هذا الكم الكبير من الإعلانات عن المسرحيات والأفلام والمطربين والمطربات والراقصات وأماكن وكازينوهات اللهو، في الخارج تجد إعلانات أيضًا عن الأفلام والمسرحيات، ولكنها جزء ضئيل جدًّا من إعلانات عن الشركات والمؤسسات الكبرى والبضائع التي تنتجها تلك الدولة.

وإذا أخذنا الإعلانات كمقياس لنوع الإنتاج، فمعنى هذا أن أهم إنتاجنا في هذه الفترة هو اللهو، ولهذا أنا أضحك في سري حين أقرأ عنوان الصفحة الثانية في الأهرام وهو «بعيدًا عن العمل» وكأننا فعلًا منهكون إلى درجة قطع النفس في العمل.

والكلام الكثير الذي دار ويدور في صحفنا حول أزمة السينما إنما يعبر عما يجيش في نفوسنا جميعًا تجاه هذا الفن المفترى عليه في بلادنا وهو فن السينما، وإذا كان دور المسرح قادمًا بالضرورة فلنقصر كلامنا الآن على السينما.

صناعة أو تجارة أو هنكرة، هذه ليست المشكلة، تشغيل استوديوهات وعمال ونجوم، أيضًا ليست هذه مشكلتكم أو مشكلتي؛ فنحن إذا اكتشفنا فجأة أن أحد مصانع معلباتنا ينتج وعن عَمْد أغذية مسمومة، فلا يمكن أن نظل ننتج لأن علينا أن نشغل المصانع وأن تروج الصناعة، وكما نحن لدينا هيئة عليا لمراجعة ومراقبة تركيب الدواء نفس الذي تنتجه مصانعنا، فمن باب أولى أن تفحص ما قد أصبح أهم في رأيي من مشكلة الدواء والأغذية المحفوظة، مشكلة الغذاء الروحي والثقافي، أو ما أسميه بالغذاء الأمني الذي يشكِّل ضمير الإنسان وقِيمه ومُثله وبالتالي قيمته في الحياة.

لقد أتيح لي أن أشاهد في الأسابيع الأخيرة بضعة أفلام مصرية لا أحب أن أذكر اسمها، وعقب كل فيلم كنت أراه كنت أعود إلى البيت وأتأمل ما رأيت، كل فيلم فيه قصة وعقدة

ومشكلة هذا صحيح، كل فيلم يحاول أن يقول شيئًا هذا صحيح، ولكن مشكلة أفلامنا لم تعد هي: ما قصتها؟ أو من كاتبها؟ أو ماذا تعالج؟ المشكلة الحقيقية أن كثيرًا جدًّا من تفاصيل عرض القصة ومن المواقف ما يسمونه بلغة السينمائيين هذه الأيام ب«التوابل» ومفروض أنها لفتح شهية المتفرج، ولكن المتمعِّن في هذه التوابل الفاحص لها يجد أنها ماء نار كاوٍ يذيب أصلب القيم، ويجرد الإنسان من إنسانيته، ولأن المرأة تحظى بقدر كبير من اهتمام أصدقائنا السينمائيين باعتبارها مصدرًا للشباك، فإن هذا الماء الكاوي يتولى فيلمًا بعد فيلم، وتفصيلة وراء تفصيلة، ومشهدًا وراء مشهد؛ يتولى عملية غسيل مخ «آسف أقصد توسيخ مخ» كامل، ليس فقط لشبابنا وسيداتنا ورجالنا ولكن — وهذا هو أخطر ما في الموضوع — جمهور السينما الرئيسي هو فتياتنا الصغيرات وأطفالنا وصبياننا أولئك الذين بعدُ لم تتكون لديهم نواة بعض القيم التي قد تتكفل بالوقوف في وجه ماء النار هذا، زمان حين لم يكن هناك سينما أو تليفزيون أو إذاعة أو صحافة، كانت الأسرة تتولى عملية تربية «الطفل» والتربية ليست هي التأديب كما قد يعتقد البعض، التربية هي تكوين جهاز ضميري داخلي للطفل، أو على الأقل مساعدته على تكوين هذا الجهاز. أما الآن فإن أجهزة الإعلام وأصدقاء الطفل أو الطفلة يتولون على الأقل ٩٠٪ من عملية التربية، ولأنهم بالطبع ليس لديهم الخبرة فأنهم يستوردون هذه الخبرة وينقلونها من هذه الأجهزة الخطيرة جدًّا، وأنا لا أقول إن مصر وحدها هي المصابة أو بلادنا العربية إن المرض أصبح عالميًّا وخطيرًا ونتيجة لأفلام الجريمة مثلًا في أمريكا، فإن الأجيال الجديدة «صدَّقت» الأفلام والحلقات، وأخذت تزاول الإجرام وكأنه شيء عادي تمامًا والبركة بالطبع في التليفزيون والسينما.

مرَّ على ذهني كله وأنا أقرأ حكاية عجيبة فعلًا، أقرأ خطابًا لولي أمر تلميذة في إعدادي تناقش أباها حقها في أن تركب مع أي رجل عربته الخاصة «ليوصلها» إذا أعوزتها المواصلات، وحين حاول أبوها أن يناقشها، أسرعت وأحضرت له زميلة صباحية كتب فيها أحد الصحفيين في «عموده» «الخاص» رأيه، الذي يسفِّه به رأي ضابط بوليس الآداب الذي أعلن أن مسألة ركوب الفتيات في العربات الخاصة مسألة لا بد أن نتوقف عندها بل ونمنعها؛ لأن في هذا أكبر جناية على الفتيات — وبالذات الصغيرات منهن — واختلاط الحابل بالنابل والمحترفات بالهاويات، اتهم ذلك الزميل الصحفي الضابط بأنه يفكر تفكيرًا رجعيًّا وأن سائق التاكسي، وبالطبع في هذا مغالطة كبرى فسائق التاكسي «شغلته» هي هذه، ولكن الأفندي أو الشاب الذي يركِّب فتاة أو فتيات ربما لا يكون يفعل هذا لوجه الله، أو لحل المشكلة أو من أجل أكل العيش، قطعًا هناك نسبة كبيرة ستفعل هذا لأسباب أخرى، وصحيح أن المشكلة في الأوتوبيسات لا تقل سوءًا حيث تنحشر نساؤنا وسط أكوام الرجال،

وحيث الجنس الجبان يفرضه التكدس فرضًا، مما أقترح معه احترامًا لأجساد نسائنا أن تخصص أتوبيسات بأكملها للسيدات وأخرى للرجال، أو نلغي حكاية الدرجة الأولى تمامًا، ونجعل نصف الأتوبيس الأمامي للسيدات يصعدون إليه من الباب الأمامي والنصف الخلفي للرجال يصعدون إليه ويهبطون من الباب الخلفي، فما يحدث في أتوبيساتنا أشد دمارًا لنفس المرأة والرجل من أفلامنا ومسرحياتنا؛ فهو يُفقد الإنسان أو الإنسانة السيطرة على جسده ليصبح مباحًا، وقد يُستباح مرة ويغضب، ولكنه، وبالقوة، وبالحياء، ورغمًا عنه يغتصب اغتصابًا ويجعل من المرأة إنسانة قطعت نقطة الوصل بين إرادتها وجسدها فخلاص، انتهت.

نعود إلى المناقشة التي دارت بين الأب وابنته، فقد ردت على أبيها بقولها إنه «رجعي» ما دام الصحفي صاحب القلم قد كتب هذا واتهم هذا الاتجاه بالرجعية إذن الصحفيون وكُتاب السيناريو ومقتبسو المسرحيات والمخرجون هم الذين «يعملون» و«يربون» هذه الأجيال الجديدة.

وإني أريد أن أسأل ذلك الزميل الصحفي ماذا يقول لابنته؟ التي في إعدادي (يعني سنها ١٢–١٣ سنة) إذا جاءت لتطلب منه «حق» الركوب مع الرجال في عرباتهم الخاصة؟ هل سيوافقها؟ بل لا أقول ابنته إنما لو جاء ابنه الولد وفي هذا السن يطلب منه هذا؟ ويتهمه بالرجعية لأنه حال بينه وبين اعتداء جسدي قد يقع عليه فيفسد حياته كلها؟ في الواقع لقد ضايقني كثيرًا أن يرسل هذا الأب برسالته إلى بريد الأهرام، فمعنى هذا أنه أب عاجز لا يزاول دوره، لم يشرح لابنته المشكلة، لم «يحزم» الموقف معها، وبالمناسبة فإن أحدث طرق التعليم في إنجلترا أعادت عقوبة الضرب بعدما ثبت أنها أنجح وسيلة في بعض الأحيان لأنه «يدرك الطفل أنه أخطأ فعلًا» ولكن الأب المصري «رخرخت» قبضته كثيرًا؛ فالحياة صعبة تمامًا وهو مثقل بمطالب الأسرة الاقتصادية، والأجيال متوثبة إلى حياة رفاهية واستمتاع، والأفلام والمسرحيات «على ودنه» تضرب على هذا الوتر وتشجِّع الأجيال الجديدة على الثورة على العقليات «القديمة» وكأن الأسرة نفسها أصبحت من مخلفات الماضي البغيض، في حين أنها كانت وستظل أهم مناخ لتربية إنسان، وهذا كلام ستحمله بعض الأجيال الجديدة على أنه كلام «رجعي» مثل تلك الطفلة التي تريد أن تجرب لعبة الركوب مع الرجال في سياراتهم. (مش لسه بدري شوية. مستعجلة على إيه؟)

وكأنما الحديث عن السلوك أو الضمير أو منع الامتهان الجسدي وليس منع الحب مسائل رجعية، وكأن التقدم هو التحلل ولا أقول الانحلال، أقصد التحلل من أي منطق أو قيمة أو ارتباط.

من قال هذا؟ قالته كثير من أفلامنا سواء وهي تقصد أو دون أن تقصد.

أي امتهان لكرامة نسائنا وبناتنا، أي قذارة، أي تخلف عقلي مهين، أي رجعية؟ أجل رجعية تشل القشرة الحضارية التي أضافها الإنسان إلى عقله خلال آلاف السنين والتي تعلَّم في أثنائها أن يحترم نفسه وجسده، وأن كرامة جسده من كرامته، بل هي بؤرة كرامته، وأن بيع جسده أبشع عمل ممكن أن يرتكبه الرجل أو المرأة في حق نفسه أولًا، فهو إذن استهان بجسده، كما قلت هذه الاستهانة فأي قيمة تبقى؟ وما معنى أي قيمة إذا كان جسده بلا قيمة؟

أين جميع القتلة «بالنوايا»؟!

أدَّى بي تأملي في الفترة الأخيرة لكافة نواحينا السياسية والاجتماعية والحزبية والحكومية والشعبية إلى أن أقف متعجبًا أمام ظاهرتَين غريبتَين، الظاهرة الأولى التي لا شك فيها هي ارتفاع نبرة الدعوة الدينية بشكل لم يحدث له مثيل — على الأقل طوال الخمسين عامًا الماضية — كأنما الدين يسري في حياتنا سريانًا طبيعيًّا هادئًا جميلًا واصلًا إلى الأعماق بسهولة وحب ويسر، حتى الدعوة إلى تمسك أكثر بالدين تلك التي قام بها المرحوم الإمام حسن البنا كانت تجري باللين والحسنى وجميل القول والفعل، وكان الرجل يملك جاذبية كبيرة تجذب حوله الشباب والشيوخ وحتى الصبية من أمثالي في ذلك الوقت، وأذكر أني كنت أصلي الجمعة في المسجد الرئيسي بقريتنا في الشرقية، حين قام — بعد الصلاة — رجل في متوسط العمر ذو لحية سوداء جميلة ويرتدي الطربوش وظل يخطب فينا قرابة الساعة داعيًا إلى تكوين شعبة للإخوان المسلمين في قريتنا، وما كاد ينتهي ويخرج المصلون من المسجد حتى كان عدد كبير من الناس يتقاطرون حوله، منهم من تبرع بالمقر ومنهم من تبرع بأن يكون مسئولًا عن الدعوة، وحين حاولت أنا الانضمام طالبًا منه ذلك، ربت على كتفي وقال: انتظر قليلًا حتى تكبر وتكون إن شاء الله من المنضمين، وبعد هذا الحين دخلت مدرسة دمياط الثانوية ثم الزقازيق الثانوية، كان بين كل حين وحين يحضر، وتزدحم القاعات الكبيرة بجمهور يريد الإصغاء إلى الإمام لا يقرأ لهم عن الإسلام من كتب صفراء بالية ككتب أئمة المساجد وخطباء الجمعة، وإنما يحدثهم عن الإسلام بلغة معاصرة آسرة تبسِّط الإسلام إلى حد تقريبه من نفس كل مسلم مهما كانت درجة ثقافته أو أميته، وفي نفس الوقت تعمِّقه إلى حد يصبح من مكونات تفكيره الأساسية أو بالأصح المكون الرئيسي لتفكيره وحساباته مع الناس ومع الخالق، ومن صباي إلى شبابي إلى عام ٤٨ وشعبنا يؤدي واجباته الدينية النابعة من قلوب عامرة بالإيمان، الناس يصلون ويصومون ويُخرجون

الزكاة، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويحجون البيت إن استطاعوا سبيلًا، ولكن هذا لم يكن كل شيء، لم يكونوا يفعلون هذا بطريقة أدائية ميكانيكية، وإنما كانت هذه الأركان ليست سوى الجزء الظاهر من إيمان عميق بالأخلاق الإسلامية النبيلة، والتصرفات المبنية على تقوى الله والإيمان بثوابه وعقابه، كنا في الحقيقة نحيا في نعيم من الإيمان الحق والطبع الإسلامي السمح، وهكذا انتشرت فكرة الإخوان المسلمين على طول البلاد وعرضها وحتى في الدول العربية والإسلامية الأخرى، إلى أن بدأت تلك الكثرة العددية المهولة تُغري قيادات الإخوان بأن تلعب دورًا وطنيًّا مجيدًا، كنت في ذلك الوقت في كلية الطب وكان كثير من شباب الحركة الوطنية، بعد فشل حرب ٤٨ يفكر جديًّا في مقاومة مسلحة في القتال ضد الإنجليز، وبادر «الإخوان المسلمين» بالدخول في المعركة واستُشهد منهم الكثيرون من أصدقائي في كلية الطب والجامعة بجوار عدد آخر من ضباط الجيش والشرطة، ثم كان ما كان من قيام الثورة واصطدامها بالإخوان المسلمين، أو اصطدام الإخوان بها والمعتقلات التي فُتحت لآلاف من أفرادها، وكان من حسن حظي أني اعتُقلت أنا الآخر، قبل حادث المنشية بقليل، وبعد جولة على سجون القلعة وأبو زعبل اتُّهمت أنا وزميلي حمزة البسيوني «الطبيب» بإثارة المعتقلين في «أبو زعبل» ونقلونا إلى سجن مصر حيث كان يكتظ عنبر «ج» بثمانمائة معتقل من الإخوان في عنبر مبني ليسع مائتي مسجون فقط. وكان أن تفشَّى وباء السل بين الإخوان، ناهيك عما تعرض له شبان صغار وكبار على مرأًى منا من ضرب وتنكيل، وتعذيب، بل وإعدام كان أبرزها إعدام المفكر الإسلامي الكبير سيد قطب وواحد من أعظم من قابلتهم من الرجال هو المرحوم عبد القادر عودة مع آخرين.

ويومًا ما سأكتب تلك التجربة الغنية التي دامت أكثر من عام في سجن واحد مع قيادات الإخوان المسلمين.

وليس هذا الآن مجالها.

ولكن المجال هو للحديث عما صارت إليه الأمور الآن، ففي فترة السبعينيات نمت حركة، بل حركات أخرى، من بقايا الجهاز السري وبقايا التكفير والهجرة، مع نقود توافرت من الإخوان المسلمين الذين هربوا إلى البلاد العربية وربحوا وأصبحوا قوة اقتصادية ضخمة، وكان هدف تلك الحركات جميعها ليس الدعوة والموعظة الحسنة ولكنهم وصلوا إلى اقتناع لا يتزعزع أنه لا إصلاح لمصر إلا بأن يستولوا على الحكم، ولم تأخذ تلك الدعوة شكلًا مباشرًا صريحًا ولا وُجِّهت لها الاتهامات، وإنما اتخذت شعارًا لها هو تطبيق الشريعة

الإسلامية، وهو شعار يحمل في طياته بطبيعة الحال أن يحكموا هم؛ لأنه إذا أخذنا بتطبيق الشريعة فالأجدر والأولى بتطبيقها والحكم بها هم هؤلاء المنادون بها، ثم تكشَّف هذا الشعار أكثر وأكثر حين دخلت تلك الجماعات في «الحِلف الإسلامي» وأصبح ذلك الشعار الجذاب الغامض «الإسلام هو الحل» يحمل معنًى واحدًا ليس هناك من معنًى سواه وهو الحكم لهذه الجماعات المنادية بالحل.

وأن تطلب أي جماعة من الناس الحُكم، وأن يطلبه أي حزب، شيء لا غبار عليه بالمرة، بل إني لأطالب أن يحدث هذا بصفة علنية، وببرنامج إسلامي محدد ممكن مناقشته فهذا حق كفله دستورنا، ولكن المشكلة الحقيقية هي أن يحتكر حزب ما أو جماعة ما الإسلام بكل عظمته واتساعه وشموله، بحيث إن من لا يوافقهم يصبح كافرًا وخارجًا عن الدين والرسالة المحمدية.

ومما زاد الطين بلَّة أن الدولة المصرية في الستينيات حين اصطدمت بالإخوان المسلمين أرادت أن تبدو هي — الدولة — في ثوب إسلامي قشيب فأكثرت من الأحاديث الدينية في الإذاعة والتليفزيون، وأقامت محطة دينية تذيع طوال الأربع والعشرين ساعة على أمل أن ينتهي الناس بهذه الدعوة الإسلامية «العامة» التي لا تتجسد في تنظيمات ممكن أن تثب إلى الحكم أو تقلب نظام الدولة، وهكذا حين وصلنا إلى الثمانينيات كان ثمة جسد كبير قد تشكَّل واغتال جزء منه رئيس الدولة بينما جزء آخر قد تحرك متأخرًا بعض الشيء واستولى على محافظة أسيوط، وأودى بحياة عددٍ كبيرٍ من الضباط والجنود، ولا يزال هذا الجسد يتمدد ويحتشد، وما أحداث حسن أبو باشا ومكرم محمد أحمد إلا بداية تُظهر الحكومة بمظهر غير القادر على حفظ الأمن أو الأمان سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الأمنية، وترسل الرعب في قلوب من يفكرون في الدفاع عن النظام أو التصدي لما يحدثونه من إرهاب.

وفي نفس الوقت بدأ الاستيلاء الزاحف المستمر على المساجد وعلى الأزياء وعلى المؤسسات الحكومية، وأمكنة العمل حتى إن دواوين الحكومة والمؤسسات في عز ساعات العمل تُجبر على التوقف تمامًا لمدة لا تقل عن الساعة لأداء صلاة الظهر في حين أن كل القطاع العام ومصالح الحكومة ينتهي العمل فيها قبل أذان العصر بساعة على الأقل، ولا يوجد في ديانتنا الإسلامية السمحة قول واحد ينص على ترك مصالح المسلمين، وحاجاتهم بزعم أداء الصلاة جماعة، ولقد ذهبت مرة إلى أحد أماكن العمل في القطاع العام لإصلاح السيارات فإذا بالعمال في رمضان جالسون منذ الساعة الحادية عشرة يقرءون القرآن، وما داموا يفعلون ذلك فإن أحدًا لا يستطيع أن يقول لهم كلمة واحدة، وظلوا يقرءون

القرآن الكريم حتى أذان الظهر واستغرقت شعائر إقامة الصلاة جماعة ما يقرب من الساعة، بعدها وقف أحدهم يلقي عليهم حديث الظهر (أفي الإسلام ما يسمى حديث الظهر؟!) إلى أن بلغت الساعة الواحدة وبدءوا يغتسلون لأن يوم العمل كان قد قارب على الانتهاء، وهكذا فليس من المستغرب أبدًا أن يكون متوسط أوقات العمل للموظف وللعامل المصري هو ٢٧ دقيقة في اليوم في بلادنا التي تحتاج إلى عمل لا يقل عن عشر ساعات لنستطيع فقط أن نأكل ونلبس.

وهكذا انتشرت الميكروفونات واستولى البوابون على الأرصفة يمنعون المارة بزعم أداء الصلاة جماعة، ولا أحد يستطيع أن يقول يا ناس اتقوا الله في ضمائركم فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ والحادثة المشهورة عن النبي ﷺ حين وجد مسلمًا لا يغادر المسجد بزعم عبادة الله فسأل: من ينفق عليه؟ قالوا: أخوه. فقال الرسول ما معناه أن أخاه خير منه.

انتشر ما يمكن أن نسميه إسلام الميكروفونات.

وكان مفروضًا أن يتبع هذا عمار للقلوب وإحياء للضمائر والكف عن كل ما يغضب الله، ولكن العجيب والغريب أنه مع هذا الضجيج الميكروفوني فسدت الضمائر إلى أبعد حدود الفساد، وانتشرت السرقة والرشوة والتهريب والتجارة بزعم العمرة، واغتصاب الخلوات والإهمال التام لمساعدة الغير أو الجار، والفسق قد تخفَّى وساد النفاق الجماعي.

ومن لا يصدقني فليذهب إلى الحسينية حيث قامت عملية أكبر غش جماعي اشترك فيها الطلبة وأولياء الأمور وبعض المراقبين وعجزت قوات البوليس عن إيقافه، في الحسينية عدة مساجد كلها ذات ميكروفونات تؤذن — معًا — للظهر والعصر والمغرب والفجر وتحفل بالأحاديث والمواعظ والخُطب، وفي نفس الوقت الذي يبدو فيه هكذا علنًا وعلى الملأ فإن القلوب عامرة بالإيمان والصفاء، إذا بها تمتلئ بالغش مع أن الرسول يقول: «من غش أمتي فليس منا.» والتبجح في اقتراف الإثم، وإذا كان الغش هو الظاهرة العلنية الجماعية فما أدرانا بما أصبحت تحفل به النفوس الفردية من آثام ودواهٍ.

ونأتي للفصل الأخير من المأساة وبالذات الاعتداء على كاتب صحفي ذي رأي بالمدافع الرشاشة ورصاص دمدم الذي يتفجر في الجسد، أي شجاعة في هذا العمل بربكم؟ أي شجاعة أن أطلق النار المدمدمة على إنسان أعزل يقود سيارته، هل هذه هي شجاعة المسلمين؟ إن المسلمين الشجعان هم الذين واجهوا إمبراطوريتين أقوى إمبراطوريتين في العالم مدججتَين بالسلاح، بسيوف بدائية وانتصروا عليهما، أما طوال العصر الإسلامي

وطوال أربعة عشر قرنًا من الإسلام فلم تحدث عمليات الاغتيال هذه إلا من فِرق من الحشاشين اشتقت منها كلمة أساسان اللاتينية؛ إذ كان قائدهم يخدرهم بالحشيش ويصنع لهم جنة فيها الحور العين على الأرض ليغريهم بقتل الناس، وإلا بضع جماعات منشقة على الدين والملة مثل القرامطة والزنج وغيرهما، أما نهر الإسلام العظيم الدافق فلم يعرف أبدًا أمثال هذا النوع من «الشجاعة» متأسف من «الجبن.» إن الإسلام دين حق والحق يُكسب الإنسان الشجاعة والمواجهة حتى لو لم يكن صاحبه من الأصل شجاعًا، الإسلام دين تضحية وجهاد ضد الكفار وضد الخارجين عن الملة، وليس أبدًا ضد أصحاب الكتاب فما بالك بالمسلمين الذين قد يختلفون في الرأي.

نم ملء جفونك أيها «البطل» الذي حاولت قتل العُزَّل وارضَ عن نفسك تمامًا؛ فقد صورت لنفسك أنك أديت ما يمليه عليك إيمانك، في حين أنك في الحقيقة أديت ما يمليه عليك جُبنك.

أما أولئك الشجعان حقًّا جماعات الإخوان المسلمين والتحالف الإسلامي والمنار واللواء الإسلامي وكبار الدعاة الذين تجلجل أصواتهم صباحًا ومساءً وهيئات كبار العلماء، وفضيلة شيخ الأزهر والمفتي ونقابة الأطباء التي تحفل بالاتجاهات التي تسمي نفسها إسلامية وكذلك نقابة المهندسين، أما خطباء المساجد والوعاظ أما أولئك الذين يسلطون الميكروفونات على آذاننا المرهقة التي تريد أن تأخذ قسطًا من النوم لتعاود الكفاح من أجل أولادها وأمتها في اليوم التالي، أما كل هؤلاء فهم صامتون صامتون وكأن الأمر لا يعنيهم أو كأنهم شركاء بالصمت في هذا الفعل الجبان الذي لم ينزل به قرآن ولم يحتوه حديث.

أليس للإنسان عذر أن يقول لقد أصبح الإسلام الحقيقي غريبًا على أيدي من يسمون أنفسهم الآن دعاة الإسلام والحل الإسلامي والتحالف الإسلامي؟

أين جميع القتلة «بالنوايا» إزاء القتل برصاص دمدم؟

ظاهرة أحمد شفيق

أمري إلى الله؛ إذ لا بدَّ مما ليس منه بُد، لقد ظللتُ أصبر على هذا المنكر وأصبر وأقول إن فاعله سيتوب وينصلح حاله ويعود إلى حظيرة العلم والتقاليد الأكاديمية والجامعية ومختلف ما اصطلحت عليه الأوساط العلمية من نُظم وطُرق، ولكنه يأبى إلا أن يظل سائرًا في طريقته التي لا تمت بصلة إلى أي علم وأي حقيقة، الموضوع هو ظاهرة الدكتور أحمد شفيق جراح الشرج والأمعاء وأستاذ الجراحة بكلية طب محترمة شديدة الاحترام، أول ما لفت نظري إليه كانت المقالات الصحفية التي ينشرها في جرائدنا بتوقيعه كأستاذ في كلية الطب، وكلها تقريبًا، كانت تتحدث عن مواضيع غير طبية، مواضيع عامة، مثلها مثل مواضيع الرأي التي ينشرها أساتذة جامعاتنا والتي يرتفع مستواها أحيانًا فنستفيد منها فائدة قصوى، وينخفض في أحيان إلى مستوى معلومات ورأي القارئ العادي غير المسلَّح بوجهة نظر خاصة، المهم من كثرة نشره لمقالاته تلك، علق اسمه في ذاكرتي، ورغم أن مقالاته لم تكن تضيف جديدًا إلى ما عندي وعند كثير من القراء، إلا أنني كنت أقول لنفسي: والله إنه لشيء جميل، أن يهتم أستاذ في جراحة الشرج بهذه المواضيع العامة، ولا يظن أحد من القراء أنني أستعمل كلمة جراحة الشرج استخفافًا؛ فجراحة الشرج تخصص خطير تمامًا من تخصصات الجراحة، بل إن مستشفى من أكبر مستشفيات لندن مخصص كله لجراحة ذلك الجزء من أجهزة الإنسان، ربما يستعمله الإنسان كمادة للاستخفاف أو للفكاهة ولكنه فرع جد خطير من فروع الطب.

وذات يوم قرأت، فجأة، أن الدكتور أحمد شفيق مرشح لجائزة نوبل في الطب، والحقيقة استغربت قليلًا؛ فجائزة نوبل لا تُمنح في الطب للجراحين حتى لو كان الجراح «برنارد» الذي نقل أول قلب بشري، أو مجدي يعقوب الذي نقل أول قلب ورئتين من طفل إلى طفل بنجاح؛ فجائزة نوبل الطبية تُمنح للاكتشافات في «نظرية الطب» أو أي

تقدم يُحرَز في تطور معرفتنا بالجنس البشري مثلما مُنِحها الطبيب البريطاني فلمنج «لاكتشافه» أن الجراثيم تقتلها المضادات الحيوية من بنسلين وستربنوميسين، وهي أنواع من النباتات الفطرية اكتشف أنها تقتل الميكروبات ولم تكن موجودة قبلًا؛ إذ كان أقصى ما نقاوم به الميكروبات هي أدوية «السلفا» الكيمياوية.

ولكني قلت لنفسي ربما «اكتشف» الدكتور أحمد شفيق اكتشافًا في الطب لا نعرفه.

وعلى هذا هضمت كل تلك التحقيقات الصحفية التي كُتبت عنه والصور والدعاية الهائلة لأول جراح مصري مرشح لجائزة نوبل، بل إنه في الزميلة «صباح الخير» ويبدو أن له ركيزة أساسية في إحدى محرراتها، بدأ ينشر مذكراته وذكرياته عن طفولته في القرية وعن شبابه وأول عملية نقل مثانة، نقل بها مثانة شخص مات فورًا إلى شخص حي، وأشياء من هذا القبيل لا أذكرها الآن. كل هذا بمناسبة «ترشيحه» لجائزة نوبل، فما بالك لو كان قد نالها، ماذا كان يفعل؟

وبالمصادفة البحتة دُعيت للسويد من قِبل جمعية الصداقة السويدية العربية وجامعة استوكهولم، وهناك سألت أستاذًا في كلية الطب عن ترشيح الدكتور أحمد شفيق لجائزة نوبل على اعتبار أنه حقيقة واقعة، فتفكَّرَ مليًّا وقال لي: أنا متأكد أنه لا يوجد بين المرشحين لجائزة نوبل في الطب من يحمل هذا الاسم على مدى السنوات الخمس الماضية وحتى هذا العام، ودهشت دهشة عظمى وعدت أجادله وهو يؤكد قوله، وحملت المشكلة إلى صديقي الأستاذ الدكتور عطية أستاذ الأدب العربي في جامعة استوكهولم، وقلت له الواقعة فأغرق في الضحك، وسألته لماذا يضحك؟ فقال لي إنه ذات يوم دقَّ له الدكتور أحمد شفيق تليفونًا وقال له: ما هي آخر أخبار ترشيحي لجائزة نوبل؟ فقلت له: وهل أنت مرشح؟ قال: لقد رشحتني جمعية جراحي الجهاز الهضمي الأمريكية (التي كان يرأسها في ذلك الوقت الدكتور أحمد شفيق)، فقال له الدكتور عطية دعني أسأل وأجيبك، وذهب الدكتور عطية إلى سكرتارية الأكاديمية السويدية يسأل، فقيل له إنه ليس من حق أي جهة أخرى أو جامعة أو جمعية أن ترشح أحدًا لجائزة نوبل، وأن الترشيح يتم من قِبل الأكاديمية وحدها؛ فهي تطَّلع على كل الدوريات العلمية وتتتبَّع أدق تفاصيل الأبحاث الطبية، ومن خلال الاكتشافات التي تقرها الجامعة وتُنشَر في الدوريات العلمية يتم اختيار أجدر الاكتشافات لنيل الجائزة دون تدخُّل من أحد، ثم قالوا له أيضًا: دع صديقك هذا يرسل أبحاثه أو اكتشافاته فربما نرى فيها اكتشافًا جديدًا، وأرسلت لهم أبحاث الدكتور أحمد شفيق واكتشافاته، فإذا بها كلها أبحاث تتعلق بجراحات أجراها لتحويل عملية

«الكولستومي» وهي تحويل القولون الغليظ بعد استئصال «المستقيم» في حالات السرطان أو الحوادث إلى جانب المريض بحيث يتبرز من جانبه تحويل هذا إلى الوضع الطبيعي، وبضع عمليات جراحية أخرى، فردت الأكاديمية بالرد الذي سبق وذكرته وهي أنها تمنح جائزتها ليس على التقدم أو الابتكار الجراحي وإنما على التقدم العلمي النظري في علم الطب فقط، وهنا ثار الدكتور أحمد شفيق وذكر للأستاذ عطية أشياء مضحكة، منها أنه فصَّل السموكنج أو التوكسيدو الذي سيرتديه لحظة تسلُّم الجائزة، وأن السيدة حرمه فصلت فستان سواريه مخصوصًا من أجل تسلُّم الجائزة واقفة بجواره. وأشياء أخرى تميت من الضحك وكلها خاصة بتصور منظره في حفلة عشاء الأكاديمية وملك السويد يسلمه الجائزة وتليفزيونات العالم تنقل على الهواء مباشرة هذا الحفل.

وعدت إلى القاهرة فوجدت أن الدكتور أحمد شفيق لا يزال ينشر مذكرات طفولته وشبابه باعتباره أول عالم مصري «يُرشَّح» لجائزة نوبل.

وقلت لنفسي: فوِّتها؛ إذ تصورت ساعتها أن الدكتور أحمد شفيق من ذلك النوع الحالم بأحلام يقظة يتصور نفسه أحيانًا في هيئة الحاصل على جائزة نوبل، وأحيانًا في هيئة المكتشف لدواء يشفي من السرطان، أو أخير، وهو ما سنصل إليه، دواء للإيدز.

قلت: لا بأس على إنسان كهذا أن يحلم، فلندعه يحلم كما يشاء بجائزة نوبل، وفعلًا مضت الأعوام تلو الأعوام، ولم يحصل سيادته على الجائزة و«بلعناها وفاتت».

وفي ذلك الحين علمت من أساتذة كلية الطب تاريخ الدكتور أحمد شفيق في الكلية، وكيف قُدِّم إلى مجلس تحقيق وتأديب؛ إذ أقدم وهو طبيب ناشئ وبدون علم أستاذ القسم أو رؤسائه على إجراء جراحات نقل المثانة من شخص مات إلى شخص حي، وما صاحب هذا من رفض الجسم للمثانة وموت المريض، بل المريضَين.

ولكن عبقرية أحمد شفيق، ولا شك أن له عبقرية خاصة في هذا، أنه كل مرة يفلت من المخالفة الجسيمة دون أي عقاب رادع، وهكذا مضى في سلم الجراحة إلى أن أصبح أستاذًا، والحقيقة أنه بارع جدًّا كجراح شرج، هكذا يشهد كل زملائه ومن رأوه وهو يزاول العمليات، ولكنه لا يكتفي بأن يكون أستاذًا عظيمًا للجراحة، إنه يريد أن يكون «عالمي» الشهرة بأي طريقة كانت، تؤرقه — كما ذكرت — أحلام اليقظة في المجد الذي يعمي نوره الدنيا، والطموح إلى هذا في حد ذاته ليس بالأمر البشع؛ فكل إنسان منا مهما صغر شأنه أو علا، عنده نوع من الطموح، يحلم أنه ذات يوم سيكسب مائة ألف جنيه وسراية في محرم بيه، هذا حلم مصري مشروع، ولكن فرق كبير بين أن يحلم العالِم وبين أن يحلم

رجل الشارع؛ فالعالِم حين يحلم يكتم في نفسه ويبدأ طريق الألف ميل بخطوة وفي دأب شديد يظل، بالطريقة العلمية الأكاديمية المتعارف عليها، يجرب، فإذا استأذن في تجاربه، ونجحت التجارب، يعرض النتائج على مجلس القسم الذي يعمل فيه، فإذا أقرها رفعها إلى مجلس الكلية ومجلس الجامعة يُصرِّح له بعد هذا في نشرها في الدوريات العلمية حتى يضع اكتشافاته أمام أنظار كل علماء الدنيا. ويحدث في أحيان كثيرة أن يكتشف عالمان أو أكثر نفس الاكتشاف في نفس الوقت كما حدث في اكتشافات التركيبات الدقيقة لنواة الذرة، وهنا يثبت العلماء هذا، ويقولون إنه اكتشف من هذا العالم وذلك في نفس الوقت حتى لا يُظلم أحد.

طريقة الدكتور أحمد شفيق طريقة أخرى تمامًا؛ فهو يحلم مثلًا بأنه سيكتشف دواء للسرطان، ودون اعتبار لأي جهة علمية يتبعها أو كلية يبدأ يجرب علاجه هذا على الإنسان، وهذا ممنوع تمامًا مثلما حدث في حكاية الروماتويد، ثم، بدل أن يعرض اكتشافاته أو علاجه ذلك على الدوائر العلمية المختصة لتناقشه في النتائج التي حصل عليها وتثبت صحتها من خطئها، يهرع هو إلى الصحفيين والصحفيات ويعلن لهم، هم الجاهلون بالأمر تمامًا وغير المختصين أبدًا بالموضوع، يعلن لهم هذا الاكتشاف، ويسميه M1 مثلًا، لا أحد يعرف، ولماذا لا يكون R1 أو N1 لا تعرف، إنما هو اسم «يخُم» إخواننا الصحفيين ويوهمهم أن في المسألة علمًا وأسماء علمية، ثم يثبت في النهاية أنها حقن «اللبن» تلك التي كانت تُعالَج بها أمراض العيون قبل اكتشاف مركبات السلفا؛ إذ كان أطباء العيون للتغلب على الالتهابات الفيروسية والميكروبية للعيون يعطون للمريض حقنة «لبن» معقم، هذه الحقنة تسبب ارتفاعًا شديدًا في درجة الحرارة يصل إلى ٤٠٫٥ أو ٤٠ أو ٤١ وهي درجة حرارة كفيلة في حد ذاتها بقتل الميكروب أو أحيانًا بقتل المريض وفي أحيان أخرى يقتلهما معًا.

وحين يوقف الدكتور هاشم فؤاد ذلك العميد العظيم، أعظم عميد في تاريخ كلية طب قصر العيني — اعتمادًا على تقارير قسم الجراحة ومجلس الكلية — ذلك «الأستاذ» الذي زاغ عن الطريقة العلمية في الإعلان عن علاج غير مرخص وغير معتمد؛ حين يوقفه عن العمل كأستاذ، وهذا كان أبسط إجراء ممكن اتخاذه، أو يحيله إلى مجلس تأديب في جامعة القاهرة، حين يحدث هذا يبدأ الدكتور أحمد شفيق يتباكى. لمن؟ للصحفيين والصحفيات، وهنا لا بد أن أتوقف هنيهة أمام زميلاتنا وزملائنا الصحفيين، وأمام أيضًا بعض أطبائنا وهم لحسن الحظ قليلون، وبعض أساتذة الطب عندنا، إن استعمال الصحافة أو التليفزيون وسيلة للدعاية الشخصية عن الطبيب بالذات عار على مهنة الطب بأسرها،

وأيضًا على التليفزيون والصحافة؛ فالطب مهنة شديدة الخطورة وبالتالي لا بد أن تكون شديدة الاحترام والمهابة، والأطباء في مختلف أنحاء الدنيا — ما عدا بلادنا العربية التي نقلتها عن مصر للأسف — لا يعلقون لافتات بعرض الشارع، وإنما هي لافتة نحاسية صغيرة باسم الطبيب في حجم «كارت» الزيارة واسمه في دليل التليفون، ولكن نقرأ أن أطباءنا دأبوا على أن يكون لكل منهم رجله أو سيدته في هذه المجلة أو تلك، في هذه القناة أو تلك يوالي نشر أخباره، بنقود مرة أو بدون نقود، بتوصية على الابن أو البنت مرة الطالبة في كلية الطب أو جبر المحروس أو المحروسة، هذه العلاقة المشينة بين بعض الأطباء وبين بعض الإعلاميات والإعلاميين لا بد أن تتوقف، واحذر يا عزيزي القارئ من كثير مما تقرؤه دعاية سافرة لهذا الطبيب أو ذاك فذلك إعلان مخجل يحط من قدر الطب والصحافة والتليفزيون معًا.

ولكنها الغوغائية التي سادت حياتنا حتى لم يعد فيها مجال لأي قيم سواء أكانت أكاديمية أو علمية.

وانظر إلى ما حدث أخيرًا في حكاية «الإيدز».

لقد أحسست بمدى الكارثة حين قرأت لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ، فتصوروا، الأمر وصل إلى أن نجيب محفوظ قد صدَّق وعن تمنياته في عام ٨٨ فإذا به يقول: أن ينجح الدواء الذي اكتشفه الدكتور أحمد شفيق في القضاء على مرض الإيدز.

ذلك أنني عدت بعد قضاء ثلاثة أسابيع في باريس ولندن حيث الاهتمام بالإيدز يصل إلى درجة الجنون، وكنت أتابع قراءة الصحف هناك يومًا بعد يوم ونشرات الأخبار كل ساعة ولم أسمع في نشرة منها أو حتى إشاعة أن علاجًا للإيدز قد جُرِّب في زائير (الكونغو) بواسطة طبيب مصري وثبت نجاحه في الشفاء التام بنسبة ٩٠ في المائة للمرضى به، لو كان شيء كهذا قد حدث لزلزلت الأرض زلزالها في معهد باستير وباريس ولندن وأمريكا والدنيا كلها؛ فأمريكا ترصد مئات الملايين من الدولارات للأبحاث الخاصة بالإيدز وكذلك كل دولة أوروبية، وكل معهد يعمل في مجال الميكروبيولوجي؛ بمعنى أن هناك تحفزًا يصل إلى مرحلة السعار لدى العالم كله لالتقاط أي معلومة جديدة عن مرض الإيدز، فما بالك باكتشاف دواء أقول بملء الصوت مرة أخرى دواء «لعلاج» الإيدز؟!

ولكني حين جئت القاهرة وجدت أن صحف القاهرة وحدها هي التي اكتشفت دواء لعلاج مرض الإيدز ومكتشفه هو الأستاذ الدكتور جراح الشرج العالمي أحمد شفيق.

أفتح أي جريدة أو مجلة، أحاديث، وصور، وزنكوغرافات لصحف زائيرية وإن كانت بالفرنسية (وهي اللغة السائدة هناك) عن هذا «الاكتشاف».

لكأني كنت في كوكب آخر، ولم أكن في قلب العالم الغربي العلمي.

وأقرأ حديثًا مضحكًا للدكتور أحمد شفيق في مجلة صباح الخير، يقول فيه إنه ظل يجرب هذا الدواء على الحيوانات، حتى ثبت له نجاحه، وحينذاك سأل هيئة الصحة العالمية عن كيفية تجربته على الآدميين فقالوا له إن زائير موبوءة بالإيدز فاذهب إلى هناك، وإلى هناك ذهب وعرض «اكتشافه.» كيف عرض لست أعرف؟ أخرج لهم من جيبه زجاجة وقال لهم: هذا هو الدواء السحري، ففغروا الأفواه مذهولين، المهم أنهم صدَّقوا الرجل وأقاموا له فريق عمل من طبيب زائيري، قسَّموا المرضى: قسمًا أعطوه الدواء السحري وقسمًا لم يعطوه، فمات كل من لم يتناول الدواء، أما القسم الآخر فقد مات منه اثنان فقط، تسعين في المائة منه شفي تمامًا.

دعونا نتوقف أمام هذا الهول من المعلومات، موقفًا علميًّا.

يقول الدكتور إنه جرب الدواء على الحيوانات، متى هذا؟ إن هذه الحيوانات لا بد من حقنها بفيروس الإيدز، فمن أين له، في مصر، بهذا الفيروس؟ هل استورده مثلًا، ومن أين؟ وكيف؟ هل أخطر وزارة الصحة والجهات المسئولة أنه بسبيله إلى استيراد «ميكروب» غير موجود في مصر وسمحت له بهذا، أم عهد إلى تاجر شنطة بالذهاب إلى أمريكا ومراقبة مرضى الإيدز هناك إلى أن يموت أحدهم فيشفط جزءًا من دمه ويخفيه في قاع حقيبة الهيرويين ويأتي به إلى مصر المحروسة ليقوم الدكتور العالمي بحقنه في الفئران، فتمرض، فيجرب عليها دواءه السحري، فتشفى؟

أين ومتى وكيف قام الدكتور المذكور بعمل تجاربه؟

وأين كان يحتفظ بالحيوانات، وماذا فعل بها وأين هي الآن، وهل تأكد أن الفيروس لم يتسلل إلى حيوانات أخرى؛ قطط الجيران وكلابهم وفئرانهم.

إني أطلب التحقيق مع الدكتور أحمد شفيق في هذه النقطة على الأقل بتهمة تهريب ميكروبات مرض خبيث إلى الشعب المصري دون أن يدري.

أم أن هذه المعلومات مغلوطة تمامًا، وأنه لم يقم بأي تجارب ولا استورد أي فيروس أو ميكروب وإنما ألهمته العناية هكذا أن يخترع دواء اسمه MM1 ورأى ببصيرته أنه سيعالج بالتأكيد مرض الإيدز، فذهب جريًا إلى زائير حاملًا لهم هذا العلاج السحري الذي لم يُجرِّبه هو على أي إنسان أو حيوان من قبل وإنما هو متأكد من النتيجة سلفًا، أم أن الـ MM1 ما هو إلا حُقَن اللبن المشهورة التي جربها الدكتور أحمد شفيق في علاج السرطان فلم تنجح، وإنما استجاب بعض مرضى السرطان الذين كانوا يعانون آلام الروماتويد لعلاجه فأسرع وأعلن أنه اكتشف علاجًا للروماتويد، ثم واتته فكرة جهنمية هي أن حقنة

اللبن باعتبارها (كأي بروتين غريب يُحقَن في الجسم) تستنفر كل قدرة الجسد على إفراز المواد المضادة Anti-Bodies ولا بد أن تكون بعض هذه المواد المضادة قادرة على ضرب فيروس الإيدز، فاستجاب للفكرة الجهنمية فورًا وذهب إلى زائير يقنع رئيس جمهوريتها الذي لا يعرف في العلم، بفكرته، وبحسن نية يطلب منه الرجل أن يجرب، فيجرب، ويكون له في النهاية المنظر الذي يحلم به دائمًا، وهو أن يستحضر كل مراسلي وكالات الأنباء، وكاميرات التليفزيون، وفي الساعة الثانية عشرة تمامًا يعلن إلى الدنيا نبأ الاكتشاف العظيم الذي قرأت عنه ثلاثة أسطر في مجلة فرنسية تقول: زعم فريقان من المصريين والزائيريين أنهم اكتشفوا علاجًا لمرض الإيدز وجربوه، وكانت النتائج كما يدَّعون إيجابية، ولكنها مسألة مشكوك فيها تمامًا.

وحتى معهد باستير لم يفتح فمه بكلمة، ومعاهد بحوث الإيدز في أمريكا لم تفتح فمها بكلمة ولا ذكرت هذا الاكتشاف بحرف، ولو كان الخبر قابلًا لمجرد التصديق لقامت الدنيا له ولم تقعد.

ذلك أن المشكلة في مرض الإيدز مشكلة خطيرة جدًّا، بل تتعلق بأصل نشأة الحياة على ظهر الأرض مثلها مثل السرطان؛ ذلك أن الإيدز لم يستطع أي جسم مضاد بشري أن يقاومه إلى الآن؛ فالجسم البشري يفرز الأجسام المضادة لكل فيروس حسب تركيبة الغشاء الخارجي للفيروس، بمعنى أو بلغة الكمبيوتر، على أساس التركيب الخارجي لجسم الفيروس تبرمج أجسادنا نفسها حتى تفرز أجسامًا مضادة لهذا التركيب بالذات؛ وبهذا يتم القضاء على الميكروب، والمأساة أن فيروس الإيدز أو بالأصح مجموعة فيروسات وقبائل الإيدز قادرة على تغيير التركيب الجزيئي لغشائها الخارجي باستمرار بحيث كلما أفرز الجسد جسمًا مضادًّا للفيروس حسب تركيبه الخارجي، غيَّر هذا الفيروس من تركيبه الخارجي، وهكذا لا يفلح الجسم أبدًا في القضاء على الفيروس الذي يمرض ويعطل ويعيش على جهاز المناعة في الإنسان بحيث إن أي ميكروب أو فيروس آخر يصيب الجسم لا يجد جسدًا مضادًّا يقاومه فيستشري ويفتك بالإنسان ويقتله.

تلك هي المشكلة.

وربما حُقن اللبن باعتبارها تستنفر جهاز إفراز الأجساد المضادة بكثرة تنجح في صد بعض هجمات فيروس الإيدز الأولى، ولكن، كما قلنا، أو بالأصح كما تأكَّد علماء الميكروبيولوجي الآن، سرعان ما يغيِّر الفيروس من تركيبه الخارجي ويهاجم جهاز المناعة مرة أخرى وبجنس آخر من الفصيلة نفسها.

المشكلة معقدة جدًّا، ولن تحل إلا بحل ذلك الطلسم، كيف تبرمج الجزئيات الحية من ميكروب الإيدز نفسها وتعيد برمجة نفسها، وهذا لا يمكن أن يُكتشَف إلا باكتشاف كيف تتحول البروتينات العادية إلى بروتينات حية، وتلك هي معضلة العلم، أو كما يقولون كشف سر الحياة. المسألة ليست سهلة أبدًا.

والمضحك أن الدكتور أحمد شفيق يقول في تبريره لإسراعه في إعلان اكتشافه قبل أن تعتمده الجهات العلمية أنه يخاف من «المافيا» العلمية أن تسرق الدواء منه!

إن العلم يا دكتور ليس سرًّا، والعلم لا يُسرق، العلم يُعلن ويُنشر في مجلات علمية على أوسع نطاق، ومجرد نشره في الدورية العلمية يعد تسجيلًا له باسم صاحبه ولا يمكن أن يُسرق ولكن، لكي ينشر الاكتشاف أو البحث أو الاختراع في دورية علمية لا بد أولًا أن تقره عدة جهات علمية متخصصة في نفس الفرع ومعتمدة دوليًّا.

أما أسهل شيء فهو أن أجمع شلة من الصحفيين أو الإذاعيين أو الإعلاميين لا يدرون شيئًا عما أتحدث عنه وليس من اختصاصهم أن يدروا شيئًا وأقول لهم: لقد اكتشفت دواء كذا لعلاج مرض كذا.

أية جرأة؟ بل أية جريمة؟

فإذا قيل: لماذا لا تواجه الجهات العالمية والطبية باكتشافك؟ يقول: إنهم «يغيرون» منه ولا يريدون له أي نجاح ودفعوه بغيرتهم وغيظهم منه إلى الذهاب لآخر الدنيا لإعلان اكتشافه.

يا سلام!

إلى هذه الدرجة يريد الدكتور أحمد شفيق أن يستغفل الناس في مصر، إن من المؤلم تمامًا أن يحدث هذا كله دون أن تتحرك وزارة الصحة بل وزارة الداخلية للتحقيق مع الدكتور أحمد شفيق ولو على الأقل بتهمة دخوله الأراضي المصرية بعد أن عاش في منطقة موبوءة بالإيدز وفي أحد مستشفياته، وأن يُجرى له فحص لمعرفة هل انتقلت إليه العدوى لا قدر الله أم لا.

إنها الفوضى الكاملة العلمية والأخلاقية والأكاديمية والصحية وحتى الأمنية الصحية.

إني أتحدى الدكتور أحمد شفيق أن يعلن لأساتذة الكيمياء الحيوية والميكروبيولوجي في مصر مجتمعين أو حتى متفرقين اكتشافه هذا.

أتحداه.

في نفس الوقت أكاد أبكي غيظًا من فرط ما وصلت إليه غفلتنا وخيبتنا.

مصر العلمية كلها غير قادرة على إيقاف رجل مثل هذا عند حده.
أين نقابة الأطباء؟
أين كلية الطب؟
أين جامعة القاهرة؟
أين علماؤنا؟
أين عقلنا؟

ملخص لمحضر اجتماع اللجنة العلمية المكلَّفة بمناقشة الدكتور أحمد شفيق بشأن دواء الروماتويد

(أ) (١) أعلن د. شفيق في مؤتمر إعلامي دعا إليه مندوبي الصحافة والإذاعة والتليفزيون المحلي والعالمي، عن اكتشافه لعقار جديد عالج به حالات مرضى الروماتويد، استلزم بالضرورة مساءلته من عدة هيئات تعتبر نفسها، ويعتبرها الناس، مسئولة عن مهنة الطب وعن البحث العلمي في هذا البلد، وفي مقدمتها:

(١) وزارة الصحة، بصفتها المسئول الأول عن صحة المواطنين وسلامتهم، ممثلة في الهيئة العليا بالأدوية وغيرها من جهات الاختصاص بالوزارة.

(٢) نقابة الأطباء، بصفتها التجمع النقابي للمشتغلين بمهنة الطب، ومن بينهم د. شفيق، ترعى مصالحهم وتحافظ على المستوى اللائق بحسن أدائهم لعملهم قبل إخوانهم من المواطنين.

(٣) كلية طب قصر العيني خاصةً، وجامعة القاهرة عامةً، بصفة الدكتور شفيق أستاذًا بها، منتميًا إلى أعضاء هيئة التدريس، ومن ثم تُحسب عليهم تصرفاته، على المستويَين العلمي والأخلاقي، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا (معاذ الله) فشر.

(٤) الجمعية الطبية المصرية، وشُعَبها التي تعد بالعشرات، بصفتها التنظيم الشامل والأم لكل الأنشطة العلمية للأطباء على اختلاف تخصصاتهم.

(٥) أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، وبها مجلس خاص ببحوث الصحة والدواء، كما أن بها الهيئة المختصة بتسجيل براءات الاختراع.

(٦) نستطيع أن نُضيف إلى كل من ذكرناهم هيئات أخرى لا يحصرها العد، كنقابة الصيادلة، أو كمجلس الشعب مثلًا، وغيرهما كثير ممن يهتمون بصحة الناس وسلامتهم.

(٢) في إطار هذا التصور المتعدد الأبعاد، رحَّبت عندما دعيت للقاء أ.د. شفيق مرتَين: مرة يوم الأحد ٣ فبراير ١٩٨٥م مدعوًّا من الهيئة العليا للدواء بصفتي عضوًا بلجنتها العلمية ورئيسًا للجنتها المختصة بالأمراض الباطنة، ومرة ثانية يوم الثلاثاء ٥ فبراير ١٩٨٥م مدعوًّا من السيد الأستاذ الدكتور عميد كلية طب قصر العيني بصفتي رئيسًا لقسم الأمراض المتوطنة ورئيسًا لمجلس قسم الأمراض الباطنة الخاصة بالكلية. وسأركز فيما يلي على ما دار في اللقاء الثاني.

(ب) (١) بدأ اجتماع اللجنة المشكَّلة من رؤساء الأقسام المعنية برئاسة السيد العميد بكلمة قصيرة من أ.د. عبد المنعم حسب الله، وكيل الكلية، قال فيها إن كلية طب قصر العيني، بصفتها أعرق مدرسة للطب في المنطقة، وبصفتها قلعة للأداء الطبي الممتاز علمًا وخلقًا، تُرحب بروح البحث العلمي والاكتشاف المبتكر والتجريب الخلَّاق، وهي في الوقت ذاته تحرص على المُثل العليا للطب وآداب المهنة كما توارثها الأطباء منذ أبقراط الذي يقسمون قسمه عند تخرجهم.

(٢) دُعي أ.د. أحمد شفيق بعد ذلك لعرض أبحاثه الخاصة بالدواء الجديد، ولن أفيض في ذلك فهو أقدر عليه مني، ولكني أذكر أنه قال إن بداية البحث كانت تركز على استكشاف أثر هذا الدواء على الأورام السرطانية، وإنه قام بدراسة ذلك في فئران التجارب فثبت له أن هذا الدواء يوقف نمو الخلايا السرطانية دون أن يؤثر على الخلايا السليمة للجسم، وأنه لا يُحدث أية آثار جانبية على صورة الدم أو وظائف الكلى أو وظائف الكبد، وقد عرض علينا سيادته صورًا لفئران مصابة بخلايا سرطانية من نوع (وذكر اسم النوع الذي لا يهم القراء العاديين) عددها أربعون فأرًا كما قال عولج بعضها بالدواء الجديد وتُرِك البعض الآخر كعينة ضابطة، ثم قال إنه لفت نظره أثناء هذا البحث أن الفئران التي عولجت بالدواء الجديد ارتفعت فيها نسبة الأجسام المناعية Anti-Bodies مما نبَّهه إلى أن الدواء الجديد له مفعول إضافي وصفه بأنه carative أي شفني ودفعه هذا إلى تجربته

في الآدميين في أمراض الكولاجين Collagen deseases وإن لم يكن قد جرَّبه لهذا الغرض في الحيوانات لعدم وجود نموذج تجريبي.

(٣) عن تجاربه الإكلينيكية للدواء الجديد في الآدميين، قال الأستاذ الدكتور أحمد شفيق إنه جرَّبه في ٢٢ مريضًا بمرض الروماتويد وكانت النتائج مذهلة إذا قورنت بالأدوية التقليدية كالكورتيزون، والأدوية غير الكورتيزونية من مضادات الالتهاب، والعلاج بالذهب … إلخ. وأذكر أنه قال أيضًا أنه جرَّبه في علاج تقرُّح القولون غير النوعي.

(٤) كنت قد علمت في لقائي بسيادته قبل ذلك بيومين، في الاجتماع الذي دعت إليه الهيئة العليا للدواء، أن سيادته قام بتجربة دوائه الجديد في الآدميين المصابين بالأمراض السرطانية، فاستأذنت الحاضرين أن يدلي لنا سيادته بنتائج تجاربه في هذا المجال لأهميتها وخطورتها — رغم أن الاجتماع كان خاصًّا بما يسمى «الدواء الجديد للروماتويد» — قال سيادته إنه أعطى الدواء الجديد للآتي ذكرهم:

(١) أربعة مرضى بالسرطان الغُددي اختفت فيهم الأورام تمامًا بعد العلاج.

(٢) ثلاثة مرضى بسرطان الكبد الأولى تم تشخيصهم بالموجات فوق الصوتية (ولكن لم تؤخذ منهم عينات من نسيج الكبد بإبرة البزل) وهم جميعًا في طريقهم إلى الشفاء بعد علاجهم بالدواء الجديد.

(٣) مريض بسرطان المستقيم المصحوب بثانويات سرطانية في الكبد (كما ظهر بفحص الموجات فوق الصوتية)، أُجريت له أولًا عملية تفميم للقولون Colostomyh ثم أُعطِي الدواء الجديد، فبدأ الورم الأول في المستقيم والأورام الثانوية في الكبد في التضاؤل.

(٤) مريضة بسرطان الغدة الدرقية المصحوب بانضغاط في الشريانين السباتيين، أعطيت الدواء الجديد حقنًا في الورم ذاته فتساقط الورم وعاد الدم إلى التدفق في الشريانين السباتيين.

(٥) أستأذن قارئ هذا الملخص أن أضيف إليه معلومة أخرى أذاعها علينا أ.د. أحمد شفيق في لقاء ثالث يوم الأحد ١٠ فبراير ١٩٨٥م مع الهيئة العليا للدواء، وذلك استكمالًا للمجالات التي يقول سيادته إن الدواء الجديد أثبت فاعليته فيها، قال سيادته في هذا الاجتماع الثالث إن دواءه الجديد أثبت أيضًا أنه مضاد للفيروسات كلها فقد شُفِي به مرضى مصابون بالالتهاب الكبدي الفيروسي، وكذا شُفِي به تاليل الجلد.

(ج) (١) بعد أن استعرض أ.د. شفيق أبحاثه، قام السادة الزملاء رؤساء الأقسام المختلفة بسؤاله كل فيما يخصه، بدأ بالتخصصات العلمية المعملية: أ.د. الهواري في الفارماكولوجيا، أ.د. ندا في الباثولوجيا، أ.د. نبيل البلقيني وأ.د. أسامة سليمان في النواحي السرطانية، أ.د. نوال عفيفي في الباثولوجيا الإكلينيكية. ثم استكملت الاستفسارات في التجارب الإكلينيكية من السادة الأساتذة: عبد العظيم رفعت في الجراحة، د. حسين عبد الفتاح عبد العظيم، د. محمد عبد الرازق في الأمراض الباطنية، د. عدلي الشربيني في التخدير، د. أحمد خالد في الروماتيزم والعلاج الطبيعي، وطبعًا لن أتعرض لما قالوه بالتفصيل، فهو مرة أخرى أقدر على ذلك مني، ولكن أكتفي في هذا الجزء من العرض بذكر بعض ما لفت نظري في مناقشاتهم مع الأستاذ الدكتور أحمد شفيق.

(٢) سأل أ.د. الهواري عما إذا كانت الدراسات الفارماكولوجية المتعارف عليها قد أُجريت على هذا الدواء الجديد، مثل تحديد تركيب المادة الفعالة، وطريقة قياس تركيزها في الدم، وغيرها من الدراسات الأخرى والتي تشمل امتصاص الدواء وتوزيعه في أجزاء الجسم المختلفة، ومدى «سميته» على المدى القصير والمدى الطويل، وطريقة تعقيمه والطريقة المثلى لإعطائه، وهل أُجريت عملية دراسات للتأكد من خلوه من التأثير على الأجنَّة وإحداث التشوهات أو السرطانات.

وكانت إجابة أ.د. شفيق عن هذا التساؤل مزدوجة، قال أولًا إن هذا الجزء من البحث قام به زميله أ.د. مرزباني الموجود حاليًّا بالسعودية، وإنه لا يستطيع الإجابة عن هذه التساؤلات لأنها ليست من تخصصه ولا يعرف عنها شيئًا، فلما قيل له إن أ.د. مرزباني متخصص في الكيمياء التخليقية وليس في الفاروماكولوجيا، قال ثانيًا إن هذه الدراسات لا داعي لها في الحقيقة لأن دواءه الجديد ما هو إلا مادة معروفة مستعملة في أغراض أخرى ولم يُعرَف عنها أنها أحدثت آثارًا ضارة من قبل.

قلت له عندئذٍ، إذن الدواء الجديد ليس جديدًا بالمعنى المفهوم، بل هو استعمال جديد لدواء قديم، فأمَّن سيادته على ما استنتجته، فقلنا له: إذن لماذا حرصك الشديد على السرية؟

(٣) سأل أ.د. نبيل البلقيني عما إذا كانت الفئران التي استُعمِلت في التجارب من نوع «الاستيلاء الداخلي» لأن أي دراسة تُجرى على فئران من غير هذا النوع تعتبر مرفوضة علميًّا لعدم تجانس الحيوانات، ومن ثَم يستحيل مقارنة استجابتها للمادة التي يُراد دراستها، وقال أ.د. نبيل إنه متأكد أن مثل هذه الحيوانات اللازمة للدراسة التجريبية السليمة لا توجد في معهد الأورام القومي، ولا في أي مكان آخر في مصر إلا في معامل النامرو الأمريكية بالعباسية.

(٤) سألت الأستاذة الدكتورة نوال عفيفي أسئلة كثيرة فنية عن الجلوبيوباينات المناعية التي كانت مدخل أ.د. أحمد شفيق إلى تجربة الدواء في الآدميين المصابين بأمراض الكولاجين، وأعترف أنا شخصيًّا بأني استفدت كثيرًا من أسئلتها هذه، وتعلمت منها في هذه الفترة القصيرة الكثير، وإن كان أ.د. شفيق قد آثارته هذه الأسئلة وعلَّق عليها محتدًّا بقوله إن أ.د. نوال تعامله كما لو كان تلميذًا، فلم أتمالك نفسي من أن أقول له إننا جميعًا أمام العلم تلامذة أبديون! وإن مهنتنا تتطلب منا دائمًا أن نصغي جيدًا إلى ما يقوله الآخرون في التخصصات الوثيقة الصلة بعملنا، وإن هذه هي الفائدة التي نجنيها من عرض أبحاثنا وآرائنا على الزملاء في التخصصات المختلفة ومناقشتها معهم بصدر رحب لا يجزع من النقد قبل نشرها على الملأ. وذكَّرته بقول أستاذنا المرحوم أنور المفتي عندما كان يقول لنا — نحن تلامذته — يا أولادي الطب مالوش كبير! أنا في حاجات في الطب أتعلمها من تمرجية.

ومما أذكره أيضًا من مناقشة الدكتورة نوال تعجُّبها من وصف أ.د. شفيق لدوائه الجديد بأنه يجمع بين كونه صفتَين لا يمكن أن يجتمعا في دواء واحد، وقالت إن هذا الجمع بين النقيضَين شيء مستغرب.

(٥) سأل أ.د. حسين عبد الفتاح عن المعايير التي استعملها أ.د. شفيق: أولًا في تشخيصه لمرض الروماتويد، ثانيًا في تقييمه لنتائج العلاج بالدواء الجديد، هل أجرى الفحوص المعملية الكاملة، وهل قام بتصوير الأجزاء المصابة قبل وبعد العلاج، وفحص العظام والمفاصل بالأشعة، وفحص المفاصل بمنظار المفصَل الضوئي، وأخذ عينات نسيجية من الأجزاء المصابة قبل وبعد العلاج؟ أم هل اعتمد على مجرد الأعراض الذاتية subjective للمرضى دون استعمال معايير موضوعية، لأن الأولى قد تتأثر بالعوامل النفسية.

ومن المعروف أن مرضى الروماتويد يتأثرون كثيرًا في أعراضهم بالعوامل النفسية، ثم إن المرض نفسه مرض متقلب، يتميز بنوبات من الحدة وأخرى من التحسن التلقائي حتى بدون أي دواء؛ ولذلك يجب متابعة المريض مدة طويلة تمتد سنوات قبل الحكم على أي علاج جديد بأنه فعال، فما بالك بأن يقال إنه يشفي تمامًا، فيا ترى ما هي أطول مدة تتبع فيها أ.د. شفيق مرضاه بعد علاجهم بدوائه الجديد؟

وكان رد أ.د. شفيق: أطول مدة تتبعت فيها مريضًا كانت ثلاثة شهور.

(٦) قال أ.د. أحمد خالد (والعهدة على الراوي) إنه عاين حالتين ممن تعاملوا مع علاج أ.د. أحمد شفيق الجديد، وإن إحدى الحالتَين كانت شقيقة أحد السادة أعضاء هيئة التدريس بالكلية، وكانت تعاني من خُراج بالفخذ إثرَ حقنها بالدواء الجديد، وإن الحالة

الثانية قالت إنها لم تتحسن بعد علاجها بالدواء الجديد، وطلب منا سيادته أن نعفيه من ذكر أسماء الحالتين حتى يستأذنهما في ذلك.

(٧) فقال أ.د. عدلي الشربيني: «القول المأثور يقول: البينة على من ادَّعى. لماذا لا يأتي لنا أ.د. أحمد شفيق بالاثنتين والعشرين حالة التي عالجها ويعرضها علينا ليقنعنا؟» واعترضت أنا على هذا الاقتراح لأكثر من سبب: فأولًا إنَّا لم نعاين هذه الحالات قبل العلاج حتى نحكم على مدى ما أصابها من تغير بعده؛ وثانيًا لأننا سنعتمد في تقييمنا على ما يقصه علينا مثل هؤلاء المرضى من أعراض ذاتية دون الحكم بمقاييس موضوعية كالتي أشار إليها أ.د. حسين عبد الفتاح؛ وثالثًا لأن مدة العلاج والتجارب لم تتجاوز في أقصاها ثلاثة شهور، وهي فترة قصيرة جدًّا للحكم على أي علاج في مرض مزمن ومتقلب كمرض الروماتويد، وهو ما أشار إليه أيضًا أ.د. حسين عبد الفتاح كما سبق.

(٨) عبَّر أ.د. عبد العظيم رفعت عن حرجه عندما سأله الناس عن الدواء الجديد، بصفته رئيسًا لقسم الجراحة الذي ينتمي إليه أ.د. أحمد شفيق مكتشف الدواء، فكان رد أ.د. عبد العظيم لا أدري عنه شيئًا!

(د) (١) فيما يخصني في هذه الجلسة وما دار فيها من مناقشات، ركَّزت كلامي على المبادئ العامة، قلت لولا أنه لفت نظري في المناقشات عمومًا محاولة الزملاء استكناه طبيعة الدواء ومعرفة سره، وذكَّرني ذلك ببرنامج يُذاع في محطة الإذاعة البريطانية اسمه «عشرون سؤالًا» يحاول فيه المتسابقون معرفة موضوع مجهول لهم من خلال سؤالهم لصاحب السر ٢٠ سؤالًا لا تزيد، ويبدأ السؤال الأول عادة ما يلي: «معدن أم نبات أم حيوان؟» وقلت لهم إن د. شفيق تفضَّل وقال لهم إنه من مصدر حيواني، وإنه ليس مادة جديدة بل هي مادة معروفة من قديم، وإنما هو يستعملها في أمراض لم تُستعمل فيها من قبل، وقلت إنني أربأ بمناقشاتنا أن تنجر إلى نوع من حل الألغاز، والأحاجي، لأن القضية أهم من ذلك بكثير، إنها قضية المنهج العلمي في المقام الأول؛ لأن العلم يتميز بمنهجه أكثر مما يتميز بنتائجه واكتشافاته فهل اتبع أ.د. أحمد شفيق هذا المنهج في بحثه واهتدى به في التوصل إلى نتائجه واكتشافاته؟ بالتأكيد لا، هناك منهج معروف ومعترف به عالميًّا في إجراء التجارب قبل الإكلينيكية والإكلينيكية على أي عقار جديد قبل الإعلان عنه كدواء يدخل الترسانة العلاجية، فهل اتبع أ.د. شفيق هذا المنهج خطوة خطوة في بحثه؟ بالتأكيد لا!

(٢) وقلت ثانيًا: إن حرص أ.د. شفيق على سرية دوائه لا يرجع بالتأكيد إلى رغبته في الشهرة؛ فهو الجراح الأشهر (المرشح لجائزة نوبل) والذي قام بالجراحات الرائدة في

نقل الأعضاء من الموتى وزرعها في الأحياء كما سمعت رغم كارثة النتائج، ولا إلى رغبته في الكسب المادي، فهو غني عن ذلك على قدر علمي، ولكن الباعث إلى حرصه على السرية كما أتصور هو خوفه من أن يُنتزَع منه سبقه العلمي، وهو حق مشروع لكل عالم يعرف قدر اكتشافه، إذن لماذا لا يعطي أ.د. شفيق دواءه الجديد رقمًا كوديًّا يسجله ثم يقوم بعرض نتائجه على المحافل العلمية من دوريات وجمعيات ومؤتمرات لمناقشته مناقشة مستفيضة، لا شك أنه سيكون أول المستفيدين منها، قبل اللجوء إلى وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون، هل هذا هو السلوك الأمثل للعلماء، الذين عُرف عنهم التواضع والزهد في الدعاية والبُعد عن الأضواء وعدم التهافت على الشُّهرة، والإمعان في الدقة والنقد الذاتي والحرص على استطلاع رأي زملائهم وأندادهم، والاستماع إلى ملاحظاتهم والاستفادة منها في تصحيح مسار أبحاثهم، والاعتزاز بأن يكونوا قدوة صالحة ومثالًا يُحتذى لتلاميذهم في الكد في طلب الحقيقة والبحث عن المعرفة.

إن هذا الدواء الجديد حتى لو ثبتت فائدته فيما بعد، وحتى لو تأكد ما يقول صاحبه إنه من أخطر اكتشافات القرن العشرين، وإنه لا يقل أهمية في ذلك عن البنسلين فقد وُلد ولادة غير شرعية، وإلا تصوروا معي ماذا يكون الحال لو جاء أي دجَّال وأعلن في مؤتمر صحفي أو إعلامي عن اكتشافه لعلاج حاسم للسرطان ووقفنا نحن الهيئة الطبية والعلمية المسئولة في مصر لا نحرك ساكنًا إزاء هذا الادعاء، ماذا يكون الحال؟ ستعجز مطارات مصر كلها عن استيعاب المساكين القادمين من كل أنحاء العالم جريًا وراء الأمل الكاذب، وستمتلئ جيوب الدجال بالمال، ثم ماذا؟ فضيحة عالمية لمصر والطب المصري.

(٣) وقلت ثالثًا إن حكاية أ.د. شفيق هي في رأيي القشة التي قصمت ظهر بعير؛ فقد أظهرت بوضوح مدى العلاقة غير السليمة بين الدوائر الطبية ووسائل الإعلام، وهي قضية معقَّدة وشائكة سبق أن تعرضت لها منذ سنوات في برنامج تليفزيوني بمناسبة يوم الطبيب، وكان الحوار بيني وبين نقيب الأطباء السابق أ.د. حمدي السيد وقام بتقديمها الأستاذ سمير صبري، وخلاصة رأيي في هذه القضية أنها علاقة مشبوهة تنقصها الموضوعية العلمية ولا تبتغي وجه الله؛ فالأطباء من ناحية بعضهم على الأقل يبغون الشهرة السريعة وترويج العيادات، ووسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون تجري وراء الإثارة وملء الصفحات بالأخبار، والذين يدفعون ثمن هذا وذاك هم المرضى المساكين الذين يتعلقون بأي بارقة أمل في الشفاء، والعملية كلها بالفروض والشللية والعلاقات الشخصية المريبة، وأي متتبع للمقالات والبرامج الطبية المقروءة والمسموعة والمرئية سيكتشف بسهولة أن وراءها

حملات منظمة لدفع أطباء بعينهم إلى المقدمة، كما لو كانوا يتمتعون بأبونيهات دائمة تفتح لهم أبواب وسائل الإعلام على مصراعيها، وسيكولوجية الإعلام معروفة؛ قُل للناس يوميًّا «اشرب كوكاكولا» حتى يأتي يوم ينسى الناس فيه أن هناك شيئًا اسمه الماء، ولا يشربون إلا الكوكاكولا، نفس الأسلوب السيكولوجي المعتمد على الإلحاح والإيحاء المستمر يؤدي في النهاية إلى قولبة سلوك الناس وضمان تسييرهم في الاتجاه المرسوم مسبقًا.

هذه هي القضية باختصار، ولا أحد يتصدى لعلاجها؛ لا نقابة الأطباء، ولا الجمعية الطبية المصرية ولا الجامعات، وأخشى أن أقول إن السبب في ذلك أن البعض من أفراد هذه الهيئات والقائمين على تسيير سياساتها هم أنفسهم شركاء ضالعون في هذه العلاقة المريضة ومستفيدون منها، وأنا شخصيًّا لا أعتقد أن هذه المعضلة ستُحَل في المستقبل القريب؛ لأنها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بواقع المجتمع المصري والأمية السائدة بين أفراده، وانعدام وجود رأي علمي نقدي منزَّه عن الغرض، وسيطرة قيم الربح السريع بأي وسيلة على أي قيم أخرى مما يعتز بها العلم والطب على مر العصور.

أنا لا أطالب بأن يكون العلم كهنوتًا وأن نكون نحن سدنته، بل إني أحلم باليوم الذي يصبح فيه العلم ملكًا لكل مواطن، وأن يصبح المنهج العلمي هو أسلوب تفكيرنا ونمط حياتنا اليومية، ولكن هكذا تسير أمورنا الآن.

هذه باختصار، يا حضرات الزملاء هي القضية الرئيسية، وما حكاية الأستاذ الدكتور أحمد شفيق إلا صورة لما وصلت إليه من تأزُّم.

صورة طِبق الأصل من تقرير الأستاذ الدكتور أبو شادي الروبي
أستاذ ورئيس قسم الأمراض المتوطنة
ورئيس مجلس قسم الأمراض الباطنة الخاصة

وإذا كان الدكتور أحمد شفيق قد استطاع بمساعدة بعض الزملاء الذين لقَّنوه إجابات تلغي عنه العقوبة، فإن هذا المحضر وحده يكفي لكشف مدى «علمية» العالم العالمي عن المادة التي يجربها بمنتهى الجرأة واللامسئولية على مرضاه المساكين.

بقي أن يُحاسَب الدكتور أحمد شفيق محاسبة علمية على عقاره المزعوم لعلاج الإيدز.

رد على يوسف إدريس

لم يستطع د. يوسف إدريس مواصلة الصبر على جنوحي وعقوقي وقرر في نهاية الأمر أن يقوم بواجبه ويطلب من وزراء الداخلية والصحة والتعليم وسلطات الجامعة أن تعاقبني في صفحة كاملة نشرها الأهرام صباح الإثنين الماضي، وقد حفلت هذه الصفحة بكل ما يمكن أن يتردد في الحوار من فاحش القول وأرذله، لماذا؟

(١) لأنني أكتب في الصحف مواضيع غير طبية وأنا طبيب، وما العيب في هذا؟ فالدكتور إدريس يكتب القصة ومؤهله ليس في الأدب أو الثقافة إنما هو بكالوريوس في الطب العام، وهو مؤهل لا يتيح لصاحبه أن يزاول الطب ولا الأدب، بينما مؤهلي ودرجاتي العلمية وأبحاثي تتيح لي أن أصبح أستاذًا في الجامعة، ورئيسًا للأكاديمية العالمية للجهاز الهضمي، ونائبًا لرئيس الجمعية العالمية لأساتذة القولون والشرج، ونائبًا لرئيس الجمعية العالمية للعقم، وعضو هيئة تحرير أربع مجلات علمية عالمية، ورئيس تحرير المجلة الطبية المصرية، وتجاربي وأبحاثي أتاحت لي الحصول على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٧م واختياري في الموسوعة الدولية الأمريكية وكذلك الإنجليزية للعلماء البارزين في عامي ١٩٨٥م و١٩٨٦م، وهذه المؤهلات والدرجات والمراكز من شأنها أن يكون لي أصدقاء ومعارف وصلات وعلاقات عامة، وتفسح لي المجال للتحدث مع كثير من الشخصيات، وهذا من شأنه أن يدفعني إلى الخوض في موضوعات كثيرة ليس من بينها الطب رغم أن الطب مهنتي.

ومن الطبيعي أن ما أكتبه لا يضيف إلى معلومات السيد يوسف إدريس شيئًا فهو عالم بارز، مسئول عن البشر ومنوط إليه تقييمهم وإصلاحهم والأخذ بيدهم، إنه الوصي عليهم وعلى العلم والعلماء، ومن الطبيعي أن يكون قد امتلأ بالعلم وفاض على جيرانه وأصحابه، وبالتالي لم يعد في حاجة إليه!

(٢) والسبب الثاني لجنوحي وعقوقي وعدم رضاء د. إدريس عني هو ترشيحي لجائزة نوبل، وهو أمر كما يتضح من مقاله تم رغم أنفه ولم يعلم به، فأراد أن يتحقق من وقوعه، ثم أعلن في مقاله أن لم يكن ثمة ترشيح ولفق قصة على لسان صديقَين له، ولم يشفع كلامه بدليل واحد يثبت أنه يتحدث نيابة عن معهد نوبل.

والدليل الوحيد الساذج الذي يسوقه د. يوسف هو سؤاله لأحد أساتذة كلية الطب في جامعة السويد ولم يذكر اسمه لأنه لا وجود له بالطبع، حيث قرر هذا الأستاذ أنه لا يعرف أحدًا باسم أحمد شفيق مرشحًا لجائزة نوبل، ولم يذكر السيد إدريس صلة هذا الأستاذ بجائزة نوبل أو بلجنتها أو علاقته بالترشيح وشروطه.

لكن السيد يوسف إدريس لم يقتنع فسأل صديقًا آخر بدافع حرصه على المصلحة العامة — يدعى الدكتور عطية أستاذ الأدب العربي في جامعة استكهولم — فأغرق هذا الأستاذ في الضحك وحكى له قصة من قصص تشيكوف، تثبت روايتها إلى أي حد وصلت مهانة العلم والعلماء على يد الدكتور يوسف إدريس وصديقه.

والحقيقة أن عددًا من الهيئات العلمية العالمية رشَّحتني لجائزة نوبل، وقد عرضت مستندات الترشيح على مجلس كلية الطب جامعة القاهرة في جلسته المنعقدة بتاريخ ١١ / ٧ / ١٩٨٢م، وجاء في تقرير مجلس الكلية المرفق طيه ما نصه:

> كما توجه المجلس لسيادته «د. أحمد شفيق» بخالص التهنئة على ترشيحه لجائزة نوبل من جهات علمية كثيرة لها وزنها العلمي عالميًّا، سبق وقلنا إن الجهة الوحيدة التي لها حق الترشيح هي الأكاديمية السويدية وليس غيرها، مما يشرف كليتنا ويرفع اسمها عاليًا في الأوساط العلمية والعالمية، كما يشرِّف مصر جميعها أن يصل عالم من أبنائها البررة إلى هذا المستوى الرفيع الذي يحق لها أن تفاخر به. وليس معنى أنني لم أحظَ بالجائزة أنني لم أرشَّح، بل الأمر الذي يجب أن يعلمه د. يوسف إدريس أن ما بين الترشيح والحصول على الجائزة تمر عدة سنوات، فلم نسمع عن مرشح حصل على الجائزة في نفس السنة التي رُشِّح فيها.

(٣) والسبب الثالث لجنوحي وعقوقي في نظر د. إدريس هو أنني أريد أن أكون عالميًّا ويبدو أنه غافل أو يتغافل، فلقد تعديت المحلية إلى العالمية منذ عشرين سنة على الأقل، وأبحاثي موجودة في المجلات والكتب العلمية، وتُدرَّس باسمي في كليات الطب في جميع

أنحاء العالم، ويستطيع د. إدريس أن يقرأ فيها عمليات أحمد شفيق الجديدة والمسماة باسمه منذ الستينيات من هذا القرن، ونشير عليه بقراءة بعض الكتب الطبية ليرى بعينه كيف أن د. شفيق أصبح عالميًّا منذ أمد، وفيها أول عملية جراحية أطلق عليها الإنجليز «عملية شفيق» وكتاب التشريح الجراحي طبعة عام ١٩٨٣م، وكتاب العقم والدوالي طبعة عام ١٩٨٣م، وعشرات الكتب الأخرى، ومئات الدوريات العلمية العالمية، والتي لا يتسع المكان لسردها، وإلى جانب هذا المقال مرفق «قائمة» باكتشافات وابتكارات في الطرق الجراحية التي صارت تعرف باسم د. شفيق وتدرَّس لا في الأدب كما قد يتوهَّم بل في الأكاديميات الطبية والجامعات، سواء لطلبة كليات الطب أو الدراسات العليا. (ملحوظة: لا توجد قائمة مرفقة.)

وإذا تمعَّن د. إدريس في القائمة المرفقة لوجد أنني قمت باكتشاف تسعة أمراض جديدة لأول مرة في تاريخ العالم. (ملحوظة: لم يذكر اسمًا واحدًا فقط من التسعة أمراض.) كما قمت بوصف ثلاثين عملية جراحية جديدة، وكذلك عشر نظريات في توضيح بعض مسببات الأمراض المجهولة السبب، كما قمت باكتشاف صفات تشريحية وفسيولوجية جديدة، وفي اللستة المرفقة يجد د. إدريس أسماء الكتب والدوريات المنشور بها هذه الأبحاث، وسنة طبعها ورقم الصفحة. (ملحوظة: لا يوجد لِست أو قوائم.)

أما بالنسبة للممارسة الجراحية فيكفيني فخرًا أنه في الوقت الذي يهرع فيه آلاف المرضى من مصر إلى الدول الأجنبية في أوروبا وأمريكا لإجراء عملية جراحية لهم أو لمجرد الكشف عليهم، يتوافد عليَّ في القاهرة مرضى من أوروبا وأمريكا لكي أقوم بإجراء عمليات جراحية لهم، كما حضر إليَّ في شهر مايو الماضي مندوب جمعية الكولوستومي الأوروبية يطلب عقد اتفاقية لإجراء جراحات لآلاف المرضى الذين يريدون تحويل فتحة الإخراج من جدار البطن إلى مكانها الطبيعي، وقد قمت فعلًا بإجراء هذه الجراحة على بعض منهم، ومرفق صورة من الخطابات المتبادلة. (ملحوظة: لا يوجد أي مرفق. وما علاقة جراحة نقل بالمستقيم بالإيدز؟)

ولو كان د. إدريس قد حظي بشرف الجلوس في مقاعد الدرس أمامي لما اختار الأدب حرفة؛ فمعظم الذين تخرجوا من بين يدي صاروا مدرسين وأساتذة وعلماء (بالتواضع العلماء) وليس هذا ادعاء بأن الطب مهنة أفضل من مهنة الأدب، ولكنها على الأقل مهنة تفيد وتشفي الناس أوجاعهم بالحق لا الكتابة؛ فالأدب والصحافة يجب توظيفهما لما ينفع الناس، لا للادعاء عليهم وقذف النابهين منهم بالحجارة.

(٤) والسبب الرابع لجنوحي وعقوقي في نظر د. إدريس هو الحلم؛ فيقول إني أحلم كثيرًا (ولم أفقد هذا) وهذا عيب خطير ينبغي أن تتحرك له أجهزة الداخلية — التي لم يكف عن تحريضها عليَّ — والواقع أننا كلنا نحلم بأن تكسو الخضرة أرض مصر، ونحلم بشفاء الناس، ونحلم بألا يضع د. إدريس يده في يد العقيد، وهو عدو مصر، وينتهك أقدس ما خلقه الله وهو الإنسان (كيف؟!) وأنا فعلًا أحلم بأن دواء السرطان الذي أزعم كشفه — كما يقول صاحبنا — أحلم بأن يحقق شيئًا لضحايا هذا المرض الخطير، وأحلم بأن يحقق عقاري MMI علاجًا شافيًا للإيدز، أحلم بأشياء كثيرة، أحلم بأن يشفيك الله فكلنا مرضى، ولكن لله وسائل وطرق، وكل الناس أيها الصديق يحلمون، بعضهم يحقق حلمه، وبعضهم يعجز، ومعظمهم يظل أسير حلمه إلى أبد الدهر، والعلماء هم أول الحالمين، فلم يسبق لعالم حقق كشفًا دون أن يحلم به لدرجة الجنون. (سبق وفرقنا بين حلم العامل الذي يدفعه إلى الجهد والعرق والتحقيق وحلم الفهلوي.)

(٥) والسبب الخامس لجنوحي وعقوقي هو أني أتسلح بعدد من الأصدقاء والصديقات الصحفيين في مختلف الصحف والمجلات، حبب الله فيك خلقه؛ فأنا صديق لأناس كثيرين منهم من يعمل بالصحافة، ومنهم من يعمل بالأدب والهندسة والتجارة، أما أنني أشتري صداقة بعضهم بالمال، فلمَ؟ ولماذا تتهمهم يا سيد يوسف؟ هل شراء الصداقة بالمال طريقة مُثْلى للاحتفاظ بصديق؟ هل جربت هذا الطريق وسلكته؟ إنني أترك للصحفيين حرية الرد على هذا الاتهام الذي لا يجرؤ أحد يمسك قلمًا على قذف الشرفاء به، وهم زملاء لك، تضمك وإياهم نقابة واحدة، وحقل عمل واحد، كيف تجرؤ على أن تتهم زملاءك بالرشوة، والغرض، والهوى؟

(ملحوظة: الدكتور شفيق يفتح بيته الذي يسميه البيت الأبيض لموائد تُقام للصحفيين الإعلاميين حافلة بما لذَّ وطاب، ويقوم بعمل العمليات الجراحية لهم ولأقاربهم بالمجان، وهم ليسوا من «أصدقائه» ولكن من «عملائه».

أعلن عن هذا العلاج الجديد في زائير لكن تحت راية مصر واسمها وصورة رئيسها وفي وقت أغلق فيه عيادته، وألغى التزاماته، وترك أسرته، وعاش في زائير، يبحث ويعالج المرضى على مشهد من علماء العالم وباحثيه.)

ولقد خشي د. يوسف على الأهل والمواطنين من أن أكون قد نقلت جرثومة المرض إليهم وأنا عائد، وكان الأولى به قبل أن يذكر هذا السخف أن يشيد بي لتضحيتي — وأنا رب أسرة وأولاد — ألقيت بنفسي في أتون هذا الطاعون، محاولًا إنقاذ الناس، قد أنجح

وقد أفشل، ولكني أحاول، فهل هذا جزائي؟ إن العالم هو الذي سيحكم عليَّ، والباحث لا يعرف النكوص أبدًا، فإذا فشل فلن يرحموه، ويكفيه فخرًا أنه حاول، في حين ظل الكثيرون يقولون ويجتمعون ويجترون الكلام، ويقولون اذهب أنت وكافح؛ فإنَّا ها هنا قاعدون.

ثم يتعجب د. إدريس من أن يكتشف باحث مصري عقارًا لمرض خطير يشغل العالم كله، ونحن نسأله ما العجب في هذا؟ أيكون العجب لأن المكتشف مصري (هذا لو كان الاكتشاف حقيقيًّا!) هل لو كان المكتشف أمريكيًّا أو فرنسيًّا زال العجب؟ يا للهوان والسخف، وحقًّا لقد هُنَّا على أنفسنا وعلى العالم ويحق لنا أن نتجرع كأس الهوان، والذي نعيشه اليوم، ونذوق مرارته.

أتعرف معنى شراء الناس؟ أتعرف معنى أن تصنع منهم جنودًا مرتزقة يرفعون رايتك ويحاربون بسلاحك؟ يشهد الله على أنك ظالم لزملائك الصحفيين والكُتاب، وظالم لي وظالم لنفسك، وظالم لقلمك بأن يلوث قدسيته بالخوض في هذه المهاوي.

(٦) والسبب السادس لجنوحي وعقوقي هو أني لست عالميًّا في نظرك كالعميد السابق لكلية الطب، والذي تخرج معك في نفس الدفعة (هذا غير صحيح فهذا يسبقني بثلاث سنوات)، وسلك طريقًا وسلكت أنت طريقًا آخر، وهو عظيم لماذا؟ هنا تظهر قمة موضوعيتك يا دكتور إدريس، ففي رأيك أن العميد السابق عظيم لأنه أوقفني عن العمل بسبب اكتشافي لدواء يشفي مرضى الروماتويد، أتقيس العظمة بهذا المقياس؟ أهذه هي الموضوعية أم الانحياز الصارخ؟ هل يصبح الأستاذ الذي يضطهد زميله عظيمًا؟ — الذي قدمه للتأديب عميد الكلية وليس مجرد أستاذ منافس — ويحول بينه وبين التمكن من البحث العلمي، هل هذه هي العظمة؟ وليقرأ معنا د. إدريس نص ما قاله مجلس تحقيق جامعة القاهرة، وقد استمر التحقيق سنتين كاملتين، استمع المجلس خلالهما إلى أقوال عميد كلية الطب وبعض أساتذتها، وإلى أعضاء هيئة التدريس بمعهد السرطان، وبعض أعضاء اللجنة التي شكلتها الهيئة العليا للأدوية، وقد انتهى المجلس إلى إصدار القرار التالي في ١٥ أبريل ١٩٨٧م: قرر المجلس براءة أ.د. أحمد شفيق الأستاذ بكلية الطب مما نُسب إليه. (وحذف عمدًا الفقرة التالية التي تقول: براءته من تهمة استعمال دواء جديد على المرضى مباشرة، فدافع عن نفسه بأنه دواء معروف وقديم.)

وجاء في حيثيات الحكم أنه قد استبان للمجلس من الأوراق أن أ.د. أحمد شفيق أجرى وفقًا لبروتوكول اتفق عليه مع أ.د. المرزباني الأستاذ بمعهد السرطان، مجموعة من

التجارب العلمية — على مَن؟ — كما أجرى هو تجارب عملية على متطوعين انتهت إلى اقتناعه بفاعليتها كاكتشاف لدواء جديد لمرضى الروماتويد، نشر نتائجها في المجلة الطبية (عدد يناير ١٩٨٥م) قبل أن يدعو لمؤتمر صحفي يبشر بهذا الكشف، الذي يساعد في شفاء مرضى الروماتويد (لماذا لم يعرضه على علماء العالم أولًا وفي مجالات العلم ودورياته) وأن المجلس يقتنع بأن ما أعلنه من اكتشاف دواء جديد لم يكن ادعاء منه بشيء لا أساس له من الواقع، أو نابعًا من فراغ، بل كان نتيجة أبحاث أجراها، وقدَّر صلاحية نتائجها كأساس لدواء جديد لمرضى الروماتويد.

وذكرت الحيثيات أيضًا أن اللجنة التنفيذية لدواء الروماتويد المشكَّلة برئاسة رئيس هيئة الأدوية انتهت إلى إيجابية مرحلة الأبحاث قبل الإكلينيكية التي أُجريت على الدواء الذي أعلن اكتشافه، وأوصت بمواصلة الدراسات الخاصة بإعداد المادة في الشكل الصيدلي المناسب تمهيدًا لبدء المرحلة في اللجنة التنفيذية لدواء الروماتويد المشكَّلة برئاسة رئيس هيئة الأدوية، انتهت إلى إيجابية مرحلة الأبحاث قبل الإكلينيكية التي أُجريت على الدواء الذي أُعلن اكتشافه، لبدء المرحلة الإكلينيكية، الأمر الذي يدل على أن ما أُعلن اكتشافه من دواء له أساس علمي.

والواقع أن شركة تنمية الصناعات الكيماوية بالتعاون مع الهيئة القومية للرقابة والبحوث الدوائية وبعض المراكز العلمية بجمهورية مصر العربية قامت بإجراء الأبحاث قبل الإكلينيكية على دواء الروماتويد؛ وذلك بناءً على قرار اللجنة العليا للأدوية في جلستها بتاريخ ١١ / ٣ / ١٩٨٥م وشكَّلت لجنة بحثية تنفيذية برئاسة أ.د. محمود درويش نائب رئيس جامعة القاهرة وعميد كلية الصيدلة سابقًا، وانضم إلى هذه اللجنة أساتذة من كليات الطب والصيدلة والمركز القومي للبحوث، وبعد حوالي عامَين من إجراء الأبحاث على دواء الروماتويد توصلت اللجنة إلى أن الدواء له أثر مضاد للروماتويد، وله أثر مانع للالتهابات، كما أنه ليس له آثار سامة. (ملحوظة: استقال الأستاذ الدكتور نعمان محمد الأستاذ بكلية الحقوق ورئيس لجنة التأديب؛ للتلاعب الذي استشعره من أعضاء المجلس في صالح أحمد شفيق.)

(٧) هذا فيما يختص بالروماتويد، أما الإيدز فأمره أخطر يا سيدي، وهذا سر عقوق د. أحمد شفيق السادس والسابع والثامن … والأخير أيضًا، وبادئ ذي بدء، لا يمكن لطبيب معالج أو أستاذ أو باحث أو حتى شخص ما أن يجد جديدًا ينفع الناس ويصمت دونه؛ فالفيصل في كل أمر من الأمور هو الفعل ونتيجة الفعل، ونسي أن يقول إن الفيصل الأهم

هو موافقة الجهات العلمية المختصة على الدواء وعلى عدم خطورته، وليس الكلام؛ فالكلام كثير يا د. إدريس وأنت خبير بصناعته، ولكن الفعل هو القليل.

في هذه المرة يا سيد إدريس لم أستأذن العميد السابق العظيم، وبالطبع لم أستأذنك، باعتبارك وصيًّا على العلم والعلماء والأمن ووزارة الداخلية والصحة؛ لأنك أنت وأستاذك — هذه المرة — خارج اللعبة تمامًا فلا علم لك ولا معرفة بشيء، وأنت لم تخض تجربة أناس يموتون حولك كل ساعة في زائير، ولا اجتمعت ولا التقيت بعلماء وباحثين انقطعوا عن العالم، على أمل أن يستخلصوا عقارًا ينقذ هذه الملايين التي تتردَّى كل يوم، أنت بعيد ومدعٍ وخارج عن الموضوع تمامًا إذا زعمت أنك قرأت أو رأيت، وما ذكرته في مقالك عن مرض الإيدز لا يمت إلى العلم بِصلة، معلوماتي في هذا الشأن منقولة بالحرف من عدة أبحاث عالمية معتمدة عن مرض الإيدز، ويا ليتك كنت قرأت لتعرف المزيد عن هذا المرض، قبل أن تتصدى لباحث قضى أشهرًا بين مرضى الإيدز يدرس ويبحث. ومن السخف والهوان أن ينشر هذا الكلام غير المسئول في صحيفة محترمة، في وقت ينتظر فيه العالم والعلماء نتائج تجربة هائلة على الأشخاص، موضوعين تحت الملاحظة بعد تعاطيهم العقار المصري MMI منذ تسعة أشهر، فإذا ما عاشوا لأكثر من عام فقد نجح العلاج، وإلا فسوف أحاول من جديد.

إن مرض الإيدز أو طاعون القرن العشرين، الذي تتصور أنه كارثة كونية، أنه كما كتبت في مقالك لا يمكن أن تمتد إليه يد لتنقذ من براثنه آلاف البشر، هذا الطاعون كأي طاعون آخر تصدى له العلماء وانتصروا عليه وحققوا نجاحات باهرة، والعجيب أنك تُنكر على مصري أن يدلو بدلوه في مرض الإيدز، واستكبرت أن يحدث هذا من باحثين في دول العالم الثالث، ولو حدث ذلك من عالِم أمريكي أو فرنسي لباركته وأشدت به (ذلك أن العالم هناك مقيد بقيود البحث الجاد الحديدية، وليس سبهللة كما هو في مصر).

ولا يمكن الحكم الآن على الأعمال والابتكارات والخطوات التي يقوم بها عشرات من العلماء والباحثين لاكتشاف عقار جديد للقضاء على الإيدز — الكل يعمل — وأنا أيضًا أعمل، ولندع الأيام القادمة تحكم على أعمالنا.

ولن يثبط من عزيمتنا ما كتبه وما يمكن أن يكتبه د. إدريس، وقد يستهوي الفئران حتى تخرج من جحورها لتقضم من طرف الثوب أو تلطخه، والدكتور إدريس يسخر من ابتكاري لجراحة تجعل مريض السرطان يتبرَّز من الطبيعي الذي خلقه الله، لا من جانبه

كما كان متَّبعًا، وأنت تسخر من ابتكاري — بتوفيق من الله — لعشرات الجراحات المماثلة لخدمة المرضى، فلن تكون جديرًا بأن تعرف أكثر. (ملحوظة: العكس صحيح فقد أشدت به كجراح شرج عظيم.)

لقد قلت كل هذا بدلًا من أن تشد أزر باحث من أبناء وطنك.

مجرد تعليق

في الصفحة المقابلة يجد القارئ ردًّا من الدكتور أحمد شفيق الجراح بقصر العيني على الموضوع الذي كتبته عنه في عدد يوم الإثنين قبل الماضي، والرد كان موجهًا إلى الأستاذ إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام وقد حوَّله الأستاذ سلامة أحمد سلامة مدير التحرير إلى الأستاذ مصطفى البرتقالي المحامي ومدير الإدارة القانونية لمؤسسة الأهرام، ذلك أن رده كان مليئًا بعبارات وتعبيرات وشتائم تدخل تحت بند القذف في حقي مما يشكل لي حقًّا قانونيًّا قِبل الدكتور شفيق وقِبل جريدة الأهرام باعتبارها الناشرة، وحين اطلعت على الردَّين، الرد الأصلي، والرد المحذوف منه ألفاظ وعبارات السباب والإهانة طلبت من رئيس التحرير ومديره والمستشار القانوني أن ينشروا الرد الأصلي دون حذف كلمة واحدة؛ فالرد صورة حقيقية واقعية تمامًا لماهية تفكير وشخصية هذا الرجل الذي نجح في خداع الكثيرين جدًّا من المرضى والمواطنين البسطاء وحتى غير البسطاء، ومع أنني تلقيت مئات الخطابات التي تكشف عن كثير من الأهوال التي يرتكبها الدكتور أحمد شفيق في علاجاته ومعاملاته، وتلقيت مئات التليفونات من أنحاء شتى من القطر المصري من أساتذة الطب والأطباء إلى درجة أشعرتني أننا في مواجهة إنسان يتمتع بعقلية لا يمكن أن تتورع عن ارتكاب أي شيء في سبيل الوصول إلى هدفها، أما ما هو هدفها، فهذا ما سوف نصل إليه في نهاية هذا التعليق.

وها أنا ذا أطلب من الأهرام أن ينشر الرد كاملًا بلا أي كلمة حذف، فالرجل يظل شكلًا إنسانًا محترمًا مثله مثل أي إنسان آخر إلى أن يبدأ يتحدث أو يكتب؛ وهنا تتكشف

نفسه الداخلية، وتتعرى ونرى من أي معدن صنع هذا الرجل وأي كم هائل من البشاعة يحفل به داخله.

والحقيقة أني رغم ما كتبته في المرة الماضية لم أكن أعتقد أن الدكتور أحمد شفيق يمثل هذه العقلية ويفكر بهذه الطريقة، ظننته إنسانًا طموحًا حالمًا، طموح وأحلام دون كيشوتية يدعو بها لنفسه كجراح أو طبيب، ويكوِّن حوله هالة من العالمية والمجد، ولكني بعد الدوسيه والوثائق التي تطوَّع بإرسالها لي المرضى والقراء والأطباء الذين عالجوا ما أفسده، أحسست أني استهنت بالشخصية أو في الحق أسأت تشخيصها، إذ لم تكن لي به أي معرفة شخصية أو مهنية ومعلوماتي عنه كلها مستقاة من تصريحاته لبعض الصحفيين والإذاعيين والتليفزيونيين وخلوها من أي سند أو منطق علمي أو أكاديمي، اقرءوا إذن رد الدكتور أحمد شفيق على ذلك الذي يقول إني كتبت عنه بكل ما يمكن أن يتردد في الحواري من فاحش القول وأرذله، فهل الذين قرءوا مقالي وجدوا فيه كلمة واحدة غير التفنيد العلمي المحض لمزاعمه عن اكتشافاته لـ «علاج» مرة أخرى «علاج» أمراض السرطان والروماتويد والإيدز، أيْ حلَّ نصْفَ مشاكل العالم الطبية في أقل من ثلاث سنوات.

ثم يستطرد هذا الرجل «العالم»، «العالمي» الأستاذ في كلية الطب ليعيِّرني بأني لم أحصل إلا على بكالوريوس الطب والجراحة، مؤهل في رأي أستاذ الطب لا يتيح لصاحبه أن يزاول الطب فما بالك الأدب (هو أستاذ الطب يستهين ببكالوريوس الطب إلى هذا الحد).

هكذا باللغة العلمية «الراقية جدًّا» يستطرد العالم العالمي في تجريحي الشخصي، والحقيقة أني لم آخذه على أنه تجريح مطلقًا لقد أخذته على محمله الحقيقي، محمل الإنسان غير المتزن الذي ضُبط في حالة تلبس فراح يشتم ويتخبط ويهذي بدليل أنه حتى لم يستوعب ما كتبته عنه؛ فقد كتبت أقول إن من حقه أن يساهم بكتاباته في الجرائد والمجلات في شئوننا العامة ولم أعترض أبدًا، فإذا به يرد هنا وكأني كنت أعترض.

ويقول إن السبب الثاني لجنوحي هو ترشيحه لجائزة نوبل دون علمي، وأنا أتحدى الدكتور شفيق أن يأتيني بورقة أو حتى باسمه مقرونًا للترشيح لجائزة نوبل منذ إنشائها وإلى الآن، أو إذا كان يستشهد برأي مجلس الكلية فقد علمت أنه هو — وباعتباره عضوًا في مجلس الكلية — الذي أخبر أعضاء المجلس بنبأ الترشيح، والمضحك أن هذا كان من جمعية جراحي الجهاز الهضمي في أمريكا التي كان قد كوَّنها ويرأسها الدكتور أحمد شفيق؛ أي أنه هو الذي رشَّح نفسه بنفسه ترشيحًا رفضته الأكاديمية لأنه لا يضيف جديدًا إلى علوم الطب، وقد جاء من جهة لا حقَّ لها في الترشيح.

أما السبب الثالث في نظره لحقدي عليه وعقوقي فهو أني قلت عنه إنه يريد أن يكون عالميًّا فيضيف ويبدو أنه غافل أو تغافل، أنه — أي الدكتور شفيق — قد تعدى مرحلة العالمية منذ عشرين سنة؛ أي هو الآن في المرحلة الكونية التي وصلت فيها شهرته إلى المريخ والمشتري.

أما حكاية ورود اسمه في كُتب الطب فسأسلم جدلًا أنها وردت في بعضها، وليس لهذا أي اعتبار بالمرة؛ فمراجع الطب الحديثة أصبح يحررها مئات غير مؤلفيها الأصليين مثل بيلي أندلف وجراي وبست وهؤلاء المئات بينهم كثيرون من أطباء وعلماء العالم الثالث فلم يعد ورود اسم طبيب في هامش كتاب فتحًا مبينًا في تاريخ الطب، ثم إن الدورات العلمية الطبية في العالم الأول تعتني أكثر من اللازم بأسماء أطباء العالم الثالث لتجنيدهم للاشتراك فيها وترويجها؛ فقد اتسعت دائرة تعليم الطب حتى أصبح معظمها يقع في الدول النامية.

أما أن الدكتور شفيق قد اكتشف تسعة أمراض بشرية جديدة لم يورد اسم أحد منها، ولا أرسل قائمة كما قال في رده، واكتشفت ثلاثين عملية جراحية (مرفق لستة بها، لم يرفقها) فلن يكون أحد أسعد مني إذا كان هذا حقيقيًّا فعلًا بمستنداته وببراهينه وليس على طريقة أبو لمعة، أما عن ممارساته الجراحية فلقد شهدت له في كلمتي أنه جراح شرج ماهر فعلًا ورغم هذا يصر على أن يحدثنا عن براعته وكأنني كذبتها.

أما قوله إنني عايرته بأنه يحلم فليس هذا بصحيح إذ قد قلت بالنص: إن من حق كل منا أن يحلم ولكن هناك فارقًا كبيرًا بين أن يحلم العالِم وبين أن يحلم رجل الشارع؛ فالعالِم إذا عمل ينكب على بحوثه واختباراته وتجاربه ويظل سنين وسنين يكدح ويعرق ويكد إلى أن يصل إلى تحقيق الحلم، أما من يكتشف دواء للإيدز في شهر ويقول إنه أجرى تجارب على الحيوانات في حين أن الحيوان الوحيد الذي يمكن أن يجرب فيه ميكروب الإيدز هو «القرد الأخضر» غير الموجود مطلقًا في مصر، ويقول إن ميكروب الإيدز موجود في كل مكان في مصر في المعامل والمستشفيات، بل يخطئ ويقول إن هناك ميكروبات أخطر من ميكروب الإيدز موجودة في مصر، وفي كل تاريخ الطب والبكتريولوجي لم يوجد وربما لن يوجد فيروس أو ميكروب أخطر من فيروس الإيدز؛ لأنه هو الوحيد الذي يعيش ويتغذى ويشل جهاز المناعة في الإنسان تمامًا ومصير المريض المحتم موت محقق، فقل لنا يا عالم العلماء يا من تعدت شهرته العالمية منذ عشرين عامًا، قل لنا ما اسم الميكروب الأخطر من ميكروب الإيدز؟

ثم انظروا إلى تواضع هذا العالم العلامة حين يقول عني: لو كان د. إدريس قد حظي بشرف الجلوس في مقاعد الدرس أمامي لما اختار الأدب حرفة (وكأن اختياري للأدب كان فشلًا في الطب، مع أني ناجح بتفوق وترتيبي كان الثالث والثلاثين على الدفعة كلها) ويجعلني أندم أني لم أجلس أمامه في مقاعد الدرس بقوله إن معظم الذين تخرجوا من بين يديه صاروا مدرسين وأساتذة وعلماء.

تصوروا إنسانًا يزعم أنه عالم العلماء يفكر بهذه الطريقة الشديدة التواضع ألا يستطيع بنفس هذه الـ Paranoya أو جنون العظمة أن يخرج على الناس كل بضعة شهور باكتشاف لعلاج السرطان هكذا مرة واحدة، أمريكا تنفق أكثر من ثلاثين مليار دولار على أبحاث السرطان وعشرات المليارات على أبحاث الإيدز، وأبحاث الإيدز لا يقوم بها الأطباء فقط وإنما تشترك فيها أقسام بأكملها من علماء الوراثة وعلماء الهندسة الوراثية وأساتذة الميكروبيولوجي وعلماء المناعة وعلماء «الفيرولوجي» كل قسم منها تتخصص كل مجموعة منه في دراسة خاصية واحدة من خواص هذا الفيروس الخطير الذي كما ذكرت قبلًا خطورته في قدرته على تغيير التركيب الجزيئي لغشائه الخارجي بحيث يتغلب على الأجسام المضادة التي يفرزها الجسم تبعًا لتركيبه الجزئي الأول؛ ومعنى هذا أننا كل يوم أمام ميكروب جديد من نفس العائلة لا يفلح في قتله أي مصل أو لقاح أو علاج إلى الآن.

كل هذه المعامل والعلماء يستطيع النابغة أحمد شفيق وهو جالس في عيادته الفاخرة في القاهرة أن يلغي علمهم وعلومهم وأبحاثهم بجرة قلم وأن يتفتق ذهنه عن علاج شامل ناجح لمرض الإيدز، يذهب به فورًا إلى زائير مدعيًا أنه استشار هيئة الصحة العالمية وتكذبه الهيئة تكذيبًا رسميًّا وتنشره جرائدنا وتقول إنها لا صلة لها ببحثه أو بدوائه المزعوم أو به شخصيًّا، تمامًا مثلما ادعى أنه عمل عملية لرئيس كوبا فيدل كاسترو وكذَّبت الحكومة الكوبية هذا الزعم وأكدت أن الدكتور المذكور لم يزر كوبا ولا دخلها أبدًا.

يذهب بهذا الدواء إلى الرئيس موبوتو سيسكو ويقول له أنا قادم إليك من عند الرئيس مبارك، زاجًّا باسم رئيسنا في مغامراته التي تفوق أي معقولية، ويرحب موبوتو بالطبيب المصري القادم من عند الرئيس، في حين أن الرئيس مبارك لم يقابله واشترط لمقابلته أن تؤكد الدوائر العالمية صحة دوائه. يرحب موبوتو بالرجل؛ فالإيدز يشكل حالة وبائية في زائير (الكونغو) ويريد موبوتو أن يصنع شيئًا يرفع به معنويات شعبه فيوافقه على إجراء التجارب، وتكوين فريق زائيري للبحث وينضم خايب الرجا على متعوس الرجا ويجريان تجارب لا تستمر أكثر من شهر يعلنان بعدها في حفل تليفزيوني صحفي رهيب، كان

يرأسه كما ذكر لي مصري يعيش في زائير وحضر الاحتفال، يرأسه وزير الإعلام الزائيري — حاجة غريبة — وكان محل سخرية مثقفي وأطباء زائير. تصوروا ما علاقة وزير الإعلام باكتشاف دواء لمرض خطير كالإيدز؟! ولكن المسألة كما قلت استعراض إعلامي يُفرح الناس والمرضى في الكونغو وليس هناك خطر من إعلانه، ومن إعلانه بطريقة مثيرة ويسميه سيادته، ذلك الدواء مع الزائريين م.م.١ Mobarak Moboto I يزج باسم رئيس مصر وعلم مصر وسمعة مصر العلمية والطبية ولا يخجل أن يواجه مئات آلاف العلماء المتربصين لأي إشاعة حتمًا عن اكتشاف دواء، بحيث لو كانت التجارب حقيقية وصحيحة لأرسلت أمريكا ولديها مئات الآلاف من مرضى الإيدز الذين ينتظرون الموت؛ أرسلت قوات الانتشار السريع والأسطول السادس والسابع وال «سي أي آيه»، واختطفت أحمد شفيق اختطافًا هو والجيش الكونغولي كله وأخذتهم إلى أمريكا فورًا ودون أي انتظار.

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، بل لقد أصبح أمر الدواء المعجز نكتة العالم الطبية، وبجدية العالم يؤكد الدكتور أحمد شفيق أن نتائج الدواء ستظهر بعد مضي عام، فإذا بقي المرضى الذين شفوا لمدة عام دون وفاة، فإن هذا يعد نجاحًا للدواء. ما رأى سيادته أن كثيرين جدًّا من مرضى الإيدز لا يموتون إلا بعد أكثر من عامين أو ثلاثة دون علاج ودون م.م.١ أو م.م.صفر ودون فريق زائيري مصري. إن الطب الزائيري لا يستطيع أن يعالج مرضى حمى النوم التسي تسي، والفريق المصري الذي نفدت بأعجوبة من أن أكون تلميذه أوقف عن عمله لمدة عام لاستغلاله المرضى العاديين في تجارب غير علمية لعلاجهم.

إن خطورة الدكتور أحمد شفيق أنه ليس مدعي طبٍّ لكي يُمنع ويعاقب بالحبس إذا زاوله، إن خطورته القصوى أنه فعلًا أستاذ جراحة «وصل إلى كرسيها بطريقة لا يعلمها سوى الله» ويستطيع أن يزاول ما شاء من علاج بعيدًا عن أعين غيره من العلماء والأساتذة؛ ولهذا هو يتهرب دائمًا من مواجهتهم لأنه لا يملك المعلومات العلمية الكافية عن الأدوية التي يستعملها؛ ولهذا يقفز فوق هؤلاء العلماء وفوق المحافل الأكاديمية ويتصل مباشرة بالصحفيين والإعلاميين وينشر أمامهم اكتشافه المزعوم أو اختراعه؛ ولهذا سميته في كلمتي الماضية «ظاهرة» أحمد شفيق، وقد خانه ذكاؤه فتصور أني أمدحه باعتباره علمًا وظاهرة أو على الأقل ظاهرة صحية، في حين أن هدفي كان التنبيه إلى ظاهرته المرضية التي أصبحت تشكل خطرًا على صحة مرضاه، وعلى سمعة طبنا المصري، ووصلت فضائحنا من خلاله إلى المجالات العالمية، وحين أقول ظاهرة فلأني لا أعني أنها خاصة به أو ببعض الأطباء القليلين الذين أخذتهم حمى الفوضى الضاربة في مقاييسنا، فاختصروا الطريق وأصبحت الفهلوة والاتصال بالصحفيين والإعلاميين وسيلتهم إلى الشهرة، وجلب المال الأكثر حتى

إني عرفت أن حكاية العالمية تلك هدفها الربح لا أكثر؛ فقد ذكر لي أحد مرضاه أنه عمل عنده عملية البواسير بألف وخمسمائة جنيه، والمصران الأعور بخمسة آلاف جنيه، وهذا هو السر الذي يدعوه لأن يقول في بنده الخامس إنه يتسلح بعدد من الأصدقاء والصديقات الصحفيين في مختلف الصحف والمجلات؛ فهو صديق لكثيرين إما أن اشترى صداقتهم بالمال، فلمَ؟ لمَ يا دكتور؟ لأنك تكسب من ورائهم مالًا لا يُعد ولا يُحصى، وشهرة تتحول بالتالي إلى مال أكثر، أليس هذا سببًا وجيهًا أو فلنقل إنه السبب الوحيد، وأعود أيضًا وأقول ظاهرة لأنها لا تخص بعض الأطباء ولكن أصبحت هي القاعدة في التعامل الإعلامي والصحفي مع الشركات والأثرياء وشركات توظيف الأموال، إن صحافتنا كلها في خطر حقيقي ماحق؛ فالحكومات أو الأحزاب قد تكون هي التي تصدرها وتموِّلها ولكن كثيرًا مما يُنشر فيها وبالذات خاص بأشخاص معينين هي إعلانات تحريرية مدفوعة للمحرر، ورجائي من القراء كلما قرءوا دعاية ما لشخص ما ولو بإمضاء محرر كبير أن يدركوا أن وراء هذا مصلحة مادية أو أدبية مقابلها أكثر بكثير من المقابل المادي، وبالذات كل خبر فيه دعاية لهذه الظاهرة، فلتعلموا ولتتأكدوا أنها أبدًا ليست لوجه الله أو الحق أو العلم وإنما لوجه الذات المتضخمة الجشعة التي تريد أن تبتلع مجد الدنيا ومالها دون جهد ودون كدح وبدعاية طنانة رهيبة تنطلي على المواطنين المساكين كأنها حقائق، وأرجوكم أعيدوا مرة أخرى قراءة رد الدكتور أحمد شفيق الذي يعتقد أو يقول ببلاهة منقطعة النظير إنه لو كان مكتشف الدواء فرنسيًّا أو أمريكيًّا لهللت له ولكن لأن مكتشفه مصري فأنا أخسف به الأرض، أفي علاج البشرية مصري أو صيني أو أمريكي؟ لو كان حقيقة هو الرجل الذي يخترع دواء لعلاج السرطان ودواء لعلاج الروماتيزم ودواء لعلاج محير البشرية والعلم «الإيدز» أكان منطقه يكون هكذا؟ لو كان قد فعل هذا كله في سنتين لأصبح أعظم من أينشتاين، فتصوروا أني كتبت في الموضوع الماضي عن أينشتاين وسألته أسئلة في الصميم عن كيف اكتشف النسبية الخاصة والعامة وأين بدأ بتجاربه وكيف تطورت مثل كل الأسئلة التي سألتها للدكتور أحمد شفيق في الموضوع الماضي ولم يجبني تهربًا من أي منها، أكان يجيبني بـ «ياللي سلم على العقيد عدو مصر» أو بأن حظي سيئ لأني أخذت الكتابة بعدما كنت مرشحًا لأكون جراح مخ وأعصاب في كلية الطب لأنني كنت سيئ الحظ ولم أكن من تلاميذه.

هذا منطق — لا مؤاخذة — واللا بلاش.

إنني آسف إذ قد ضيعت وقتَ كثيرٍ من القراء في التوقف لدى تلك الظاهرة التافهة، ولكن يبدو أن الأمر كان أخطر مما تصورت سابقًا بكثير، وأن حكاية الإيدز ليست آخر ما

سيطلع عليه بنا الأستاذ الدكتور العالمي، ذلك الرجل الذي بدأ حياته بأن ارتكب جريمة اقتلاع مثانة إنسان ميت ولفها في قطعة قطن وذهب إلى عنبر آخر، واستأصل مثانة مريض حي وركب المثانة التي كانت خلاياها قد ماتت؛ فطبعًا حدث التقيح ومات المريض، بل مات مريض آخر لنفس السبب، وتشكَّل له مجلس تأديب من أساتذة الجراحة لمحاسبته، وكان رأي المجلس الذي كان برئاسة الدكتور جمال البحيري أستاذ الجراحة الكبير؛ كان رأي المجلس فصل ذلك الطبيب، وهي أقل عقوبة ممكنة لقتل مريض عن عمد، ولكن هكذا نحن المصريين قالوا: إنه شاب وإنه في مستهل حياته واكتفوا بالخصم والإنذار.

وبالصدف المحضة قابلت اثنين من أعضاء هذا المجلس وقد أبديا ندمًا شديدًا على أنهما لم يفصلاه أيامها وينقذا الطب والأطباء والمرضى من أفعاله أو بالأصح جرائمه في حق مرضاه بتجربة أدوية عليهم لا يعلم عنها شيئًا.

ليس من عادتي أبدًا أن أتصدى لمهاجمة البعض من الأشخاص لذاته أو لبعض خصاله السيئة؛ فما من إنسان كامل أبدًا، ولكن حين يستشري هذا العيب ليصبح مرضًا، وحين يتحول الشخص المريض إلى أسطورة يصدق الناس عن طريق وسائل الإعلام كل ما يقوله عن نفسه؛ حينئذٍ يتحول الشخص إلى ظاهرة أجد من المحتم عليَّ أن أتصدى لها، وأظل أتصدى حتى أكشف للناس أمره؛ فهو جزء لا يتجزأ من الشر الكامن في المجتمع والذي وهبت نفسي ككاتب لمحاربته.

وأنا لا أهاجم فقط وإنما أشيد أيما إشادة وبالذات بالأطباء الذين يضربون المثل الأعظم في التضحية وخدمة البشرية وخدمة الإنسان المصري خاصة، أشدت بالمرحوم الدكتور أنور المفتي حين ترك حياته وعيادته وعمله في القاهرة، وذهب إلى قرية «سحالي» في البحيرة يعالج جماهير الفلاحين من البلهارسيا هناك بدل أن يعالج عسر الهضم لدى بعض الأغنياء هنا مقابل مئات الجنيهات. أشدت بالجراح الكبير الدكتور أحمد أبو ذكري لاهتمامه بعلاج دوالي تضخم الكبد البلهارسي، وبالدكتور الجراح وديع عبد الملك الذي ترك عيادته وحياته في القاهرة وذهب متطوعًا إلى خط الميدان في حرب أكتوبر يقاتل جروحهم القاتلة بمبضعه، أشيد بهاشم فؤاد أعظم عميد لكلية الطب لا لكونه دفعتي؛ فقد تخرج قبلي بعامين، ولكن لإعادته هيبة كلية طب قصر العيني وانضباطها إلى مصاف أحدث كليات الطب وأدقها في العالم بعد أن كان زمامها قد أفلت، وأشيد بغيرهم كثيرين؛ أشيد بذلك المصري المضحي في صمت وإيمان عميق بدوره ورسالته، وليس ذلك الذي يترك ٥٠ في المائة من فلاحي المصريين يموتون بالتليف البلهارسي الكبدي ويصعب عليه مرضى

الإيدز الغلابة في زائير و«يضحي» ويذهب بزعم إنقاذهم، وهو ما اختاره تضحية أو شفقة إنما اختاره لأنه الوحيد الذي من الممكن أن يصنع له مجدًا عالميًّا، فإن لم يكن في الحقيقة فليحققه بالوهم والخيال والتلفيق وأمام عدسات التليفزيون وكاميرات الصحافة! أليست هذه منتهى «التضحية».

سأختم تحقيقي هذا بشيئين:

الأول: أني سأحوِّل كل المستندات التي تجمعت لديَّ وكل خطابات المرضى الذين عالجهم الرجل بخياله ومزاجه إلى وزير الصحة ونقابة الأطباء وعميد كلية الطب ومجلسها ورئيس جامعة القاهرة ومجلسها؛ لعمل لجنة تحقيق على أعلى مستوى والنظر في أمر هذه الظاهرة الخطيرة على علمنا وتقاليدنا وصحة مرضانا.

والثاني: أني سأقوم بنشر التقرير الذي قدمه العلامة الدكتور أبو شادي الروبي أستاذ الأمراض الباطنة لعميد كلية الطب، ويشتمل على الآراء التي استمع إليها وأبداها في اللجنة العليا التي كانت قد شُكِّلت من رؤساء الأقسام لسؤال أ.د. أحمد شفيق عن حقيقة الذي اكتشفه أو زعم أنه اكتشفه لمرض الروماتويد، أرجو أن تقرءوه لتعرفوا لماذا يخاف الدكتور أحمد شفيق من مواجهة زملائه العلماء؛ لأنهم سوف يحاسبونه ويعصرونه علميًّا، ولماذا يقفز فوقهم إلى الصحافة ووسائل الإعلام ليقول لهم ما شاء له الخيال من أخبار وادعاءات.

اقرءوا معي التقرير الذي كتبه عالم شجاع بلغ من فرط تأزمه مما يرتكبه زميل في نفس كليته ومزاعمه إلى درجة أنه كان يوزعه بيده على الأطباء والأساتذة لأن أحدًا لا يريد أن يتحرك!

ملحوظة: تم تكوين مجلس تأديب من نقابة أطباء القاهرة وحقق مع الدكتور أحمد شفيق وقضى بإحالته إلى لجنة التأديب العليا في النقابة العامة للأطباء، التي قضت بإدانته وإيقافه عن مزاولة المهنة لمدة ستة أشهر.

مشروع وفاة توفيق الحكيم

قرأت بعض ما كُتب عن توفيق الحكيم بعد وفاته، قرأت مقالات الرثاء والتقييم والتصعب، وحمدت لكتابها وشكرت سعيهم الجليل في جنازة شيخنا وأستاذنا وأبي الحركة الفنية العربية المعاصرة، توفيق الحكيم.

ولكن هاتفًا خبيئًا كان يردد لي وأنا أقرأ خبر وفاته وأنا في الخارج، وأنا أقرأ عن جنازته، كان يردد لي أن هكذا لم يُرد توفيق الحكيم الأمر، بل وأحسست به غاضبًا، وفي معظم الأمر ساخرًا مما يُكتب عنه، ولو تُرك له الأمر، ولو كانت الجرائد تصل إلى الدار الآخرة لوجدناه قد صحا من غفوته الجليلة وعلق بقلمه الرصاص، الباهت جدًّا، الذي كان يكتب به منذ عرفته، مفندًا هذا كله، ورافضًا إياه، جملة وتفصيلًا.

توفيق الحكيم لم يكن مجرد رجل عاش لنبكي عليه حين يموت، ولم يكن مجرد كاتب زميل صديق كبير، لنفتقد رحيله، ونرسل الدمع مرارًا من ورائه، وليعتب بعضنا على بعض أنه لم يحضر جنازته أو مأتمه، أو أنه «تقاعس» عن أداء «الواجب».

توفيق الحكيم في الحقيقة ظاهرة، لم يكن لها وجود قبله في الأدب العربي، وأعتقد، أن بعده، لن يكون لها وجود، ليس شاذًّا، ولكنه فريد في نوعه وبابه وقدراته، حتى لقد كان يربكني أحيانًا، وكنت أطيل إليه النظر، دون أن أنظر إليه أو يحس هو بذلك، وأتساءل: ماذا في هذا الرجل «الفلتة» يصنعه؟ ويصنع منه هذا الخليط الغريب المجيد، الهازل تمامًا حين يجد، الجاد تمامًا حين يهزل، الممثل في الحقيقة وعلى الورق، المدعي الصمت تمامًا حين يتكلم أبطاله وممثلوه، الخبيث إلى حد الدهاء، والداهية إلى حد السذاجة والطفولة، الذي آثر، منذ وقت طويل، أن يقف على الخط الحرج المحرج للحياة، فلا هو مع التقدم ولا ضده، ولا هو مع الديمقراطية ولا ضدها، ولا هو مع الثورة وأيضًا — وهذا هو المحير — ليس ضدها، الذي اصطنع عداوة المرأة من فرط وَجْده وغرامه بالمرأة، واصطنع حمار الحكيم

قناعة ليقول أذكى الأشياء، وتقمص العصا والبيريه، ليبدو، كما قال لي هو بنفسه، «فنانًا» وسط فقهاء اللغة ودكاترة الأدب والفلسفة، أولئك الذين كانت تزدهر بهم الساحة حين ظهر في سماء الأدب، فمثل عليهم أنه «فنان» ليعفوه من مئونة المظاهر الجادة المنافقة، ويعفوه أيضًا من لبس العمامة أو الطربوش حتى لا يُحتسَب على المطربشين أو المعمَّمين، واختار البيريه حتى لا يبدو أيضًا خواجة ببرنيطة، أما العصا فأعتقد أنها كانت الشيء الوحيد الذي يعجبه في ملابس والده، فورثها عنه، واقتبسها.

أجل، مساكين، أولئك الذين أخذوا وفاة توفيق الحكيم جدًّا.

ذلك أني أراقب مشروعه مع الموت منذ أكثر من خمس سنوات.

في ميلاده السبعين، منذ أكثر من سبعة عشر عامًا، كان توفيق الحكيم شابًّا شيخًا سعيدًا بابنه إسماعيل، وحياته العائلية، وكانت ضحكاته تجذبنا إلى غرفته جذب الأطفال إلى جدهم الشاب الأبيض الشعر، الحافل بالحيوية، وبالذات الحيوية الذهنية، وأشهد أني أحيانًا كنت أشفق على بعض أصدقائي مما تحمل رأسي من أفكار وعرة، وكنت لا أتردد أن أذهب إلى توفيق الحكيم وأطرح له القضية، فتلمع عيناه البارقتان دائمًا، وبسرعة شديدة، يكون كمبيوتر عقله قد استوعب الأبعاد، وساهم بالرأي، لم يكن يدهش أو يصعق أو يهاب في السفر الفكري شيئًا، لقد أعطاه الله قريحة فنية عالية الدرجة من الإتقان وفي نفس الوقت أعطاه عقلًا من ذهب، أما قلبه فنادرًا ما كنت أحس به، لم أسمعه مرة يقول أنا أحب فلانًا، أو أحب هذا الشيء أو ذاك، تغيب عنه عامًا أو عامين وتعود فكأنك كنت معه بالأمس، وقد تغضب ولكنك حين تحس أنه يعامل ابنه أو أقرب الناس له نفس المعاملة لا تبتئس، لكأن مزاجه الفني أخذ شكل التفكير، ولم ينحرف أبدًا صوب العواطف، فالعواطف مهلكة أحيانًا، ومكلفة في معظم الأحيان، وهو رجل، كالجاحظ يحترف التقتير في كل شيء، عن إيمان عميق بأنه أجدى شيء يصنعه الإنسان؛ ولهذا نأى توفيق الحكيم بنفسه عن تجارب كثيرة، فلا سافر، ولا غامر ولا تهور، حتى لتكاد تجاربه في الحياة تنحصر في أعوام تلمذته التي كتبها في عودة الروح، وصدر شبابه الذي قضاه هنيهة مع فرقة عكاشة وأهل الفن، ثم الجزء الخام منها في باريس في «عصفور في الشرق» و«تحت المصباح الأخضر» وغيرهما وكاد ينحصر ما تبقى من حياته الطويلة بعد هذا في سلسلة من الوظائف انتهت به مديرًا لدار الكتب، ثم عضوًا متفرغًا بالمجلس الأعلى للآداب، ثم كاتبًا متفرغًا في الأهرام.

ولكن من هذا الشريط المحدود للوجود، استطاع توفيق الحكيم، أن ينسج أروع أعماله المسرحية، ويفرز تأملاته الفكرية، ويظل حيًّا، أكثر من كل الكُتاب الأحياء من حوله، وموجودًا حتى بغير إنتاج، إلى يومنا هذا وإلى أن يشاء الله.

وفلسفة البخل والتقتير عند توفيق الحكيم لم تكن مرضًا ولم تكن، أو بالأصح، لم يكن هو يعتبرها عيبًا خلقيًّا ليخفيه مثل نجيب محفوظ؛ فالصديق نجيب محفوظ بخيل هو الآخر، إن لم يكن أبخل من توفيق الحكيم، ولكن مشكلة نجيب محفوظ أنه ابن حارة وابن بلد يعتبر البخل صفة معيبة، ولكن توفيق الحكيم كان لا يفخر ببخله فقط، ولكنه يعتنقه عن إيمان قوي به، بالبخل، كفلسفة. منذ أن عملت بالأهرام سنة ٦٩ وتوفيق الحكيم يكتب بقلم رصاص واحد لم يغيره، قلم رصاص أصفر «بافاري» رصاصه باهت جدًّا، وحين ضقت بالقلم مرة وسألته لماذا لم يغيره بآخر ثقيل الخط، قال: الثقيل يخلص بسرعة. وهكذا كان يبري القلم مرة واحدة في العام، وبه كتب إنتاجه منذ مسرحية الصفقة إلى مقالاته الأخيرة، وحين ضحكت وقلت له سأكتب عنك هذا، قال: يا ريت، يا ليت كل الناس يعلمون أني بخيل فلا يطالبني أحدهم بما يطالب به الناس العاديين. قلت: ألا تعتبر هذا عيبًا؟ قال: أبدًا، اسمع هناك مثَل شعب مصري يقول: طولة العمر تبلغ المُنى، ما هي طولة العمر؟ هي ألا تنفق صحتك بإسراف، أن تقتر في صحتك، ولكي تقتر في صحتك لا بد أن تتعلم وأن تمارس التقتير في كل شيء، إنهم يتهمون المرأة الجميلة دائمًا أنها لا بد بالضرورة بخيلة، وعندها حق، واحدة عندها مليار جنيه جمال، لا بد أن تحافظ عليه وتنميه، فالحمقاوات القبيحات وحدهن هن اللاتي ينفقن بقية الجمال فيهن بإسراف، وأنا فلسفتي أن أعيش طويلًا، لأجعل الزمن يحل معي كثيرًا من القضايا التي أعجز عن حلها وحدي.

هكذا كان توفيق الحكيم في عيد ميلاده السبعين، ويومها أهديته عصًا من الغاب الجميل المعقوف أحضرتها له خصوصًا من يوغوسلافيا، فأخذها مني وظننته سيستعملها لأنها كانت أجمل بكثير من عصاه، فإذا به في اليوم التالي يحضر إلى المكتب، ويعلق العصا على المكتب وإذ بها نفس عصاه القديمة، قال: أنا لا أستطيع بسهولة أن أغير عصاي، وفعلًا ظل لأكثر من عشر سنوات يستعملها، وفي يوم رأيت العصا الهدية معه، وظلت معه إلى آخر أيامه. وفي عيد ميلاده الخامس والسبعين، ذهبت إلى محل أزهار في الزمالك، وقلت له أنا فلان وأريد أن أهدي الأستاذ توفيق الحكيم أجمل بوكيه ورد عملته في حياتك، وفعلًا يبدو أن صاحب المحل كان معجبًا هو الآخر بتوفيق الحكيم؛ فقد صنع أجمل بوكيه رأيته في حياتي، حتى لقد حمله اثنان من السعاة، ودخلنا به عند توفيق الحكيم، فلم يدهش الرجل إلا للحظة واحدة فقط، سعدت بها تمامًا؛ إذ لم يكن من السهل إدهاشه، ثم سألني عن ثمنه، وحين قلت له الرقم رأيت وجهه يتماوج بمزيج من الفرحة والغضب، لا بد أن الثمن أغضبه وأفرحه أيضًا.

منذ عيد ميلاده الخامس والسبعين بدأت الحياة في مصر تتغير، كل شيء بدأ يتغير، بدأت الألوان الزاهية تبهت، ومصر التي في قلوبنا وأرواحنا تتدارى تحت وابل من أقدام غلاظ كثيرة، وضجات عالية، وغوغائية، وكأنما قد انفتح مزراب من باطن الأرض وخرجت مجموعة من الواغش البشري سدت الأفق، بدأت لقاءاتنا في الأهرام تقل وبدأت أنا أمرض، وبدأ الناس يتسللون من بيننا، مهاجرين، ومنفيين، وناقمين بأنفسهم، وميتين، سيان، بدأ المسرح يتغير.

تنطفئ الأضواء الحقيقية المسلَّطة على أبطال حقيقيين، وتضاء على نماذج من ورق، ومسخ، وهيافات، وتحولت الفيلهارمونيك أوركسترا إلى واحدة ونصف، فجة، قبيحة، عارية الوجه بلا أدنى حياء.

وكتبت أنا مقالة اسمها: تعالوا ننظِّف مصر!

وكأنما كانت الحشرجة الأخيرة لملحمة ثقافية فكرية إبداعية توشك أن تبتلعها مياه المجاري التي كانت قد أغرقت حي روض الفرج، والتي من أجلها كتبت المقال، وفي ذهني أشياء كثيرة أخرى.

وأضحك وأنا أتذكر الأعوام من ٧٥ إلى ٨٠ وصرخات المتشنجين تنعى على الكُتاب قلة إبداعهم، ونكوصهم، وانتهائهم، وكأنما يمكن لكاتب لديه أي ذرة من ذوق أو حس للجمال أن يبدع ليضع باقة زهور وسط — أسف جدًّا للكلمة — «بكابورت».

عدت من رحلة العلاج إلى الخارج عام ٧٧ لأجد برج الدور السادس، أو برج توفيق الحكيم كما أرجو أن يطلق الأهرام عليه، ساكنًا، والأبواب مغلقة، ونجيب محفوظ أصبح يأتي مرة فقط كل خميس، وتوفيق الحكيم أيام وأيام، ولويس عوض في جامعة لوس أنجيلوس، وبنت الشاطئ في المغرب، وحسين فوزي في فرنسا، وزكي نجيب محمود يرسل المقالة من المنزل، وصلاح طاهر في مرسمه.

كانت المسألة قد وصلت إلى الدور السادس في الأهرام، وبدأ إنتاج من نوع آخر يطل على الساحة.

خطب ناعقة.

وعواءات.

وهلوسات.

وميكروفونات.

والعذاب قد حلَّ على أهل المدينة، بلا ذنب جنوه، وبلا جريرة.

وبطيئة بطيئة ثقيلة كوقع أحذية الأمن المركزي، مضت الأيام، إن مشروع الحياة الفردية يستمد وجوده من أمة حية، أما إذا بدأت عيناها تجحظ، وتنكتم في جوفها الأنفاس.

فماذا يبقى من مشاريع الوجود؟!

ذات ليلة من ليالي منتصف الستينيات، وكانت الكافيتريا الوحيدة الساهرة في القاهرة هي كافيتريا هيلتون، حيث كنا نلتقي فيها منذ إنشائها نحن وشاعرنا العظيم الفذ الموهوب كامل الشناوي، حيث بوجوده الحاضر الشامل، وقلبه الكبير، يفتحه، ليدخلنا فيه، مجموعة من الكُتاب الشباب والموسيقيين والمطربين الجادين والمطربات الجادات، وأهل الثقافة، والعلم، نسهر ونتحدث، سهرات كما قال فيها كامل الشناوي: لا فسق فيها ولا طهور، إنما تجمعنا الونسة والصحبة والحب للفن واللاتنافس واللاخبث واللادهاء أو طعن من الخلف، في ذلك المكان حيث كنا نلتقي بانتظام وطوال سبع سنوات منذ أُنشِئ الفندق في عام ٥٨.

دخلت في تلك الليلة فوجدت كامل الشناوي جالسًا وحده على منضدة، واستغربت تمامًا فعمري ما رأيت كامل الشناوي، حتى في غرفة نومه، بمفرده أبدًا.

ذهبت إليه وحييته وجلست معه، فإذا به صامت لا يريد، هو أروع المتحدثين، أن يتحدث. مالك يا كامل بك؟ هكذا كنا نناديه، قال: أنا أحس أني أعيش الآن كالمبتدئ، هذا مجتمع لم أعد أعرفه ولا أستطيع التعرف عليه، هذا مجتمع لم أره، وأخافه فأنا غريب عنه وهو غريب عني.

ذلك أن مرحلة حكم المخابرات الفردية المطلقة كانت قد استمرت أكثر مما يجب، وكشطت من فوق سطح المجتمع كل من به نبض، أو في نيته أن ينبض، وبات الناس خائفين، المعتقلات موجودة، المخابرات موجودة، صلاح نصر موجود، انفضَّ الناس، وجاء أناس، أناس جُدد، طبقة جديدة نشأت في الظلام المفروض، ودون أن يحس أحد احتلت المسرح، وفعلًا أصبحت الكافيتريا تعج بأناس لم يكن لهم بها قبلًا علاقة بالسهر أو بالفن أو حتى بالحديث، وإنما هم نجوم المجتمع الجديد.

وأعتقد أن هذا الإحساس نفسه، الإحساس أن الدنيا تغيرت تمامًا وأن أناسًا ذهبوا وأناسًا جاءوا، هذا الإحساس بالغربة الرهيبة هو السبب، وليس غيره أبدًا، الذي أدى إلى وفاة كامل الشناوي بعد هذه الليلة بقليل.

وقد بدأت غربة توفيق الحكيم بداية مختلفة.

هذا رجل صاحي الفكر بطريقة لم نعهدها في حياتنا.

إلى آخر لحظة في حياته كما ذكر كثيرون هو دائمًا يُعْمل عقله بطريقة يحسده عليها أصح شاب، ولكن جسد توفيق الحكيم بدأ يخذله.

ذلك الجسد العظيم بدأ يخذله.

زمان كان يأتي إلى الأهرام سائرًا على قدميه من بيته على كورنيش النيل في جاردن سيتي.

وكنت أعود به في سيارتي الصغيرة، هكذا كان يطلب مني، مع أن له الحق كعضو مجلس إدارة الأهرام أن تكون له سيارة من الأهرام توصله، ولكنه، رحمه الله كان يقتر للأهرام هو الآخر، فيستخسر أن يستعمل سيارته، ويسعدني أنا بتوصيله، وكنت أحيانًا أذهب إلى مدرسة أولادي سامح وبهاء وأجلسهما في المقعد الخلفي ويجلس الحكيم بجواري، ونذهب لنوصله، وكان الأولاد لا يعرفون من هو هذا الرجل اللطيف العجوز الطيب، وكانوا يشاكسونه، وأحيانًا مد أحدهم يده إلى البيريه فيرفع توفيق الحكيم عصاه ويقول: إلا البيريه. ويصرخ الأطفال فرحًا وحبًّا.

ولكن ذهاب الحكيم إلى الأهرام قل تمامًا، وبدأ ينقطع.

وبدأ في المرات القليلة التي يتصادف أن نلتقي فيها أقل مرحًا وأميل لاجترار ذكرياته، ولكن ذهنه كان أحيانًا يبرق فيقول لي: تصوَّر كل الناس اللي أعرفهم تقريبًا ماتوا إشمعنى أنا لسه عايش؟

وأحسست في اليوم الذي تساءل فيه هكذا، وكان في الحقيقة يسائل ربه وخالقه، أن ثمة مشروعًا ما، يدبره توفيق الحكيم الكاتب المسرحي.

لست أدري شعور الإنسان حين يصل إلى الثمانين ويجد عقله لا يزال فتًى يعمل، بينما جسده قد وهن، أقول جسده ولا أقول حواسه، فلآخر يوم في عمره كان جيد السمع جيد النظر، جيد الذوق.

وبدأ الحكيم يكتب مقالاته عن الموت الذي يطلبه ويعتب على العمر الذي يأبى إلا أن يمتد.

وكنت وأنا في بيتي أتصور ما يفعله توفيق الحكيم بنفسه ولا أملك إلا أن أضحك، فأنا أعرف أن ليس توفيق الحكيم وحده ولكن الناس جميعًا يرفضون الموت ويكرهونه، ولا أحد يتمناه مهما قال عن نفسه هذا، ولو بلغ من العمر أرذله.

إذن هي لعبة أخيرة لعبها الحكيم مع الموت.

بدلًا من أن يداهمه الموت على غرة، يداهم هو الموت ويطلبه وهو عارف تمامًا أن من يطلب الموت عقليًّا، لا يموت، الإنسان فقط يموت حين تقرر قوى فوق طاقة وعيه، قوى في داخله وقوى خارجه، قوة الخالق والخلَّاق، أن تُنهي الحياة في ذلك الجسد، فيدمر نفسه ذاتيًّا عن طريق القلب، أو السرطان أو أي انهيار آخر.

وحين دخل الحكيم مستشفى المقاولين منذ عامين أو أكثر، كنت متأكدًا أنه سيخرج صحيحًا سليمًا معافًى، وهكذا، رغم كل ما أورده أطباؤه من تشخيص، للدقة تشخيصات كل منها في حد ذاته مميت، قلت لهم: سيُخرج لكم الحكيم لسانه وسينطلق من هنا معافًى.

هل كانت بروفة للموت، أيقن الحكيم بعدها، أن الموت ليس لعبة، وأنه مخيف، وأن من المستحسن ألا يلعب الإنسان مع هذه الآلة الجهنمية، الموت، فربما «تقلبها جدًّا» وتقضي على الإنسان؟!

لا ريب أن شيئًا كهذا قد حدث؛ ففي زياراتي له في المستشفى كان واضحًا أن الحكيم يريد أن يقول للناس: لا تتركوني مع الموت وحدي، فربما يقضي عليَّ، فيمثل أنه سوف يموت، ويرى ما يفعله الناس، وحين يتقاطرون عليه، وتختفي وحدته، يتأملهم جميعًا بعينيه البراقتين ويقول: أما عجيبة. إزاي أنا صحيت؟

وكأنها لعبة الاستغماية.

وحين دخل قصر العيني أحسست أنه يبعث استغاثة أخرى. إن رجلًا كهذا لا يحتمل إلا أن يكون ملء الأسماع والأبصار، لا يحتمل أن يقرأ الصحف والمجلات فلا يجد شيئًا عنه، رجل كهذا، السكوت عنه جريمة، واللاحديث قتل.

وفي مرضه الأخير صحوت من النوم فوجدت خبر إدخاله إلى المستشفى في أخبار اليوم منشورًا بطريقة مزعجة، وفي الثامنة تمامًا كنت إلى جواره في مستشفى مصر الدولي، وفوجئت أنه ليس في غرفة الانعاش، ولقيني صديقي العزيز وطبيبه الدكتور أحمد عبد العزيز إسماعيل، وأخذني إليه، وكنت قد تعمدت أن أرتدي حلة صيفية بيضاء، ناصعة، وأن أُقبل عليه حاضنًا باسمًا مقبِّلًا يده ورافضًا تمامًا أن أعترف بخطورة مرضه، ولكنه حدثني بفم جاف — لا بد من ضعف شديد في وظائف الكبد وإفراز البولينا — وبنصف وعي كنت أخاطبه، بينما بالنصف الآخر كنت أزجر جسده، أو أزجر موته؛ فقد أحسست أنه فعلًا — أو بالأصح — أن اللعبة حقيقة بدأت تصل إلى مرحلة خطرة.

وفي الأيام التالية كان قد صحا واستيقظ وتحدث في التليفون واستقبل الزوَّار ومن محاسن «الصدف» أن أكتوبر جعلت غلافها صورته وأن أكثر من مقالة قد أظهرت عنه، وأنه فعلًا، أصبح، حتى بمرضه، حديث الناس.

وكنت أقرأ من زمن في عينيه أنه يريد إذا مات أن يكون موته حديث النفس فعلًا، وربما «بروفاته» للموت، كانت في حقيقتها بروفات «للميتة» وما يتلوها، وليس أبدًا رغبة حقيقية في مواجهة الموت معاذ الله.

وليس هذا غريبًا على تفكير توفيق الحكيم؛ فهو الذي كتب مسرحية «عرف كيف يموت» عن ذلك الباشا الذي رتَّب كل شيء لموته، حتى النعي، ومندوب الملك، وشكل الجنازة، ثم كانت الضحكة الكبرى التي أطلقها توفيق الحكيم المؤلف المسرحي حين حدث ما لم يتوقعه الباشا أبدًا، وحين مات حدث عكس ما رتَّب له تمامًا، ودُفن في مقابر الصدقة.

فعلًا كان الحكيم مريضًا هكذا قال لي الدكتور عبد العزيز إسماعيل، ولكن مرضه قديم، والأطباء الشبان حين يرون التشخيصات تنتابهم الخضة؛ فقد درسوا في كتبهم أن من يعاني منها يموت بعد ساعات، بينما الحكيم عانى منها طوال عشرين عامًا وأكثر، وذات يوم دق التليفون في منزلي وكان توفيق الحكيم يتكلم من المستشفى، ويهنئني، ويا للمضحك، بعيد ميلادي، ويُسر لي بأمنيته أنه كان يتمنى لو كنت ابنه ولو كان قد تزوج مبكرًا كفاية لكنت ابنه، أية سعادة غمرني بها الرجل حتى قلت له ما قاله جور كي لتشيكوف في خطاب، إن معرفتي بك يا أبي، أنت أبي، هو خير مدح حصلت عليه، وخير تكريم نلته في حياتي.

وجذبت الممرضة منه السماعة إشفاقًا عليه؛ إذ كان يكح كحة يظنها غير الطبيب خفيفة، ولكني كطبيب سابق عرفت أنها كحة هبوط القلب.

وجمدت يدي على سماعة التليفون، أيكون الحكيم قد نوى أن يودعنا هذه المرة، هو الذي عودنا على أن يقول للموت باي باي، ويخرج صحيحًا معافًى؟!

وأسرعت إلى المستشفى، كان نائمًا، وكانت ابنته الحنون زينب غافية بجواره، وعلى أطراف أصابعي انصرفت بعد أن اطمأننت من الأطباء أن علاج الهبوط بالقلب جارٍ على قدم وساق وأنه سيمر.

ولارتباطي بمواعيد حديدية لا سبيل إلى إلغائها ركبت الطائرة في رحلة طويلة لم أعد منها إلا منذ أيام، وقرأت فيها الخبر.

سأم من الحياة طال، ورغبة في الموت لا بأس من ملاعبتها وملاعبته.

ولكن، في لحظة، تنقلب اللعبة «جدًّا» ويحس توفيق الحكيم أن شيئًا حقيقيًّا يسحب الإرادة من جسده أو يحس أنه غاب عن الوعي، فلم يُخلق بعد ذلك الإنسان القادر أن يرى الموت رأي العين ولا يصيبه الرعب الأعظم، أعظم درجات الرعب، وكان الحكيم لا يرعبه شيئًا، ولم أره مرعوبًا أبدًا، ولكني، من فرط حبي له لم أكن أتصوره أبدًا يواجه الموت.

ولكنه رأى الموت، حتى في إغمائه رآه.
وحمدًا لله أن الرعب ألغى الوعي.
فهي لمحة رعب أولى وأخيرة.
يا لبشاعتها كنهاية لعبة!

مات توفيق الحكيم الشخص والعصر رحمهما الله.
مات عصر.
وخيَّم عصر.


هنداوي